

RCHRS

Ramallah Center for Human Rights Studies

مركز رام الله لدراسات حقوق الانسان



مجلة فكرية دورية تعنى بقضايا التسامح وحقوق الإنسان

العدد الخامس والخمسون، كانون اول 2016

رئيس التحرير

د. إياد البرغوثي

مدير التحرير

طلال أبو ركة

مستشارو التحرير

- | | |
|-----------------------------|---------------------|
| د. محمد محفوظ | د. نها بكر |
| د. عبد الرازق العياري | أ. ريم نزال |
| د. عبد الرحمن الحاج إبراهيم | د. الزبير عروس |
| أ. وفيق هواري | د. جمال بن دحمان |
| أ. طلال عوكل | د. شرزاد أمين |
| أ. زياد عثمان | د. عبد الحسين شعبان |
| أ. زهير الدبعي | د. أحمد البرقاوي |



Ramallah Center for Human Rights Studies
مركز رام الله لدراسات حقوق الانسان

ص.ب 2424، رام الله، فلسطين
تلفاكس: 02 2985815
بريد الكتروني rchrs@rchrs.org
موقع الكتروني www.rchrs.org

جميع الحقوق محفوظة

© Copyright

RCHRS, Ramallah, Palestine

بالتعاون مع

Friedrich Naumann
STIFTUNG FÜR DIE FREIHEIT

ملاحظة:

الأفكار الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان.

مونتاج الكتروني: بلوبل للدعاية والإعلان

المحتويات

الافتتاحية

0

دراسات ومقالات

- ٩ جذور التكفير في الفكر الإسلامي جمال جودة
- ٢٣ الاغتيال السياسي جريمة دينية ووطنية وأخلاقية زهير الدبعي
- ٤٧ نمو ظاهرة التطرف باسم الدين اياد البرغوثي
- ٦٣ ما هذا الذي يحدث في الشرق الاوسط؟ أين يكمن الخطأ؟ شيرزاد النجار
- ٥٥ قراءة في مستقبل حركة تنظيم الدولة " داعش" نضال أبو عيشة
- ٧١ ثقافة الكراهية والتحريض الاب الشرعي لرفض الاخر وتصفيته زياد عثمان
- ٨١ الجماعات الجهادية في فلسطين اسلام موسى
- ١٠١ الخطاب الإعلامي الإسرائيلي استراتيجياته ومقاصده عماد موسى
- تجربة الحراك المجتمعي لاستعادة الوحدة الوطنية حتى ٢٠١٦ عبد الحميد أبو النصر

قوانين وتشريعات

- ١٢٣ الرقابة القضائية على أعمال السيادة محمود أبوصوي أشرف صيام
في فلسطين" دراسة مقارنة"

تقارير

قراءة نسوية في مفهوم المرأة الصحية - إعلاميا ومجتمعيا وثقافيا هداية شمعون ١٤٥

ثقافة

أدب الأطفال بين العرب وإسرائيل " المفاهيم والتصورات " محمد العطار ١٥١

عندما تنظر إلى خارطة العالم العربي، أو تستمع إلى نشرة الأخبار، يقفز إلى رأسك سؤال في غاية الأهمية رغم بدايته... لماذا كل هذا العنف؟ وهل قدر هذه المنطقة أن تعيش دوامة القتل والإرهاب.. وإلى متى؟

ترتيب الأخبار في النشرة تشبه جدول الدروس إلى حد بعيد، تبدأ بحلب وتنتقل إلى الموصل، ثم تذهب إلى سرت في ليبيا، وبعد أن ترى صور القتل والدمار والدماء... يأتيك خبران صغيران وكأنهما ملحق، أو (على البيعة) كما يقال، عن مقتل عدد من الجنود المصريين في سيناء، ومقتل فلسطيني في غزة أو الضفة بفعل الجنود الإسرائيليين....

لماذا نحن؟ هل هو النضال من أجل الديمقراطية؟، وهل في العالم نحن فقط من يناضل من أجل الديمقراطية؟ هل كل شعوب العالم، أو معظمها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية حققت الديمقراطية واستراحت أم رضيت بالدكتاتورية وأراحت؟

كل شعوب الأرض تسعى للديمقراطية أو لتحسين ديمقراطيتها، لكنها تفعل ذلك بهدوء. عندنا نحن فقط.. يقاتل «الإرهابيون» «الديكتاتوريين» من أجل تحقيق الديمقراطية لشعوب هي بأمس الحاجة للديمقراطية.. لكنها قبل ذلك هي بحاجة أكثر للحياة وللأمن وقليلاً من الهدوء.

كيف وصلنا لهذه الصورة السريالية، وكيف استدعينا كل أسباب الانقسام والتعصب والقتل من أجل أن نقتل بعضنا البعض، كيف استدعينا التاريخ والدين «وأخلاق» القبيلة من أجل أن نبرر قتلنا لبعضنا البعض.

مرة أخرى نوكد ما أكدته وتؤكدده الآن تجارب الشعوب وهو أنه قبل الحديث عن الديمقراطية والانتخابات وتداول السلطة وتوزيع الثروة، وكل ما في قاموس العصر من مفردات لها علاقة بالديمقراطية، ينبغي أولاً أن نقبل بعضنا البعض، أن ننظر إلي ما يجمعنا وإن كان لا بد من استحضار الدين والتاريخ وكل ما في الجعبة من أدوات، لتكن من أجل أن نكون معا بود وسلام وطيبة.

هذا هو التسامح الذي نعتبره متطلباً لا بد منه من اجل أية خطوة لاحقة. إذ لا يوجد مجتمع في الدنيا مكون من متشابهين اطلاقاً فالتنوع أساس المجتمعات، والتسامح وحده هو الذي يقر بهذا التنوع، ويستخدمه من أجل مزيد من القوة والمنعة والتقدم.

وإلي نشرة أخبار أجمل

رئيس التحرير.

دراسات
ومقالات

جذور التكفير في الفكر الإسلامي

جمال جودة *

جاء الإسلام لدى العرب في العصور الوسطى حاملاً معه مشروعاً سياسياً دينياً لوراثة الأمم السابقة وخلافة الأرض ومن عليها لتوحيد العالم، أو تعريبه، تحت شريعة السماء، ولتحقيق هذا المشروع طرح الإسلام مصطلحي الجهاد (الحرب المقدسة) والأمة (الجماعة التي ترتبط فيما بينها بولاء العقيدة)، ومع طرح هذين المصطلحين ظهرت الأهداف السياسية للدعوة الإسلامية متمثلة في بيعة الرسول (ص) على السمع والطاعة لمن يدخل في الإسلام، وبناءً عليه ومنذ البدايات، فقد سُيس الدين ودُنيت السياسة في دولة الإسلام. وهكذا يُلاحظ أن جميع المصطلحات الحضارية الإسلامية حملت معنيين أو مفهوم سياسي ومفهوم ديني مثل: الجهاد، والأمة، والبيعة، والخلافة، وإمارة المؤمنين، والصلاة، والفيء، والجزية، والإيمان، والكفر موضوع دراستنا في هذه الورقة. اشتق مصطلح التكفير من الفعل الثلاثي كَفَرَ، ويعني لغة تغطية الشيء وستره وإخفائه (أنظر ابن منظور، لسان العرب، مادة كفر. الطبري، تأويل، ج ٦، ص ١٥٣) وهكذا قيل للفلاح المزارع كافراً، لأنه يستر ويغطي البذور بالتراب أثناء الحراثة، وبذا يذكر ابن منظور أن الكُفْر كلمة سريانية وتعني القرية، وحتى الآن فإن هناك كثيراً من القرى تحمل اسم كُفْر مثل كفر الديك وكفرعين وكفر مالك.... الخ، وهنا يُفهم قوله تعالى «كمثل غيث أعجب الكفار نباته» (القرآن، الحديد ٥٧)، وبذا قيل الليل كافر لأنه يستر بظلامه كل شيء، وللبحر كافر لأنه يغطي ما فيه، وللمقاتل لابس درعه كافر لأنه يغطي جسمه، وللتراب كافر لأنه يستر ما تحته، وللقبر كافر لأنه يخفي ما فيه ويدعى السحاب المظلم كافر لأنه يغطي ما تحته، والكافر من الأرض ما بعد من الأرض عن الناس، وهكذا الكُفْر لغة تغطية الشيء وكل ما يَسْتُرُ وَيُغْطِي وَيُخْفِي شيئاً فهو كافر، وبذا سميت الكُفارات بذلك لأنها تغطي الذنوب وتسترها.

أما المفهوم الاصطلاحي للكفر فقد تحدثت كتب التراث الإسلامي وفي مقدمتها القرآن الكريم عن معان عديدة للكفر، كما ويلاحظ أن هذا المصطلح مر بتطورات عديدة في فترة التكوين للفكر الإسلامي.

أكد القرآن في كثير من آياته أن الذي لا يؤمن بالله ووجدانيته فهو كافر (أنظر: القرآن، الزمر ٧، ص ٥، الأحقاف ٣. آل عمران ٢٢. المائدة ٥. النساء ١٣٦) ومن لا يصدق رسله جميعهم بما فيهم محمد بن عبد الله وأنهم مبعوثون من الله للناس كافة فهو كافر (أنظر: القرآن، ص ٥. الكهف ٥٦. الرعد ٤٣. الأنعام ١٣٠. البقرة ١٢٦. التوبة ٤٠. النساء ٧٠. المائدة ٢٦. ١١٠. يونس ٢. هود ٢٧. الأعراف ٩٠-٩٣، ١٠١) يقول تعالى: «يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً» (القرآن، النساء ١٣٦) ومن لم يؤمن بما جاء به الرسل جميعاً من عند الله من آيات وكتب فهو كافر (أنظر: القرآن، المائدة ١٢، ١٠، ٧٣، ٨٦، البقرة ٢٦، ٢٧، ٣٩، ٦١، ٩٠، ٩١، ٩٩، الحديد ١٩. فصلت ٤٢. آل عمران ٧٠، ٩٨، ١١٦. النساء ٥٦. الكهف ١٠٥. الزمر ٥٩) وهكذا وصف القرآن الذين كفروا وكذبوا بآيات الله دعواهم حين قالوا عن آيات الله أساطير الأولين (القرآن، الانعام ٢٥. ص ٥). وهكذا وصف القرآن الأقوام التي بعث الله لها الرسل والأنبياء وكذبوهم ولم يصدقوهم بالكفار، كقوم إبراهيم خليل الرحمن (القرآن، البقرة ١٢٦) وقوم عاد وثمود (هود ٦٠) وقوم نوح (هود ٤٢) واليهود أيام عيسى ممن حاربه منهم ولم يصدقه (المائدة ١١٠، آل عمران ٥٧) والعرب وسكان مكة ويهود الحجاز (التوبة ٤. المائدة ٢٦. الحشر ٢، ١١. آل عمران ١١٦، البقرة ٤٠، ٤١، ٤٨، ٨٩. البينة ٦). وقد أطلق العلماء على هذا النوع من الكفر كفر الإنكار، أي لا تقر بالله ووجدانيته ولا برسله ولا بكتبه ولا تصدق ذلك لا بقلبك ولا بلسانك (أنظر: القرآن، الروم ١٢، ١٣). وهكذا كفر القرآن كل من لا يؤمن ويصدق بالبعث أو يوم القيامة والحساب (القرآن، هود ٧، ٩. الرعد ٥. النمل ٦٨. الكهف ١٠٥).

اعتبر القرآن الذين يعددون الآلهة ويشركون مع الله أشياء أخرى أو آلهة أخرى يعبدونها كُفَّاراً بالله وبالرسول (أنظر: آل عمران ٨٠، يوسف ١٠٦. الرعد ٣٣. البينة ١. النحل ٥٥. الزمر ٨. الانعام ١. التوبة ١، ٢، ٣، ١٧. المائدة ١٧، ٧٢) يقول تعالى: «ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (يوسف ١٠٦) ويقول جل وعلا: «ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر» (التوبة ١٧). وهكذا اعتبر القرآن النصارى كُفَّاراً لأنهم آمنوا وقالوا بالتثليث يقول تعالى: «لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم» (المائدة ١٧، ٧٢). ولكن المشركون أيضاً يؤمنون بالله ويعبدون معه آلهة أخرى أو الأصنام والأوثان والكواكب يقول الله في هذا الشأن: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى» (الزمر ٣). وقد أطلق العلماء على هذا الكفر كفر شرك.

ويرد في التراث الإسلامي وخاصة القرآن أن من أشكال الكفر أن تؤمن بقلبك ولكن لا

تعترف بلسانك، ولا تخضع وتطيع سنة الله ورسله وأولي الأمر كإيمان إبليس وإيمان أبي طالب يقول تعالى: «وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين» (البقرة ٣٤) وقد دعي هذا النوع كفر جحود.

وأشار القرآن كذلك أن من لا يحكم بما أنزل الله فهو كافر يقول تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (المائدة). وهكذا لما اقتتل الأوس والخزرج فيما بينهم على ثارات الجاهلية انزل الله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله» (آل عمران ١٠١) وبذا فإن عدم الالتزام بالسلم الأهلي بين المسلمين والذي حث عليه القرآن والرسول (ص) عُدَّ كفراً، وفي هذا المفهوم قال رسول الله «لا تعودوا بعدي كُفُاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» (البخاري، صحيح، ج ٢، ص ٨٥) أي أن اقتتال المسلمين فيما بينهم خروج عن تعاليم الله وهو بحد ذاته كُفُاراً، وقد عُدَّ هذا الكفر كُفُراً معاندة.

وهكذا اعتبر القرآن أن المسلم الذي يعمل الكبائر والمنكرات ويعصي الله كافراً، وبذا قيل «إذا ألجأت مطيعك أن يعصيك فقد أكفرت» (ابن منظور لسان، مادة كفر) وقيل لهذا الكفر كفر مخالفة أو كفر معصية.

ويؤكد التراث الإسلامي بما في ذلك القرآن أن من لا يعترف لأهل الفضل بفضلهم ولا يشكرهم على ذلك فقد أدخل نفسه في الكفر ويدعى كافر نعمة، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى «وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليهم بالمتقين» (آل عمران ١١٥)، وهكذا قال العرب النساء أكثر الخلق كُفُراً لأنهن يجحدن إحسان أزواجهن (ابن منظور، لسان، مادة كفر)، وقد كافرني فلان حقه أي جحده، وهكذا كتب عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف بعد معركة دير الجماجم سنة ٨٣ هـ أن يسأل كل من خرج عليه «من أقر بالكفر فخل سبيله» أي من اعترف أنه كفر لأنه جحد ولم يقر ويعترف في حق بني أمية بالخلافة أي جحدهم حقهم هذا الذي أعطاهم الله إياه. وهكذا لما ثار بكير بن ماهان على أمية بن عبد الله عامل عبد الملك على خراسان وكان أمية قد احسن إليه وأطلق يده في الأموال علّق أمية قائلاً «إني أحسنت إلى بكير فكفر إحساني» (أي جحده وثار ضدي (طبري، تاريخ، ج ٦، ص ٣١٣)

يبدو أن الديانات نشأت في بيئات متحضرة، ودعت إلى التحضر والاستقرار أيضاً، وبذا اعتبرت البداوة والريف متأخرون وهمج، وبذا ارتبط الكفر عند أصحاب الديانات بهم لأنهم بعيدين عن أهل العلم والأمصار فهم جهلة وأهل بدع وأهواء وشعوذة (أنظر ابن منظور، لسان، مازلة كفر). ويظهر أيضاً أن ارتباط الذل والخضوع في دولة الإسلام بأهل الذمة أو بالكفار لدفعهم

الجزية، وهكذا قيل إن من معاني الكفر إظهار الذل والخضوع والانقياد للآخر.

إن منع إداء الحقوق لأصحابها يؤدي إلى تكفيرهم، أي يُعد الاحتجاج على المسؤول أو الدولة كُفراً، فقد جاء في رسالة لعمر بن الخطاب إلى أحد قادة جيوشه أثناء الفتوح «فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرأ فتوؤذيتهم، ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١١٥) وجاءت الرواية في نص آخر أن عمر كتب إلى عماله على الأمصار «لا تضربوا المسلمين فتوؤذوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٠٤)، ويمكن اعتبار هذا النوع من الكفر كفر الشعور بالظلم والامتناع لذلك أو كفر معصية.

ومن أغرب معاني الكفر التي استخدمها العرب المسلمون في البدايات أثناء الفتوحات وبعدها، حينما وصفوا أي بلد أو منطقة ثارت على الحكم الإسلامي أو الصلح الذي جرى بين المسلمين وبين أهل البلد أو نقضوا صلحهم وطرّدوا عامل المسلمين ولم يدفعوا جزية عدّوا كفاراً أو أنهم دخلوا في الكفر فيذكر أن عطاء الخراساني قال لابن جريج عن بلد تُسْتَر «كفيتك أن تستر كانت صلحاً، فكفر أهلها، فغزاهم المهاجرون، فقاتلوهم المسلمون فسبوهم» (ابن زنجويه، أموال، ص ١٨٩) ويذكر أنه لما فتح خالد بن الوليد الحيرة وأليس وبنافيا أو الحصون على نهر الفرات، وغادر خالد العراق إلى الشام يذكر الراوي «فكفر أهل السواد بعد موت أبي بكر، استخفوا بالكتاب (كتاب الصلح) وضيعوه وكفروا فيمن كفر، وغلب عليهم أهل فارس» (الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٦٤). ويذكر المدائني «أن سعيد بن العاص صالح أهل جرجان فكانوا يجيئون أحياناً بمائة ألف، ويقولون هذا صلحنا، وأحياناً بمائتي ألف، وأحياناً بثلاثمائة ألف، وكانوا ربما أعطوا ذلك وربما منعه، ثم امتنعوا وكفروا، ولم يعطوا خراجاً» (الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٥٣٦) ويذكر الطبري رواية تقول «في سنة ١٧ هـ، كفر الهرمان، ومنع ما قبله، واستعان بالأكراد فكتر جنده» «فكتب عمال عتبة بن غزوان عامل البصرة لعمر بن الخطاب إليه» «بغى الهرمان وظلمه وكفروه» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٦) وفي رواية بإسناد جمعي تقول «وقد كان أهل همدان قد كفروا بعد الصلح» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٣٨) ويذكر راو آخر «وكفر أهل أرمينية أيام معاوية» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ١٦٢) وغزا الوليد بن عقبة أرمينية للمرة الثانية فكتب إلى عثمان بن عفان «إن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسناً، ردّ عليهم بلادهم التي كفرت» (الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٤٨) وهناك الكثير من الروايات التي تشير إلى هذا المفهوم من الكفر، فإذا ثارت أي منطقة فُتحت وضمّت لدولة المسلمين فإنها دخلت في الكفر. وهنا يبدو واضحاً سبب تقسيم علماء المسلمين العالم إلى دارين دار كفر ودار إسلام.

أكد القرآن أن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق يقول تعالى « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض، (القرآن، النساء، ١٧٠، ق٧)، ويقول تعالى «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين» (الأنفال ٧) ويذكر جل وعلا «وأنزله معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» (البقرة ٢١٣) وقال أيضاً «لقد جاءت رسل ربنا بالحق» (الأعراف ٤٣) وأكد بالمقابل أن ما سوى سنة الله وشرعه باطلاً يقول تعالى «ليحق الحق ويبطل الباطل» (الأنفال ٨) ويشير الى أن الكفار كذبوا بالحق يقول «فقد كذبوا بالحق لما جاءهم» (الانعام ٥) وقد تناول القرآن هذا الموضوع في عشرات من الآيات ليوكد أن ما جاء به محمد (ص) هو الحق وغيره باطلاً، فاتبع المؤمنون الحق واتبع الكفار الباطل (انظر: القرآن يونس ٨٢، ٩٤. التوبة ٢٩. المائدة ٨٤. آل عمران ٦٢. البقرة ١١٩).

واتخذ القرآن من الكفار موقفاً سلبياً، ووصفهم بصفات سلبية، فقد عددهم في آياته أولاً بأنهم أعداء المسلمين (النساء ١٠١) وأولياء الشيطان (النساء ٧٦) بل هم في حد ذاتهم شياطين (البقرة ١٠٢) وصمَّ بكم عمي لا يعقلون (البقرة ١٧١) ومحتوم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم غشاوة (البقرة ١٨٢) وكذابون (الانعام ٢٣) وظلمة يمارسون الظلم دائماً (البقرة ٢٥٤، المائدة ٥١) ومفسدين في الأرض (البقرة ١٨٢، المائدة ٣٣) وفاسقون (البقرة ٩٩، التوبة ٨٤) وخاسرون (المائدة ٤٥) ولا يعرفون الحق ويجهلونه (البقرة ٨٩) ويتبعون الباطل دائماً (محمد ٣) وسبيلهم الضلال وهم أهل ضلالة (آل عمران ٩، المائدة ١٢) ينكرون الجميل ولا يشكرون فاعله (النحل ٧٢، البقرة ١٥٢) ومنافقون يقولون ما ليس في قلوبهم (التوبة ٥٤) وليس لهم عهد وينقضون مواعيقهم وأهل غدر (البقرة ١٨٢) وجبناء في قتالهم مع المؤمنين (الأنفال ٦٦) يحبون الحياة الدنيا ويفضلونها عن الآخرة (إبراهيم ٣) ولا يتقون الله (النساء ١٣١) وهم شر خلق الله (الأنفال ٥٥).

اتخذ القرآن والرسول (ص) وصحابته موقفاً سلبياً متشدداً من الكفر والكافرين، الذي تحدد بغير المسلمين أو ممن لا يؤمنون ويقرون بالله ورسله وما جاؤا به من عند الله، ثم تطور ليعني من لا يؤمن. بمحمد بن عبدالله رسولاً وما جاء به من عند الله ويصدقه. وإذا ما استعرضنا الخطاب القرآني فإننا نراه يقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، فيقدر ما خاطب المؤمنين ووصفهم بالصفات الحميدة كالصدق والوفاء والإخلاص والإحسان، وجمع لديهم كل خصال الخير البشرية في الدنيا وأكثر من جزائهم في الجنة يوم القيامة وتفنن في تصوير أوضاعهم المريحة يوم القيامة (القرآن، المؤمنين ١-١١. البقرة ٢٥-٤٠) وبالمقابل تحدث كثيراً عن الكفرة والكفار ووسمهم بأسوأ الصفات البشرية في الحياة الدنيا وأكثر من توعدده لهم يوم القيامة بجهنم وشدة العذاب الخالد أبداً، وعدد أصناف العذاب وأشكاله التي لا تخطر ببال بشر، إن الكفر

بوجهة نظر القرآن اسم جامع لجميع الشرور البشرية ورذائل الشيطان جميعها (القرآن، البقرة ٢٣، ٦، ٧، ٢٦، ٣٩، ٨٣، ٨٩. الإسراء ٣٩. الأنعام ٥١. الأعراف ٢٦، ٤٥. الأنفال ٣٥. التوبة ٨. المائدة ١٠، ٣٣. آل عمران ١٣١. النساء ٥٦).

وقد دعى القرآن إلى عدم موالاته الكفار أو التحالف معهم (القرآن، الممتحنة ٩. المائدة ٥١. التوبة ٢٣) يقول تعالى: «بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم» (المائدة ٥١) ويقول جل وعلى: «ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون» (التوبة ٢٣. النساء ٨٩) وأكد أن المؤمنين أولياء الله بينما الكفار أولياء الشيطان (القرآن، البقرة ٢٧. آل عمران ١٧٥. النساء ١١٩. المائدة ٥٥. النحل ٦٣) ويشير أنه لا يجوز للمسلمين إطاعة أهل الكفر في آرائهم مهما كانت أي عدم جواز الثقة بهم (آل عمران ١٥٠) ولما فرض الجهاد بعد الهجرة النبوية دعت الآيات إلى قتال الكفار وجهادهم وخاصة بعد فتح مكة ونزول سورة براءة، يقول تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة» (التوبة ١٢٣) ويقول أيضاً: «الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا» (النساء ٧٦. الأنفال ١٦. التوبة ٧٤، ٧٣) ويضيف أيضاً «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» (الأنفال ٣٩) ويذكر أيضاً «واقتلوهم حيث ثقفتموهم . كذلك جزاء الكافرين» (البقرة ١٩١).

وأباح القرآن للمسلمين أن يمثلوا في الكفار عند قتلهم يقول تعالى «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف» (المائدة ٣٣)، وقد ظهر ذلك في السنة النبوية، فيذكر الرواة أن عشيرة عكل أسلمت ولحقت بالمدينة، فلما انتعشوا سرقوا إبل الصدقة وارتدوا إلى البادية وكفروا، فلحق بهم المسلمون وجاءوا بهم إلى رسول الله « فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقون، فما سقوا حتى ماتوا عطشاً» (البخاري، صحيح، ج ٨، ص ٢٠١، ٢٠٢).

وانطلاقاً من كل ما سبق واعتماداً عليه فقد اتخذ الوحي والرسول في نهاية المطاف موقفاً واضحاً من الإيمان والكفر، وقسم الناس جميعاً إلى مؤمنين وكفار يقول تعالى: «هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (التغابن ٢)، وأضحى الإيمان يعني الإقرار قلباً ولساناً بالله ووحدايته، والتصديق بذلك وما يتبعه من التصديق بالرسول وما جاؤا به من عند الله وآخراهم محمد بن عبد الله، وما جاء به الوحي إليه من القرآن الكريم، ومن لا يقر بذلك ويصدق قلباً ولساناً فهو كافر مهما كان جنسه أو لونه، ومع أن القرآن اعتبر أهل الكتاب مؤمنين في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية لكن بعد ظهور الأهداف السياسية للدعوة اعتبرهم كفاراً إذا لم يصدقوا بمحمد ويحجوا البيت الحرام في مكة، أما الإسلام فكما يبدو، ارتبط ظهور

المصطلح بظهور الأهداف السياسية للإسلام كذلك وظهر أنه كان يعني الإيمان بالله ورسله الذين جاؤوا قبل محمد، وهكذا أطلق القرآن على الديانات السابقة والأنبياء كلهم مسلمين، ويبدو أنه وفي القرن الهجري الأول ومن خلال خطاب القادة في دولة الإسلام كان هناك فئتان في المجتمع المسلم: المؤمنون والمسلمون، فكان المؤمنون من آمن بالله ورسله وكتبه جميعها بما فيها محمد بن عبدالله والقرآن الكريم، أما المسلمون وهم من آمن بالله ورسله من أهل الكتاب ولم يؤمن بمحمد لكنه مُقر بتبعيته لدولة الإسلام سياسياً وليس عقائدياً. ويبدو أن هذا هو سبب الخلط بين الإسلام والإيمان الذي حصل لدى علماء الأمة من التابعين وتابعيهم فزى أن كل العلماء والفقهاء تناولوا الفرق بين الإسلام والإيمان، ومن شبه المؤكد أن الفارق بين الإيمان والإسلام قد التبس على أهل العلم حتى صار بعضهم يكفر بعضاً بغير علم ولا بيان (إخوان الصفا، ج ٤، ص ٦١).

ولما قامت حركة الردة خارج الحجاز ضد حكومة المدينة ومركزيتها ودعوتها رافضين الخضوع سياسياً لها اعتبر هذا ردة عن الإسلام وكفراً، وهنا يفهم قوله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» وهكذا أضحى الكفر يعني عدم الخضوع لدولة الإسلام أو الانتفاضة على الدولة بعد الخضوع لها يعد دخولا في الكفر، وهذا ما يفسر لنا ما جاء في مصادرنا الإسلامية جميعها، عندما ذكرت بعد حركة الفتوح أن كل منطقة فتحت وصالت ثم انتفضت ونقضت صلحها للمسلمين وتبعيتها لهم دخلت بذلك في الكفر وأضحى سكانها كفاراً، وهنا يمكن فهم تقسيم علماء الأمة العالم إلى دارين دار إسلام ودار كفر.

كان لنجاح صحابة الرسول (ص) في إنشاء دولة الخلافة بعد الانتصار في الفتوحات الأولى على بيزنطة وفارس بعد معركتي اليرموك والقادسية، وما رافق هذا من إنشاء دور الهجرة في كل من العراق والشام ومصر وهجرة العرب إليها وتنظيمهم فيها في ديوان العطاء عسكرياً ومالياً واجتماعياً ودينياً، كان لهذا كله أثر كبير في إحداث تطورات سريعة وعلى جميع الأصعدة، ومن الطبيعي أن يظهر الخلاف بين المسلمين بين القادة ورؤساء الناس ومن ثم بين العامة وبالتالي بين علماء الأمة، ويعبر أحد علماء الأمة المتأخرين عن هذه التطورات والخلافات بقوله: «اختلف الناس بعد نبينهم، ضلل بعضهم بعضاً، وبريء بعضهم من بعض، فأصبحوا فرقاً متباينين وأحزاباً مشتتتين إلا أن الإسلام يجمعهم ويشتمل عليهم» (الأشعري، مقالات، ص ٧).

وبناءً على هذا ظهرت الدولة والمعارضة بعد أحداث الفتنة الأولى حين ظهر أول حزب ديني سياسي أو أول فرقة في مرحلة النشأة والتكوين للدولة الإسلامية وهم الخوارج، وذلك في معركة صفين في الجيش العراقي سنة ٣٧هـ عندما اعترضوا على وقف القتال وإبرام هدنة وصلاح وتحكيم القرآن والسنة للنظر في أحداث الفتنة وتنصيب أمير المؤمنين للأمة.

اتفق العلماء المسلمون والمؤرخون أن أول مسلم كفر مسلماً آخر اختلف معه في الرأي جهاراً هم الخوارج، وذلك عندما اعترضوا على علي بن أبي طالب عندما قبل التحكيم في معركة صفين. يذكر أنه لما دعى معاوية بن أبي سفيان إلى المصالحة ورفع المصاحف للرجوع إليها رفض علي بن أبي طالب ذلك واعتبرها مكيدة من معاوية وعمرو بن العاص، جاء القراء الذين في جيش علي بن أبي طالب وقالوا له: «أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا سندفعنك برمتك إلى القوم، أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان، إنه علينا أن نفعل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه، والله لتفعلنها أو نفعلها بك» (الطبري، تاريخ، ص ٥، ص ٤٩). ولما قبل على التحكيم والمصالحة وكتب وثيقة الصلح بينه وبين معاوية ظهرت المعارضة في جيشه لهذا الصلح وكان رأيهم في مقولاتهم لعلّي «أتحكمون في أمر الله الرجال؟! أشرط أوثق من كتاب الله وشرطه؟! أكنتم في شك حين قاتلتم؟! لا حكم إلا لله» (البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٢٣٢) ويذكر أن رجلاً من بني يشكر قال لعلّي: «شككت في أمرك، وحكمت عدوك، ودهنت في الجهاد» (البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٢٤٧) وقال آخر: «يا علي، ارتددت بعد إيمان، وشككت بعد يقين، اللهم إني أبرأ إليك من صحيفتهم وما فيها وطعن رجلاً من أصحاب علي وقتله» (البلاذري، أنساب، ج ٢، ص ٢٣٣). وهكذا أضحي شعارهم الذي ينادون به عند قتالهم لا حكم إلا لله.

يبدو واضحاً أن الخوارج هؤلاء قد اعتبروا أن أمر الله أو الإمامة التي تولاها علي بن أبي طالب بأمر من الله وقدره لا يجوز الشك فيها أو التنازل عنها، وإلا لماذا قاتل علي وقتل الناس معه، وهكذا كان قبول التحكيم ووضع محكمين لإعادة النظر في إمامة علي خرقاً لحكم الله و خروجاً من الدين وهذا ما عناه أبو ملجم عندما طعن علي قائلاً «الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٤٦) وقال أحد قادة الخوارج لعلّي الشيء نفسه عندما دعاه للرجوع لجماعته لقتال أهل الشام «يا علي، لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، و إني غداً لمفارقك» وقال علي: «إذا تعصي ربك، و تنكث عهذك، ولا تضر إلا نفسك، خيّرني لم تفعل ذلك» فقال: «لأنك حكمت الرجال في الكتاب، و ضعفت عن الحق إذ جدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم فأنا عليك رازٍ، و عليك ناقم، ولكم جميعاً مبين» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١١٣).

يبدو واضحاً أن الذين اعترضوا على قبول علي بن أبي طالب للتحكيم وإيقافه للقتال، انطلقوا من موقف ديني جبري يؤكد أن أمر الله أو الأمة أو الخلافة أي أماره المؤمنين قد حكم الله بها لعلّي حينما بايعه المسلمون وقاتلوا معه معاوية وأهل الشام حتى يأخذوا منهم البيعة لعلّي، وأن في قبول علي تحكيم الرجال في أمر أقره الله وقضى به الدين من قبل وقاتل المؤمنون معه بسبب ذلك كله لم يكن مقبولاً لدى هذه الجماعة واعتبر خروجاً من الدين وارتداداً عنه

ودخولا في الكفر، ويبدو هذا واضحا من الحوار الذي دار بين ابن عباس وبين أحد قادة الخوارج قبيل معركة النهروان حين قال ابن عباس لهم: «ما نعمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل: «إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما» فكيف بأمة محمد».

فردت الخوارج قائلة «أما ما جعل (الله) حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو راجع إليهم كما أمر به، وما حكم (الله) وأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكم في الزاني مسألة جلده، وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٥).

وتطور موقف الخوارج الى أن قالوا أن علي بن أبي طالب ومن معه قد كفروا بموقفهم هذا، واعترفوا أنهم أثموا لما وافقوا على التحكيم ابتداءً ولكنهم تابوا «إنا حكمنا، فلما حكمنا أثمنا، وكنا بذلك كافرين، وقد ثبتنا» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٨٤) وهكذا قال الخوارج لأتباع علي وأتباع معاوية بعد إرسالهم وفدي التحكيم «استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان، بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا، وبايعتم أئمة علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٤) وقالوا لعل علي في أثناء حوارهم معه: «إِنَّكَ لَمْ تَغْضَبْ لِرَبِّكَ إِنَّمَا غَضِبْتَ لِنَفْسِكَ، فَأَنْ شَهِدْتَ عَلِيَّ نَفْسَكَ بِالْكَفْرِ، وَاسْتَقْبَلْتَ التَّوْبَةَ، نَظَرْنَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَإِلَّا فَقَدْ نَابِدْنَاكَ عَلِيَّ سِوَاهُ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٧٨) وعبر عن الشيء نفسه أحد قادة معاوية في حديثه عن الخوارج «فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا، وشهدوا علينا بالكفر» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ١٨٦) وقال الشيء نفسه أحد أتباع الجماعة في حديثه مع الخوارج «إِنَّكُمْ رَكِبْتُمْ عَظِيمًا مِنَ الْأَمْرِ، تَشْهَدُونَ عَلَيْنَا بِالشَّرْكِ، وَالشَّرْكَ ظَلَمٌ عَظِيمٌ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَتَعْدُونَهُمْ مُشْرِكِينَ» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٨٣) وقال أحد الخوارج للحسن بن علي لما تنازل لمعاوية عن الخلافة «أشركت كما أشرك أبوك» (ابن الجوزي، تلييس، ص ٩٥).

وانطلاقاً من هذا الموقف السياسي الديني الذي اتخذه عدد لا بأس به من جيش علي أعلن هؤلاء البراءة من علي ومعاوية وجيشهما وقاموا بالانفصال عن علي مشكلين جماعة خاصة بهم دعوتهم الدولة بالخوارج، ونزلوا بقرية اسمها حروراء ولم يدخلوا الكوفة ثم تركوها ونزلوا النهروان على شاطئ دجلة واتخذوها دار هجرة ودعوا إلى اللحاق بهم فيها، وطرحوا برنامجهم السياسي الديني عندما نادى مناديتهم قائلاً «ان أمير القتال شيبث بن ربعي التميمي، وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» (الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٣) تؤكد كافة المصادر الإسلامية على تشدهم الديني واسقاط هذا التشدد على مواقفهم من المسلمين ومسؤوليتهم وهكذا يرجع الرواة أصولهم إلى فترة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين يرون أن رجلاً

اعترض على رسول الله وأتهمه بممارسة الظلم وعدم اتباع العدالة، فيروى أن علي بن أبي طالب بعث بذهب إلى الرسول في المدينة، وهو عامل على اليمن، فقسمه الرسول بين شيوخ بعض القبائل وسادتها مثل زيد الخليل الطائي والأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وعلقمة بن علاثة الهوزني وعامر بن الطفيل الأسدي وقيل في رواية أخرى أن الرسول وزع غنائم حنين على رؤساء القبائل وعلى المهاجرين ولم يعط الأنصار حقهم فيها، فاعترض الأنصار وبعض المسلمين على ذلك فقال الرسول لهم «ألا تؤمنوني وأنا أمين في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً» (ابن الجوزي، تلييس، ص ٩٠). وفجأة أتاه رجل عجوز، غائر العينين، مشرق الوجنتين، ناتئ الجبهة كثر اللحية، مشتم الأزار، مخلوق الرأس فقال للرسول: «إعدل، فقال له الرسول: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل» وفي نص آخر للرواية أنه قال للرسول «اتق الله يا رسول الله، فقال له الرسول: ويحك أليس أحق الناس أن يتقي الله أنا» ثم انصرف الرجل، فقال عمر بن الخطاب أو خالد بن الوليد للرسول دعني أضرب عنقه، فرد الرسول قائلاً: «لعله يكون يصلي» فقال خالد «إنه رُبَّ مصلٍ يقول في قلبه ما ليس بلسانه»، فقال الرسول: «إني لا أوامر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» فنظر النبي إليه وقال: «سيخرج من ضئضي هذا الرجل قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». وفي رواية أخرى تقول أن الرسول قال عنه وعن أتباعه «يخرج قوم فيكم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية وهم كلاب النار (التجارب، صحيح، ج ٨، ص ١٢٠) وتؤكد كثير من الروايات أن الرسول أمر بقتلهم أينما وجدوا (ابن الجوزي، تلييس، ص ٩٣).

وتشير كافة المصادر عن تشدهم دينياً وتحدث عن ذلك، يذكر ابن عباس أنه لما جاء اليهم في النهروان لمفاوضتهم للرجوع عن رأيهم فيقول: «فدخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهاداً، جباههم قرصة من السجود، وأيادهم كأنها ثغفات الإبل، وعليهم قُمُصٌ مُرْحُضَةٌ، مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر» (البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٧٥) ويذكر راو آخر أنه قدم عليهم أحد أتباع علي في معسكر لهم فيقول «فانتهينا إلى معسكرهم، فإذا لهم دوي كدوي النحل من قراءة القرآن» (ابن الجوزي، تلييس، ص ٩٣)، وهكذا روي عنهم وهم في طريقهم إلى النهروان لقوا عبد الله بن الحباب بن الإبرث فسأله عن علي بن أبي طالب فقال فيه خيراً فأخذه وذبحه كالشاة وأخذوا أم ولده ويقروا بطنها وأخرجوا جبينها وقتلوه (ابن الأثير، تاريخ، ج ٥، ص ٤٣) والفكرة نفسها تروى عن عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي عندما قتله، فعندما قدم ليقول «قطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم، فكحل عينيه بمسماز محمي، فلم يجزع وجعل يقرأ: اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق حتى ختمها، فقطع لسانه فجزع، فقيل: ما هذا؟

فقيل: إنه كره أن يكون في الدنيا موأناً لا يذكر الله، وكان أسمر في جبهته من أثر السجود، (ابن ابي الحديد، شرح، ج ٣، ص ٢٥) ومن خلال التراث الإسلامي كله المتعلق بهذه الفرقة يلاحظ أنهم ذو أصول أعرابية ومتشدددين دينياً، وقد أخضعوا السياسة للدين حرفياً، وهكذا كفّروا علي ومعاوية وأتباعهما وكل من شارك في أحداث الفتنة الأولى وعدوهم مشركين، واعتبروا الأمصار الاسلامية دور شرك وكفر فهاجروا منها والتحقوا بأماكن أخرى دعوا دور هجرة، وأعلنوا براءتهم من السلطة وأتباعها، ورفعوا السيف في وجهها وأعلنوا الجهاد حينها لإقامة دين الله، وكان شعارهم لا حكم الا لله، واتخذوا سلوك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير الفساد والظلم باليد والسيف لا باللسان أو القلب.

وبعد ظهورهم بقليل جاءت فرقة منهم دعيت بالأزارقة لتؤكد فكرة تكفير المخالفين لهم وتكفير الفعدة أو من لا يلتحق بهم لجهاد الظلمة وتكفير من يؤمن بالتقية وكل مرتكب الكبيرة أيضاً وأباحوا قتل الشيوخ والنساء وأطفال مجتمعاتهم ممن يخالفهم، ودُعي قتلهم الناس أو المخالفين بالاستعراض، وهذا كله مأخوذ من الموروث القرآني.

أضف على هذا أن الأمة عندما انقسمت على نفسها الى سلطة ومعارضين مشكلة جماعات وفرق فإن كل فرقة كفّرت أختها المسلمة، وفي الختام يمكن القول أن التكفير هو خطاب قرآني مُسيّس أي أن تسييس الدين وتدين السياسة كان وراء الجذور الأولى للتكفير أو عدم فهم الآخر وتكفيره ويمكن القول بكل وضوح أن آفة الدين تسييسه.

الاغتيال السياسي جريمة دينية ووطنية وأخلاقية

زهير الدبعي *

خلق الله الأرض وخلق فيها متسعاً ورزقاً لجميع خلقه، إلا أن بعض خلقه استبد بهم الطمع فادعوا حقوقاً استثنائية لهم وامتيازات بدعاوى دينية وعرقية وقبلية وطبقية. فاختلقوا نظريات تشرعن ركوبهم ظهور غيرهم وسلبهم أوقاتهم وحقوقهم، وأوجدوا كهنة وكُتاباً وغيرهم من قادة الرأي العام ليخدعوا الناس بأنّ ظلّمهم وتعسفهم أمر طبيعي ومألوف، وربما من مقتضيات تقوى الله.

توصل الناس بعد عصور من المعاناة والاستعباد والاستبداد، ونضال المظلومين، ومقاومة الشعوب إلى مبدأ المساواة بين جميع البشر، وزيف كل تمييز بينهم على أساس ديني وعرقي وقبلي وطبقي، وبالتالي فإن حقهم في التفكير وفي التعبير هو حق طبيعي وأساسي. وأوجدوا صيغاً وتجارب لمشاركة جميع المواطنين في حكم أنفسهم بأنفسهم. أي التوصل إلى حل الاختلافات فيما بينهم بتعداد الرؤوس وليس بقطعها. ورغم ما توصل اليه الناس إلى دور حاسم لصناديق الاقتراع إلا أن قوى متنوعة لدى جميع الشعوب تمسكت بحقها الموهوم بقطع الرؤوس من خلال محاكم لا تستوفي شروط المحكمة العادلة، وربما من خلال قرارات حشود من الجماهير الناقمة الغاضبة التي تقرر إعدام شخص أو أشخاص بطريقة لا تستند إلى أدنى درجة من العقلانية والموضوعية والعدالة، بل حتى الإحساس بالمسؤولية واحترام الذات.

وتعرض كثير من رؤوس الفكر والنضال ضد الاستعمار والظلم الاجتماعي إلى الاغتيال السياسي، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: المهاتما غاندي المفكر والمناضل الأشهر للاعنف في العام ١٩٤٨، واغتيال المناضل اللاعنفي ضد خطيئة التمييز العنصري لوثر مارتن كنغ في الولايات المتحدة الأمريكية في العام ١٩٦٨.

أما الاغتيال السياسي فقد بدأ مبكراً في تاريخ أمتنا وبعد سنوات قليلة من وفاة معلم الناس الخير عليه الصلاة والسلام في السنة في الحادية عشرة للهجرة. فقد اغتيل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب داخل المسجد في المدينة المنورة عام ٢٣ هـ. واغتيال الخليفة الثالث داخل منزله وهو يقرأ في المصحف الشريف في العام ٣٥ هـ. كما اغتيل الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي

طالب عندما كان في طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر في الكوفة في العام ٤٠ هـ. إن اغتيال ثلاثة أرباع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم يكشف عن أزمة استحكمت في عقول بعض المسلمين في صدر الإسلام. وتواصلت وتفاقت هذه الأزمة طيلة عصور الدولة العباسية والفاطمية والمماليك والعثمانية لدرجة قيل عن معيار شرعية السلطان بأن (السلطان من يقتل السلطان) فقد أصبح الظاهر ببيرس سلطاناً فور اغتياله للسلطان قطز، وقبل وصولهما للقاهرة بعد معركة عين جالوت بفلسطين التي كبحت غزو المغول في العام ١٢٦٠م.

أما عدد ضحايا الاغتيال السياسي في التاريخ المعاصر والحديث لوطن العرب فهي أكثر من أن تُحصى. ففي مصر فقد اغتالت جماعة الإخوان المسلمين القاضي الحزندار، ورئيس وزراء مصر محمود باشا النقراشي، واغتيل الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام في العام ١٩٤٩.

وفي الجزائر فقد استهدفت جماعات التكفير والعنف الدموي شرائح عديدة بالاغتيال، فبالإضافة إلى ضباط الجيش الجزائري والعاملين في الأجهزة الأمنية استهدفت بائعي السجائر وبائعي الصحف الناطقة باللغة الفرنسية، ومعلمي ومعلمات اللغة الفرنسية في المدارس، بالإضافة إلى الأكاديميين والصحفيين، وأئمة المساجد الذين حرصوا على البقاء بعيداً عن صفوف ونفوذ هذه الجماعات المسلحة.

أما في لبنان فلم ينجح طيف من أطراف الشعب اللبناني في حماية نفسه من الاغتيال، فمن اغتيال رئيس وزراء لبنان رياض الصلح في عمان في العام ١٩٥٠ إلى اغتيال كمال جنبلاط، والشيخ حسن خالد، وجورج حاوي وجبران تويني، والرئيس رينيه معوض، وغيرهم كثير.

أما في فلسطين فقد حدث الاغتيال السياسي في الثلاثينيات من القرن الماضي، وتجددت جرائم الاغتيال في الأربعينيات وطالت عدداً كبيراً من المعارضين، ومن بينهم النقابي الشاب سامي طه في العام ١٩٤٦.

كان للاغتيال السياسي نتائج وخيمة على وحدة الشعب العربي الفلسطيني، وأضعفت قواه مما أسهم في إحباط ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ التي قدم فيها شعبنا كثيراً من الشهداء والأسرى والذين أعدموا شنقاً في سجن عكا، فضلاً عن حظر التجول وتدمير المنازل بل تدمير أحياء كاملة كما جرى في البلدة القديمة ليافا، وعدد لا يُحصى من غرامات وقمع وتنكيل الاستعمار الإنكليزي.

وأوردت الدكتورة بيان نويهض الحوت في كتابها (القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨) منشورات دار الأسوار - عكا - الطبعة الثانية ١٩٨٤ - صفحة ٤٠٠، و صفحة ٤٠٢:

« إن استمرار الثورة حتى سنة ١٩٣٩ لا يعني أنها قد استمرت على الدرجة نفسها من القوة والانتشار كما كانت في السنة السابقة، فهناك مجموعة من العوامل أدت إلى ضعفها وتقليص قوتها بصورة تدريجية، ويعتقد بعض المعاصرين بأن الاغتيالات السياسية التي لازمت الثورة والتي انتشرت في البلاد انتشاراً مخيفاً مما جعل الناس غير آمنين، كان ذلك من أبرز عوامل إضعاف الثورة. مع العلم أنه يوجد رأي مخالف لهذا وهو أن الاغتيالات كانت الوسيلة الوحيدة والتي لا بد منها للوقوف دون مأساة بيع الأراضي بشل أيدي السماسرة والخونة... في بداية المرحلة الثانية للثورة كان واضحاً أن الاغتيالات السياسية كانت أداة رادعة ومصدراً من مصادر هيبية الثورة، إلا أن الاغتيالات لما تخطت حدودها بتعدد الجهات التي خاضت هذا الغمار، ولما حصلت اغتيالات لمواطنين شرفاء وعاملين من أجل القضية انتشرت الفوضى ودب الذعر في السكان. وحينئذ توجهت الأنظار إلى المفتي، وهي تأمل منه أن يصدر فتوى أو قراراً يأمر به إيقاف هذه الفوضى. فانتشار الرعب بين المواطنين كافة بات برأي بعض العقلاء أكثر خطراً من وجود بعض الخونة والسماسرة. وفي حيفا تجمع عدد من شبابها المثقف واتخذوا قراراً بضرورة الحد من هذا الداء لأن الاستمرار فيه يؤدي إلى عدم تجاوب الشعب مع الثورة. بمرور الأيام. وقرر المجتمعون إيفاد أحدهم، وهو الدكتور عمر الخليل إلى لبنان لمقابلة المفتي، وقد انحصر طلبهم في أن يصدر المفتي بياناً يقول فيه إن أي اغتيال عربي لعربي جريمة لا تغتفر، وقابل الدكتور الخليل المفتي في ذوق مخايل في أواخر أيلول ١٩٣٨، ولكنه عاد فاشلاً».

والاغتيال السياسي لم يتوقف عند زعماء حزب الدفاع المعارض لزعامة المفتي فحسب، بل طال عدداً كبيراً من المواطنين الذي سيقوا إلى الجبال حيث قيادات الثورة. وكان من البديهي أن يستعطف المختطفون خاطفيهم الذين اختطفوهم إلى الجبال ويؤكدوا أنهم شرفاء ومواطنون صالحون. فكان قادة الثوار يردون على استعطفهم وتوسلاتهم: « لا بأس عليك فإني قاتلك في جميع الحالات فإن كنت فعلاً كما تقول فسيدخلك الله الجنة، وبالتالي فقد أسديت لك خدمة كبيرة في قتلك».

ومن المعروف أن عجلة العنف عمياء صماء لا يتمكن أحد من توجيهها أو السيطرة عليها وبالتالي فإنها تأخذ في كل مرحلة مسارات غير متوقعة وربما غير مرغوب فيها من الذين يمارسون العنف.

وفي هذا الباب فقد قرر بعض أصحاب النفوذ في العام ١٩٣٨ الانتقام من الشيخ أسعد الشقيري، وهو من أبرز زعماء حزب الدفاع المعارض بقتل ابنه مازن الذي كان طبيباً طاملاً عالج المرضى وضمد جراحهم. وحزن الشيخ الشقيري حزناً شديداً على ابنه الشاب المغدور، وكان يكرر (اللهم أحمده ولا أشكره) فسأله بعض المقربين منه لماذا تكرر من قول هذا يا شيخنا؟ فأجاب الشيخ: « الله يُحمد على الأفراح والأتراح، أما الشكر فلا أقول شكراً لله، فالله سبحانه وتعالى يقول: لأن شكرتم لأزيدنكم، فيكفيني ابن واحد».

والمحامي أحمد الشقيري الرئيس المؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٦٤ كان يكثر من توجيه النقد للمفتي، وطالما حذره في مقالاته: (تعظ بعثمان يا حاج أمين).

ولم يتعلم كثير من الفلسطينيين من العواقب الوخيمة للاغتيال السياسي قبل العام ١٩٤٨. ولما جرى عسكرة الانتفاضة الأهلية اللاعنافية التي أطلقها شعبنا في ١٢/٩/١٩٨٧ بكل أطيافه وشرائحه وفتاته العمرية. فقد أفرزت عسكرة الانتفاضة كثيراً من السليبات، ومنها ما عرف بقتل (العملاء). إلا أن العنف يأبى تغيير طبيعته ويستعصي على السيطرة والتوجيه فقادنا مرة أخرى إلى مسارات ومساحات لم نتوقعها ولم نرغبها. فقتل شباب ونساء وأولاد ومسنون. وفرض العنف طبيعته فتورطنا في توسيع دائرة المستهدفين لتتجاوز المشبوهين بالعمالة للاحتلال لتصل المشبوهين بتعاطي المخدرات والذين يحتسون الخمر والعلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج، والشواذ. بل ربما العلاقات العاطفية البريئة. أن يمسك شباب طيبون بأيديهم السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية فرض علينا كثيراً من الحالات العجيبة الغريبة الصادمة، ومما جعل الأمور صادمة أكثر (إبداعات) في قتل المشبوهين والمشبوهات وصلت إلى درجة تقييد المشبوه وقتله بمنشار الشجر.

ورغم قتل أكثر من ألف مواطن في الضفة والقطاع بتهمة التجسس، وما نجم عن ذلك من آلام لأسرهم، فإن كل ذلك لم يلجم ولم يكبح الذراع الاستخباري للاحتلال.

ومن الأكيد أن بعض العملاء الذين قتلوا لم يكونوا من العملاء الأكثر خطورة، ولم يكونوا من السماسرة الذين أسهموا في تسريب الأراضي للشركات الاستيطانية.

وتورط الغلاة خلال السنوات الماضية في قتل عشرات آلاف المواطنين في العراق وسوريا بدعوى الاستناد إلى أحكام الله، أو تنفيذاً لإرادته. وراجت السيارات المتفجرة الذي يقودها انتحاريون يستهدفون أسواقاً ومطاعم وجنازات ومناسبات سعيدة بدعوى أنهم يقتلون الناس في سبيل الله، وأنهم لهذا سيدخلهم الله الجنة فور ضغطهم على جهاز التفجير الذي

يزهق الأرواح ويسفك الدماء ويحول الشباب والأطفال والأمهات والمسنين إلى أشلاء ممزقة ومحترقة.

هل أن الله سبحانه وتعالى خلق إنساناً وفوّض إنساناً آخر بقتله؟ أم هل أن القتل المتوحشين هم جند الله الرحمن الرحيم اللطيف الرؤوف أم أنهم جند الشيطان؟

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان قادراً على الإنتاج من زراعة وتصنيع ورسم ونحت وعزف وقراءة وكتابة وتفكير وإبداع، ولم يخلقه الله سبحانه وتعالى بمخالب وأنياب لأن غذاء الإنسان غير مرتبط بقتل غيره من البشر. لذلك فإن جرائم القتل تحتاج إلى أدوات وهي ما نطلق عليه السلاح. فمن الهراوة إلى السكين والسيف والبندقية والمدفع والصاروخ والطائرة وقاذفة القنابل والقنبلة الذرية كلها أدوات قتل اخترعها الإنسان كي يقتل، والله أنعم عليه بالقدرة على الإنتاج وإعمار الكون، وأمره أن يتعاون مع غيره من البشر " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ".

أما ادعاء أفراد أو جماعات أو أنظمة بأنها تمثل الدين أو مذهباً فهي تشعل حروباً وتؤججها باسم الله سبحانه وتعالى فهذه جريمة وخطيئة مركبة.

ولنفترض أن شخصاً قد قال قولاً نعتبره أنه لا يليق بذات الجلالة تبارك وتعالى فهل تبرر قناعتها، أو أوهامها قتل هذا الشخص؟ وإذا سلمنا جدلاً أن شخصاً قال قولاً لا يحسن بالمؤمنين والأتقياء قوله فهل أن الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى أي من البشر لجلاء الحقيقة وسطوعها؟ وهل من حق أحد أن يفرض نفسه وصياً على تفكير الناس وعلى سلوكهم؟ وهل أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تكون بالرصاصة أم بالقدوة الحسنة والنموذج الطيب؟ ولماذا لا نترك القضاء يأخذ دوره الأساسي في حسم الاختلافات بين الناس وفي تجريم المخطئين وفرض العقوبة العادلة عليهم؟ بقدر ما يتحمل من يطعن بالسكين ويطلق الرصاص جرماً وخطيئة دينية ووطنية وأخلاقية فإن المجرم رقم (١) هو الذي يطلق فتاوى الكراهية والتكفير. وهو كل من يكتب على وسائل التواصل الاجتماعي ما يؤجج العواطف ويدفع الناس نحو اللاعقلانية والعنف. وهو المسؤول الذي لم يسارع إلى حماية أي مواطن قد يتعرض للعنف والعدوان نتيجة أجواء التهريج والتهويز والشعوذة والدجل التي تتغذى من مسلسل الهزائم والانكسارات واستفحال الأزمات والإحساس بالانسداد.

ويُفرز ادعاء الحصرية والفرادة والتفوق تكفير كل الناس الذين يقفون خارج حمى قبائلهم. وبالتالي فإن التكفير يؤدي إلى التفجير. وليس بالضرورة أن تصفح قوى سياسية عن تكفيرها

للناس بصورة واضحة وصریحة ومباشرة. وإنما قد يطفح خطابها وشعاراتها بالإقصاء والتكفير. وهناك كثير من الشواهد التي تؤكد على تورط قوى سياسية كثيرة في خطیئة التكفير وبالتالي العنف.

وخلال خدمتي مديراً للأوقاف والشؤون الدينية بمحافظة نابلس ١٩٩٨ - ٢٠٠٧ واجهت كثيراً من النهج الاقصائي وادعاء الفرادة والحصرية والتفوق. وقد أفرز ذلك صراعات وشجارات في بعض المساجد بين قوى سياسية تحرص على صبغ المساجد بلونها رغم أن المساجد يفترض أن تكون لكل المسلمين على تعدد مذاهبهم وتنوع آرائهم واجتهاداتهم فإذا فرّق النشاط السياسي والصراع السياسي بين الناس فليس من المشروع والمعقول والمقبول أن تتحول المساجد إلى ساحة صراع وربما شجار بين القوى السياسية المختلفة. ووجهت كتابين إلى إمامين وخطيبين بتاريخ ٢٤/٢/٢٠٠١ كي أذكرهما بضرورة الالتزام الوحدوي وأحذرهما من الخطاب الاقصائي الانقسامي، وهذا هو النص الكامل للكتاب:

« فضيلة الشيخ: إمام وخطيب مسجد المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الموضوع: تذكير وتأکید

تذكرون أنني قد شددت على خطورة استخدام المصطلح الانقسامي (الشباب المسلم) في أي من البيانات والمواد المطبوعة، وذلك خلال الاجتماع الدوري الشهري الذي عقد في مسجد الحاج نمر النابلسي، قبل خمسة عشر شهراً.

لاحظت يوم أمس وجود إعلان في عدة مساجد (لحضور درس الثلاثاء الديني الأسبوعي) بدعوة من (الشباب المسلم في مسجد الحنبلي) وقد ورد اسم فضيلتكم في إعلان للدرس بتاريخ ٢٧/٢/٢٠٠١ بالإضافة إلى اسم فضيلة الشيخ للدرس بتاريخ ٢٠/٢/٢٠٠١.

تعلمون أن هذا المصطلح الانقسامي قد اختفى من الإعلانات طيلة الشهور الماضية، ويعني الرجوع إلى استخدامه واعتماده إصراراً على هذا المصطلح الذي يصنف المصلين ويفرزهم ويجعلهم شيعاً وأحزاباً وقد وحدهم الأذان والمسجد. وإذا كان من المقبول والمعقول استخدام مصطلحات تميز بين مذاهب وشيع الناس في الشوارع والمقاهي والنقابات والنوادي فهل يعقل تقسيم المصلين في المسجد إلى أصناف ودرجات؟؟

أرجو أن أبين لفضيلتكم أن الدين - كما تعلمون - هو حبل النجاة للناس كلهم، وللوطن كله، وللأمة كلها وللبنية كلها، وأن أي جماعة أو فرد تفهم الدين من منطلق عصبوي فإنها

تحوله من حبل للنجاة إلى حبل المشنقة.

أرجو أن يكون واضحاً أن السياسة المرنة التي اختارتها إدارة الأوقاف، والوزارة كلها، لا تعني التسيب، وأن مستقبل الوطن والأمة رهن بقدرتها أبنائها على الوقوف صفاً واحداً موحداً في مواجهة الاحتلال وتهديداته المتصاعدة للأمة أرضاً وبشراً وموارد ومستقبلاً ومقدسات. إن الوحدة الوطنية ليست كلمات تقال في تصريح لوسائل الإعلام، وليست شعارات يصرخ بها في مهرجان، وإنما قناعة راسخة وتعبئة وتربية للأطفال والفتيان والشباب في البيت والمدرسة والمسجد.

أسأل الله تعالى أن يهديني وإياكم بأن نكون دعاة وحدة لا دعاة تفريق وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل.

الاجتياح السياسي هو نتيجة لمقدمة الاقصاء والتكفير وادعاء احتكار الصلاح والهدى، أو احتكار الوطن والوطنية، أو احتكار الإخلاص للكادحين والمهمشين. أي ادعاء احتكار الدين والوطن والثورة من أية جهة كانت، إنما هو احتكار زائف لأن الدين والوطن والثورة لا يمكن أن تختزل لتصبح على مقياس نظام أو حكومة أو جماعة أو حركة أو حزب. وكم هو ضروري أن يقر الجميع إقراراً ملزماً وقطعياً ونهائياً بأن الدين والوطن والثورة أكبر من اختزالها في أية جهة كانت، وبالتالي الإقرار بحقيقته التعددية والتنوع وأن الاختلاف بين المواقف والناس يجب أن نعبر عنه بالحوار وبصناديق الاقتراع، وليس بالقمع والقهر والاجتياح السياسي لأنه حقيقة لم يثمر مصلحة واحدة لا في تقوى الله وإشاعة الصدق والأمانة والاستقامة بين الناس، ولا في مقاومة الاستعمار، وتحرير البلاد والعباد، ولا في نجاح خطط التنمية.

نمو ظاهرة التطرف باسم الدين

إياد البرغوثي *

في معنى التطرف

سيبقى مفهوم التطرف اشكالياً لسببين، الأول هو نسيته الواضحة من حيث تبعيته لمصالح الدول والأطراف المختلفة. حيث كان هذا واضحاً عندما دخل الاتحاد السوفيتي الى افغانستان ووصف المقاتلون ضده بالمجاهدين من قبل الولايات المتحدة والغرب وكثير من الدول العربية والاسلامية، ثم تحول نفس اولئك المجاهدين الى ارهابين عندما أخذوا يقاتلون بلدانهم الأصلية، أو عندما تحولوا لقتال الولايات المتحدة في أفغانستان. وواضح ذلك أيضاً في الخلاف الروسي الأمريكي على من هو الارهابي ومن المعتدل في المعارضة السورية.

الثاني، أنه يصعب نعت أحد باسم أو صفة معينة إذا كان هو نفسه لا يوافق على هذا الاسم أو الصفة. فالذين يوصفون بالإرهابيين يرفضون هذه التسمية (ربما باستثناء حزب التحرير) ويعتبرون انها تهمة من الغرب أو العلمانيين. ولو كان هؤلاء يقبلون بها لحسم الأمر وتم الاتفاق على أنهم إرهابيون. ان مجرد رفضهم للتسمية تدخل الأمر في دائرة الشك ودائرة الرؤيا الذاتية للأطراف الأخرى.

منهجياً، لا يمكن التعميم، وليس من الانصاف التعميم على أن جميع الحركات الدينية السياسية، أو حركات الاسلام السياسي هي حركات ارهابية. ولا يكفي أن تصنف دولة أو مجموعة دول -مهما كانت قوية- حركة ما بأنها ارهابية لكي ندينها بذلك، تماماً مثلما أن عدم تسمية هذه الحركات بالمتطرفة أو بالإرهابية من قبل تلك الدول والأطراف لا تكفي لتبرئتها من تلك التهمة. ففي نهاية الأمر لا بد للباحث اعتماد معايير معينة وواضحة وقابلة للقياس لكي يتهم حركة ما أو شخص ما بالتطرف والارهاب أو يبرأها منه.

وغني عن القول هنا بأن التطرف ليس محصوراً في اتباع دين معين، والحديث عن الاسلاميين هنا يأتي لاعتبارات الدراسة ومقتضيات واقع الحال الذي نعيشه، فالتاريخ، وحتى المعاصر منه، شهد حركات متطرفة وارهابية من اتباع الديانات الابراهيمية، أو الديانات السامية،

فهي تتصف بصفات مشتركة عديدة، بما فيها وجود الحركات المتطرفة والارهابية التي ترجع نفسها فكرياً لتلك الديانات، وخاصة الديانة اليهودية التي تميزت عن غيرها من الأديان باعتبار أتباعها أصحاب تميز واضح عن الآخرين.

نمو ظاهرة التطرف باسم الدين

من الواضح أن موجة التطرف الديني الحالية في منطقتنا قد ابتدأت في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وهي في تصاعد مستمر منذ ذلك التاريخ وحتى الآن. ذلك ينطبق على اليهود تماماً كما ينطبق على المسلمين.... فالمتطرفين اليهود وصلوا لحد احراق الطفل أبو خضير حياً تماماً مثلما وصل الداعشيون لإحراق الكساسبة وارتكاب أبشع الجرائم.

ابتدأ العنف الديني الإسلامي ضد اليسار وخاصة المثقفين منهم. فاليسار من وجهة نظرهم هم النقيض الأيدولوجي الأوضح لهم. كما أنهم يعلمون أنهم بعدائهم للييسار تتعاطف معهم الكثير من الفئات المحافظة في المنطقة، إضافة - وهذا الأهم - أن حليفهم الأساسي في ذلك هو الدولة، التي أخذت منحى مكافحة اليسار في النصف الثاني من القرن الماضي، واستخدمت هي الدين في ذلك تماماً كما يستخدمه المسلمون.

فالإسلاميون كانوا بشكل أو بآخر، في موضوع عدائهم للييسار، لا يتقربون من «الله» فقط، وإنما من الدولة أيضاً. هذا ربما ما زال يصح إلى الآن، طالما تعتبر الدولة في منطقتنا أن الدين و«حمايته» جزء من شرعيتها، وطالما تعتبر أن أحد أهم واجباتها هو «التقرب إلى الله». بملاحظة أصحاب الرأي الآخر.

أي فكر، بما فيه الدين، يتحول إلى أيديولوجيا في اللحظة التي يفكر فيه بالتحول إلى دولة. والأيديولوجيا تحمل في داخلها بذور الانغلاق والتعصب والتنميط.

هنا يتحول الخطاب الديني إلى خطاب كراهية وتحريض وعنصرية، وخطاب تعبئة ضد الآخر، وخطاب يقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، خيرين وأشرار... كل أتباع دين (أيديولوجيا في هذه الحالة) سيعتبر نفسه في الفردوس وما دونه في الجحيم.... هو الفرقة الناجية كما يُقال. كل دين يعتبر أتباعه هم الأفضل، وكل أتباع دين يعتبرون دينهم هو الأفضل... وهو الصح.. لا أقول الأصح والباقي غلط، وحتى عندما يعترف دين بدين آخر في نصوصه يلجأ المتطرفون من أتباع هذا الدين.. وفي الحالات التي يبرز فيها التطرف... إلى القول بأنه جرى تحريف وتشويه لذلك الدين في فترات لاحقة.

هنا تبرز مشاكل النص وقراءاته المختلفة. وكما هو معلوم فإن للنص الديني قراءات مختلفة، لا تعتمد فقط على منطق التفسير لدى المفسر، بل أيضا على المصالح والأهواء والخلفية الفكرية والاجتماعية والتوجه السياسي والثقافي.. وغير ذلك.

في مثل هذا الوضع، حيث النص الديني واسع ومتعدد وقابل لتفسير المتعدد، فإن الذهاب لتفسير عنصري واستعلائي للنص امر ممكن جداً، وهذا ما نلاحظه ليس فقط عندما تتم المفاضلة بين الدين واللا دين، بل أيضا بين دين وآخر، وحتى عندما تكون الأديان من نفس العائلة كما هو بالنسبة لليهودية والمسيحية والاسلام، التي هي عملياً أديان متقاربة لحد التوحد، فيُطلق عليها أسماء مثل الديانات السماوية، أو الابراهيمية، أو السامية، أو... كما يقول فالج عبد الجبار، الديانة اليهمسلامية.

أن الموقف من النص وطريقة التعامل معه هو المؤشر الأول على مدى تطرف هذا الشخص أو الجهة أو تلك. فعادة كلما كان هذا الشخص أو الجهة أكثر سلفية ومحافظه ودجمائية وتطرفا فانه يبحث في النص عن حقائق الحاضر والمستقبل، بدل أن يبحث في حقائق الحاضر ودلالات المستقبل عن فهم متقدم للنص.

التكفير.. قمة الارهاب الفكري.

بالطبع فان للتعصب والتطرف أسباب عديدة اقتصادية وسياسية واجتماعية ونفسية.. وهناك أيضاً الملابسات الايديولوجية الفكرية التي نهتم بها الآن. فمن مظاهر ايديولوجيا التطرف، محاولة الغاء الآخر والسيطرة عليه، ورفض التكيف مع متطلبات الحياة والصدام مع الواقع غير المنسجم مع النص.

تحاول ايديولوجيا التدين المتطرف اقناع المؤمن بها أن الآخرين خطر على قضيته. وقضيته مهددة من قبل الآخرين. في هذه الحالة لا يمكن أن تكون الأيدلوجيا الادعوة للعنصرية ولعدم التسامح ودعوى صريحة للتطرف.

ينبغي أن نشير هنا الى أنه في حالة تحول الدين الى ايديولوجيا تصبح كل قراءة للدين هي قراءة ايديولوجية.. بمعنى أن الرأي القائل بأن الاسلام (في حالة الاسلام وهذا ينطبق على أي دين آخر) هو دين تسامح واعتدال، لا يختلف في جوهره عن الرأي المقابل القائل بأن الاسلام هو دين وتطرف وعنفي، فكلاهما قراءة ايديولوجية مصلحة وحزبية للإسلام.

في حالة الأيديولوجيا (الدينية) التي نحن بصدها، انتقلت قراءة الدين من أن يكون محوراً الاجتماعي هو المتعلق بالعدالة والظلم إلى أن يكون إيماناً والحادث.. شكل ذلك أساساً لكل فكر ظلامي برأي فيصل دراج.

هنا تصبح قضايا العالم العربي والإسلامي المحورية قضايا دين وعقيدة (إيمان والحادث) وليست قضايا أرض ووطن وإنسان. وهنا يتم تقسيم الناس على ضوء معتقداتهم الدينية إلى مؤمنين وكفار، والعالم يصبح الإسلام، والاسلام (تماماً كما هو عالم اليهود المتطرفين.. يهود وغير يهود)

في مثل هذا الوضع يبرز التكفير ليكون أحد أهم الأسلحة المستخدمة في وجه الآخر، وهنا يحتل مفهوم الجهاد مرتبة أعلى من مفاهيم التنمية والبناء والتطور الاقتصادي والتسامح.. وينقسم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب.. ويكون الاستقطاب على أساس ديني داخل المجتمع نفسه ومع الآخرين.

التكفير.. هو وليد وضع يعتقد فيه الإسلام (في حالة الإسلام) بانقسام العالم إلى إسلام وجاهلية. الجاهلية لم تعد مرحلة تاريخية قبل الإسلام بل كل مجتمع غير إسلامي، أي كل مجتمع لا يطبق كاملاً شرع الله، ولا يسلم بأن هذا الشرع هو الصبح وما دونه هو الخطأ.. والجاهلية تصبح مفهوم عام ينطبق على "الأفراد والمجتمعات والأنظمة والأفكار في كل زمان ومكان إن كانت مناقضة لشرع الله أو مسيرة وفق أوامر تشريع البشر" (حسب مجلة الوعي - حزب التحرير)

استندت فكرة التكفير إلى "شمولية" الدين، وأن أي رأي خارجه هو خطأ (كفر). والشمولية تعني أن الإسلام رسالة إلى كافة البشر، وتعني الصلاحية لكل زمان ومكان. انها تعني أن الدين قد أعطى الجواب في كل المواضيع لكل الناس في كل الأماكن وكل الأوقات.

كما تستند تلك الفكرة (التكفير) إلى مفهوم المطلق..، فأمر ورد فيه نص (قرآن أو حديث) هو صحيح مطلق.. وأنت لا تدري بالطبع ان كان هذا هو النص في ذاته، أو هو النص في ذهن المعني. هنا يختلط الدين بالفكر بالآراء الشخصية والأهواء والمصلحة.

ومنطقياً، فامتلاك جماعة للحقيقة "الشاملة" و"المطلقة"، فان ذلك سيقودهم إلى "الاصطفائية"، فالله اختار المسلمين ليكونوا (اتباع آخر الديانات السماوية، حملة الحق المطلق والشامل، وبالتالي يحق لهم أن يكونوا "أساتذة" العالم، بل ومن واجبهم أن يبلغوا

(الأمانة) التي حملوا بها، ومن واجب الآخرين أن يكونوا (تلاميذ) نجباء (لصالحهم) وليس لصالح الدين، فالله غني عن العالمين، وهنا يكون الأمر استاذ وطالب، مرسل ومستقبل، لا حوار ولا جدل ولا سؤال، والطالب غير النجيب في هذه الحالة، اما يُعاد تدريسه أو يعاقب. هنا تنمهي الحركة الاسلامية مع الاسلام، ويتمهي المتدين مع الدين.. هنا أي اختلاف وإشكال مع الحركة الاسلامية أو مع المتدين هو اختلاف وإشكال مع الدين ذاته.. والمتدين هنا يعتبر أي إشكال معه هو "اعتداء على عقيدة الأمة.. أعلى ما تملكه الأمة وتعيش له" (المنطلق). فكر الأمة تعيش الأمة من أجله، وهو ليس وسيلة للتطور بل هو الغاية ذاتها.

ضد التطرف

ما يجري حتى الآن ضد التطرف والارهاب في منطقتنا هو التعامل العسكري والأمني مع الموضوع. ومع أهمية ذلك الا أنه لن يقضي على جذور التعصب والتطرف فذلك عمل ينبغي أن يجري على وعي الناس وظروف حياتهم وهذا يتم عن طريقين:

الأول هو التغيير الجذري في علاقة الدين بالدولة، بحيث يتم التركيز على المواطنة والتسامح والتساوي بين المواطنين حيال الدولة بغض النظر عن معتقداتهم وافكارهم وجنسهم. وتلغى المهمة الدينية للدولة فيتم الاهتمام بحياة الناس من حيث الحماية والأمن والرقي والتطور في الدنيا وترك الاهتمام بما بعد الدنيا للمؤسسات الدينية.

هذا يتطلب بالطبع اجراء تغيير جذري في السياسة والاقتصاد وكما يتطلب تغييراً جذرياً في السياسات التعليمية والاعلامية بحيث يتم التركيز على التسامح واحترام الآخر والابتعاد عن التحريض والكراهية.

الثاني هو اجراء عملية اصلاح ديني شاملة بحيث يجري نقل الخطاب الديني من التركيز على قضايا تقسم الناس الى مؤمنين وكفار، الى المحاربة الاخلاقية للظلم والفساد والانتصار للعدالة والمساواة. كما يجري اعادة الاعتبار للإنسان وقيمه وتسخير الدين وتفسير النص الديني لصالح الانسان وليس العكس. ان المتغير في هذه الحالة يفترض أن يكون تفسير النص وليس الانسان الذي يجب أن يطوع بالشكل الذي يتم تفسير النص به كما يجري حالياً.

وأهم مؤشر على احترام الدين للإنسان ينبغي أن يكون احترام حريته، وخاصة احترام حرية خياراته بما فيها موقفه من الدين نفسه. فعلى سبيل المثال، يوجد في أوروبا ملحدين وكفار أكثر بكثير مما يوجد في العالم العربي، لكن يوجد في العالم العربي تكفير أكثر

بكثير مما يوجد في اوروبا. هذا ناتج عن الحرية التي يتمتع بها الانسان في اوروبا بينما لا يوجد ذلك في العالم العربي. لقد تم القضاء على التكفير في اوروبا في اللحظة التي أصبح فيها ذلك (الكفر، الالحاد) مسألة طبيعية خاضعة لخيارات الفرد.. وما دام الكفر وعدم الايمان تهمة يستطيع فرد أو جهة محاربة آخرين بها ستبقى عملية التكفير موجودة. هذا بالمناسبة لا يتنافى حتى مع تعاليم الدين (الاسلامي) الذي أعطى الانسان حرية الكفر بصريح العبارة (ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، بذلك فقط، باحترام الانسان الذي هو حرته، تُعطى المجالات الأخرى غير الدين حيزها.. ويصبح الدين دين، والعلم علم، والفن فن، والسياسة سياسة، والاقتصاد اقتصاد... وتكف عن كونها شكل من أشكال المواقف الدينية اتجاهها.

ما هذا الذي يحدث في الشرق الاوسط؟ أين يكمن الخطأ؟

شبيرزاد أحمد أمين النجارا *

«ان النزاع في سوريا والعراق والمناطق المجاورة أصبح رمزا لاتجاه جديد ومشؤوم: تفكك الدولة الى وحدات قبائلية وطائفية والتي البعض منها تقطع الحدود الموجودة، في صراع عنيف مع بعضها البعض او انها مؤثر فيها بالتنافس بالعوامل الخارجية، ويلاحظ عدم وجود قواعد عامة ماعدا قانون القوة المسيطرة – والتي وصفها هوبز بحالة الطبيعة.»
هنري كيسنجر^١

«... فللمرة الاولى منذ ٢٠٠ سنة يواجه حكام وشعوب الشرق الاوسط فكرة قبول كامل مسؤوليات بلادهم، وان يتخذوا قراراتهم لوحدهم وان يرتكبوا اخطاءهم وان يتحملوا مسؤولياتها.»

برنارد لويس^٢

«إن الشرق الأوسط الذي نعرفه انتهى إلى غير رجعة...، اشك أن يعود مجددا»
برنارد باجوله، مدير المخابرات الفرنسية^٣

في رأي المفكر الليبرالي (فوكوياما) في كتابه حول (بناء الدولة)^٤، أن العالم العربي وأوروبا في القرن التاسع عشر، لم تكن لديهم أية خبرة سابقة في الديمقراطية، بينما اليوم المجتمع الدولي يقدم كلا من النموذج السياسي والراسخ للديمقراطية المستندة على تجربة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الاخرى. ان هذه الحالة (تطبيق وترسيخ الديمقراطية) هي محل شكوك في منطقة الشرق الاوسط. وعليه فان هناك اختلافات مهمة ما بين التجربة الغربية للديمقراطية وتجربة الشرق الاوسط ابتداء من «تأسيس الدين». صحيح ان الدين لعب دورا مهما في القرن ١٩ في أوروبا : فالحزب الوسط الالماني والاحزاب المسيحية الديمقراطية في فرنسا وايطاليا تأسست للدفاع عن الدين كتنقيض للمصالح الطبقية، ولكن مازال الطبقة والقومية تتوجه لكي تصبح مصادر مهمة للهوية أكثر من الدين في أوروبا، بينما العكس هو الذي يحدث في الشرق الاوسط اليوم.(ولم يكن هذا الشيء دائما هكذا؛ فمن الخمسينات والى السبعينيات القرن العشرين فان السياسات العربية كانت محكومة من قبل القوميين العلمانيين أكثر من

الاسلاميين، مع قدر ضئيل من الاشتراكيين اليساريين والاحزاب الشيوعية).

ويكتب المفكر (عبد الحسين شعبان) ما يأتي: اعتقدت الولايات المتحدة إنها عندما تغزو العراق وتطيح بنظامه الدكتاتوري، ستمكن من إقامة نظام جديد على أنقاضه يساهم في تخفيف حدة التوتر في المنطقة ويسعى للقضاء على الإرهاب الدولي. ويؤكد (فوكوياما) على هذا التوجه عندما يكتب أن الرئيس الأمريكي (بوش) أوضح أن الحرب على العراق هي لأجل بناء «عراق ديمقراطي» وأنها ستمهد لخطة تحولات واسعة نحو الشرق الأوسط الكبير. ان الذي حدث كان معكوساً تماماً: الوضع في العراق أصبح مصدر عدم استقرار جديد أكثر خطورة من السابق، ولم يهدد هذا الخطر العراق وحده، بل إن عدواه انتقلت إلى دول المنطقة بسرعة فائقة لتصل إلى شمال أفريقيا وهددت الامن والاستقرار في ارجاء اخرى من العالم. وهنا يكتب الصحفي (محمد خليفة) ما يأتي: «ما يجري على مسرح الشرق الأوسط من أحداث تراجيدية وتأريخيه لا سابق لها منذ مئات السنين، ومن النوع الذي لا يحدث إلا كل ألف سنة مرة، كالغزو المغولي والغزو الصليبي مثلاً. وهي أحداث معدة إعداداً «محكماً». وثمة قرائن لا تخطئها العين الخبيرة تؤكد أن الدول الكبرى في الشرق والغرب ضالعة ومتواطئة. ولكل منها دور يتكامل مع الادوار الاخرى ...»^٦

أن التدخّلات العسكرية الخارجية مهما كانت مبرراتها تركت آثارها السلبية الخطيرة على التطور اللاحق لبلدان المنطقة، وهو ما حصل في أفغانستان العام ٢٠٠١ والعراق العام ٢٠٠٣ وليبيا العام ٢٠١١، وكذلك التدخّل العسكري شبه المباشر في سوريا.

ان كل هذه التجارب أنتجت فعاليات ونشاطات إرهابية ومتطرّفة مهدت للعنف والفوضى والطائفية السياسية، إضافة إلى استهداف المكونات والاقليات الاثنية والدينية والمجموعات الثقافية الأخرى في أكبر عملية استئصال تشهدها دول المنطقة.

إن طريقة إسقاط النظام السياسي ستؤثر لاحقاً على تطوره، فإذا أطيح بالتدخل الخارجي العسكري أو بالعنف، فإن ذلك سيترك ردود أفعال معاكسة، والعنف يولد العنف، وهكذا سيجد البلد نفسه غارقاً في عنف وعنف مضاد، ناهيك عن الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية التي كانت حلماً منشوداً لعقود من الزمان، فإنها صارت بعيدة المنال.

الدبلوماسي الأمريكي السابق (بيتر غالبيرث) ذكر في كتابه (نهاية العراق) ان الأمريكيين يخوضون في العراق حرباً مفتوحة يمكن ان تستمر مئة عام، وان سياساتهم التي اعقبت غزوهم واحتلالهم لهذا البلد قد مزقته ارباً وانه لم يعد بمقدور الأمريكيين ولا غيرهم اعادة

تجميعه وان حرباً اهلية مدمرة ستكون عنواناً للسنوات المقبلة، حتى تستقر عملية التقسيم، ويتم الانتهاء من ترسيم حدود هذه الدويلات وكتابة شهادات ميلاد العراق الجديد. ويضيف: أن الولايات المتحدة التي غزت واحتلت العراق بهدف معلن هو تحويله لبلد ديمقراطي كنموذج يمكن تعميمه في الشرق الأوسط قد دمرته تماماً ودفعته نحو تقسيم لا مفر منه الي ثلاث دويلات كردية في الشمال موالية للغرب وشيعية في للجنوب موالية لإيران وسنية في الوسط بلا هوية تعمها الفوضى.^٨

وطالب (غالبيرث) البيت الأبيض بان يعترف بخطيئته ويسلم بأن لاشيء سيعيد توحيد العراق وينتهي سريعاً من ترسيم الحدود الجديدة وتحديد الذي سيحكم طبيعة العلاقات بين هذه الدويلات.^٩ واكد ان معالم الدولة في العراق قد تلاشت رويداً رويداً منذ الغزو وليس بسبب الاطاحة بالنظام ولكن بتفتيت جميع مؤسسات الدولة. هذه الحالة يؤكدها المفكر (فوكوياما) حيث يوضح أن العراق في ظل صدام حسين كان دولة فعالة متطورة من الناحية المادية والبشرية^{١٠} والتي انهارت بسبب الغزو الامريكى في اذار ٢٠٠٣ وحل الجيش العراقي وعندما توجه العراق نحو حرب اهلية في ٢٠٠٥-٢٠٠٦، فان هدف الاحتلال الامريكى أصبح يتمثل في عملية بناء الدولة building-state.^{١١} ويرى (غالبيرث) ان التقسيم هو المخرج الوحيد لأمریکا من العراق.^{١٢} ويضيف أن على الولايات المتحدة تصحيح استراتيجيتها الحالية لأن محاولة بناء مؤسسات وطنية او قومية في بلد دمرنا فيه كل اسس ومقومات الدولة ليس سوي جهد ضائع ولا يؤدي الي اي شيء سوي الإبقاء على الولايات المتحدة في حرب بلا نهاية^{١٣}. بينما يرى (فوكوياما) أن وضع العراق بحاجة إلى إعادة بناء الدولة حيث ان العديد من القدرات الادارية قد ضاعت واهدرت نتيجة النهب والسلب الذي تلى الغزو الامريكى للعراق.^{١٤} ويتهم (غالبيرث) ادارة بوش بجر امريكا للحرب من اجل الحرب حيث كانت لديها رغبة محمومة لتكرار تجربة افغانستان وكان الدور على العراق كهدف قالت هي بنفسها انه هدف سهل غاية السهولة.^{١٥}

وقبل ذلك كتب المؤرخ الصهيوني (برنارد لويس) حول الشرق الأوسط» في القرن العشرين، أصبح واضحاً تماماً في الشرق الاوسط وفي جميع البلدان الاسلامية أن الامور قد جرت بالفعل على نحو سيء. فبالمقارنة مع العالم المسيحي، غربه الازلي، أصبح العالم الاسلامي فقيراً» وضعيفاً، وجاهلاً» وذلك بعد قرون من الثراء والقوة. لقد كان صعباً خسارة القيادة والتحول الى مجرد اتباع للغرب».^{١٦}

وهنا يثار سؤال مهم: أي مستقبل ينتظر الشرق الاوسط؟ وما هذا الذي يحدث في منطقة الشرق الاوسط؟ ما هذه الفوضى والصراعات والنزاعات الدموية العنيفة التي تجتاح المنطقة؟ ولماذا كل هذه الاحداث تظهر وتصبح حدثا يوميا في المنطقة بينما المناطق الاخرى في العالم تنعم بشيء من الهدوء والامان (مع فوارق نسبية بين منطقة واخرى)؟، هل تكمن المسألة في جذور سوسيولوجية، سياسية، اقتصادية، ثقافية، فكرية، دينية، أم أنها نتيجة لعوامل خارجية متحركة في مصائر وقدر المنطقة وسكانها؟

ان الاحاطة بهذا الموضوع الشائك والمعقد، يحتاج في الحقيقة الى إدراك أبعادها المختلفة وخصوصا التاريخية منها.

البعد التاريخي:

ان الصراع بين الشرق والغرب قديم قدم التاريخ نفسه، يكفي أن نتذكر الصراع العنيف بين الامبراطوريتين الكبيرتين، اليونانية والفارسية والتي بلغت أوجها في غزو الاسكندر الكبير لمجمل الشرق وصولا الى حدود الصين. إن هذا التهافت على الشرق ترك اثارا عميقة على سيكولوجية شعوب المنطقة وأدى الى بسط السيطرة الاجنبية عليهم، ولكن التأريخ الحديث للشرق الاوسط بدأ مع نهاية القرن الثامن عشر حيث حملة نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨-١٧٩٩ وجلب أول مطبعة عربية (بولاق) لمصر. (في هذه الفترة لم تكن في الشرق الاوسط سوى دولتين مستقلتين: الامبراطورية العثمانية ويران)

بهذا الاحتلال لمصر بدأت حقبة ومرحلة جديدة من تاريخ المنطقة والتي اصبحت تخضع لقوة جديدة من خارجها وهكذا أرست قواعد جديدة للعلاقات الدولية تمثلت في وضع مصير المنطقة وسكانها بيد تلك القوى الخارجية التي بدأت تتصارع وتنافس فيما بينها تمخضت عن رسم حدود الصراع والنزاع بينهم، وكان طابع هذا الصراع التدخل، التورط، الاختراق، التسلل، السيطرة، الاحتلال.

فصل مهم من هذا الصراع والتنافس تمثل في الصراع ما بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي، وكانت الحرب الباردة هي الطابع المميز لهذا الصراع الذي استمر الى انهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩٠ حيث برزت ظاهرة مهمة في المجتمع الدولي والوضع الجيوبولتيكي للعالم: موجة جديدة من استقلال مناطق كانت جزءا من دول سابقة: ٨ دول في اسيا الوسطى ومنطقة القوقاز (كانت تاريخيا تمثل جزءا من منطقة الشرق الاوسط)، و٥ دول (كانت تشكل الفيدرالية اليوغسلافية)، ٢ دولتان (كانتا تشكلاان فيدرالية تشيكوسلوفاكيا).

هذه التغييرات كانت لها (صدا) «قويا» أدخلت منطقة الشرق الأوسط مجددا في حالة من الاستقرار واللاتوازن، حيث الوضع فيها يتسم بالديناميكية الشديدة تتجلى بوضوح في التغييرات السريعة في المعادلات الدولية وأطرافها والتي ستؤثر على المنطقة بكل تعقيداتها واشكالياتها.

البعد السياسي: توازن القوى Balance of Power

سقوط النظام في العراق ٢٠٠٣ أدى الى شيء مازال يثير القلق تمثل في اختلال توازن القوى في منطقة الشرق الأوسط. فالعراق كان عنصرا جوهريا في الحفاظ واستمرار حالة التوازن بين القوى (على الرغم من اختلالات مؤقتة). انهيار مؤسسات الدولة العراقية في ٢٠٠٣ كان المؤشر الواضح على أن العراق بدأ يفقد دوره كعنصر توازن بين مختلف القوى الإقليمية والدولية المتصارعة، وينحو نحو أن يصبح «دولة هامشية» أو دولة فيها ملامح «دولة فاشلة»^{١٧}.

هذا الوضع خلق حالة جديدة من الصراع على القوة والمصالح والنفوذ وعلى أرض دولة نخرت فيها الازمات والصراعات والحروب وهي العراق، هذا الاخلال بميزان القوى سيؤدي الى حروب، وكما أكد (ريتشارد هاس)، فإننا سنكون أمام حرب أهلية دينية تستمر لمدة ٣٠ عاما. وهذه الحرب ستغير من الواقع السياسي للشرق الأوسط وتعيد تشكيل الحدود من جديد ويؤكد (بيتر رالف Ralph Peters) في دراسة نشرها في ٢٠٠٦ بان هذه التشكيلة الجديدة للحدود ستكون دموية ولذلك سماها ب (حدود الدم)^{١٨}

قد تكون أفكاره شيئا من الخيال، لكنه يستند على الواقع الجيوسياسي الديناميكي الجاري في الشرق الأوسط، وأن ما يحدث اليوم على أرض الواقع الذي يتحدد من خلال التطهير العرقي والطائفي الذي تمارسه فئات متعددة في الدول التي أنشئت في الشرق الأوسط، ويحذر (بيتر رالف) أن الوضع الدولي إذا ما استمر في تشجيع وجود مثل هذه الدويلات في الشرق الأوسط، فإننا سنستمر نشهد الصراعات الدموية على اسس دينية وطائفية وعرقية في الشرق الأوسط، وبالتالي إعادة رسم الشرق الأوسط التي ستؤدي الى إنهاء دول وإنشاء دول أخرى، إذ ستنتهي المملكة العربية السعودية وقطر والعراق والكويت، وستتغير أوضاع دول مثل تركيا وإيران وباكستان وأفغانستان. ويحدد (بيتر رالف) الدول التي ستنشأ وتعتبر الرابحة من إعادة رسم الشرق الأوسط، بأنها، الدولة العربية الشيعية، كردستان الحرة، بلوشستان الحرة، الدولة الإسلامية المقدسة، بينما الدول التي ستخسر ستكون إيران، العراق، السعودية، الكويت، قطر. (أنظر الخريطة)



خريطة تصور مستقبل الشرق الاوسط حسب رؤية (بيتر رالف)

في رأي (بيتر رالف) ان أكثر الحدود اعتبارية وتشوبها وعشوائية في العالم هي تلك التي توجد في افريقيا والشرق الاوسط. ولان تلك الحدود تم خطها تبعاً لمصالح ذاتية للأوروبيين -رغم ان هؤلاء لديهم ما يكفي من المشاكل بالنسبة لقضية تعريف وترسيم حدودهم- فان الامر لا يزال يعني الى الان استمرار صراعات ومصراع الملايين من السكان المحليين. لكن حدود الشرق الاوسط -في استعارة مميزة من تشرشل- من المشاكل والاضطرابات الشيء الكثير الذي لا يمكن ان يتم استهلاكه محلياً وحسب.

حجج تبرير المشروع:

عدد من الحجج قدمت لتبرير هذا المشروع ومنها:

١. إن الحدود الحالية هي حدود رسمتها كل من بريطانيا وفرنسا بشكل عشوائي في بداية القرن العشرين وهي حدود غير عادلة؛
٢. إن قوس الحدود الأكثر تشابكاً وفوضوية في العالم يكمن في إفريقيا والشرق الأوسط، وإن هذه الحدود تعمل على إثارة الحروب في المنطقة، ولذلك يجب تغييرها وإعادة رسمها لإعطاء الأقليات المذهبية أو القومية والإثنية حقوقها المسلموبة

٣. صحيح أنه في بعض الحالات، قد تتفاهم مجموعات مختلفة متعددة الأعراق أو الديانات أو الإثنيات بحيث يمكن لهم أن تتعايش وتداخل مع بعضها البعض، لكن الغالب أن هذا النوع من التداخل يتم بالدم أو المعتقد، في أماكن أخرى قد لا يكون ناجحاً بقدر تلك الوحدة الحاصلة يحصل في داخل المجموعة الواحدة لذلك لا بد من إجراء هذا التغيير في خريطة الشرق الأوسط

٤. الحدود المرسومة للدول هي ليست ثابتة على الإطلاق ولا يجب التجاوب مع الحجة القائلة إن هذه الحدود لهذه الدول يجب ان لا تتغير، لأنها تعبر عن واقع موجود منذ آلاف السنين، وإن المحافظة عليها تتطلب تحمل ضريبة المشكلات التي تحصل فيها.

٥. إن حدود الشرق الأوسط تسبب خللاً وظيفياً داخل الدولة نفسها، وبين الدول نفسها، خاصة من خلال الممارسات ضد الأقليات القومية والدينية والإثنية، أو بسبب التطرف الديني أو القومي والمذهبي، ولذلك يجب إنهاء هذا الأمر.

أن الغاية من هذا التعديل ، كما يؤكد (بيتر رالف) ، هو تحقيق عدد من الأهداف الإنسانية والتي تتعلق بالعدل والديمقراطية والتوازن وأهداف أخرى رئيسية هي :

١. إنهاء الظلم الذي يعاني منه عدد من الأقليات في الشرق الأوسط ومنها: الأكراد، البلوش والشيعية العرب ، وعلى الرغم من أن التعديلات المرتقبة تأخذ بعين الاعتبار مصالح هذه الفئات ، إلا أن هذه التعديلات المرتقبة قد لا تستطيع أن تحقق مصالح أقليات أخرى.

٢. محاربة الإرهاب بشكل كامل بواسطة القوات الأمريكية المتمركزة في المنطقة وحلفائها من الدول المحلية أو العالمية.

٣. تأمين تدفق النفط بشكل تام وكامل للغرب دون أي قيود.

٤. تحقيق السلام الكامل عبر إحداث تعديلات في الحدود الجيو- سياسية للدول الموجودة حالياً في الشرق الأوسط، ونشر الديمقراطية.

ان السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف سيحدث هذا التغيير؟ هل يحدث بطريقة سهلة ومطاطية أم بطريقة عنفية؟ إن هذا التغيير في الحدود المرسومة حالياً وتعديلها لإيجاد شرق أوسط جديد، لا يمكن أن يتم بسهولة وسرعة، لأن إعادة تصحيح الحدود الدولية يتطلب توافقا لإرادات الشعوب التي قد تكون صعبة جداً. ولكن لسرعة التنفيذ و' لضيق الوقت " فإنه لا بد من (سفك الدماء) للوصول إلى هذه الغاية واستغلال عامل الوقت لصالح هذه الخطة.

البعد المستقبلي

ان كل ما يحدث في الشرق الاوسط هو لأجل شيء مستقبلي متعلق بإجراء تغييرات في وضعها. ولكن لصالح من؟

ان التغييرات التي طرأت على منطقة الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الاولى وخلال وبعد الحرب العالمية الثانية، بينت أن تلك التغييرات انما حدثت على ضوء مصالح الدول الكبرى المتنفذة والمسيطرة على معالم وتوجهات السياسة الدولية. ان هذه المصالح هي ذو طبيعة متحركة وتتغير على ضوء التغييرات التي تحدث.

منطقة الشرق الاوسط شهدت تغييرات مهمة منذ نهاية القرن العشرين ومن أهمها نشوب حروب اقليمية وحروب أهلية أثرت على وضعها السياسي والاجتماعي وأدخلتها في دوامة من اضطرابات اجتماعية وسياسية بدأت في ٢٠١١ مع تونس ومصر وسوريا والعراق والبحرين وإيران واليمن وغيرها. هذه الاضطرابات امتدت لكي تصبح « ثورات شعبية» (يصفها لاري دايموند بكونها تمثل الموجة الرابعة للديمقراطية)^{١٩} تؤثر على وجود الدولة التي تحدث فيها تلك الاحداث وقد تسبب انهيارها. ويعلق (برنارد لويس) على هذا الوضع بقوله: « قد يخلق انهيار احدى هذه الدول او تفككها وضعاً خطراً في المنطقة، ولاسيما للدول المجاورة، فهو تهديد للدول الاضعف واغراء للدول الاقوى. وقد يتكرر في هذه المنطقة النموذج اللبناني وتورط الجيران الاقرب والابعد على السواء».^{٢٠}

هذه الحروب في الشرق الاوسط (وفي العالم كذلك) هي حروب جديدة، يكتب المفكر الاستراتيجي الفرنسي (برتران بادى)، لكونها تمثل انماطاً جديدة من الحروب تتسم بالإفراط في العنف والتي تختلف تماماً عن العنف المتسم به الحروب التقليدية. هذا العنف جاء عن طريق استخدام تكنولوجيا متقدمة جداً وكذلك على طرح ايديولوجيات جديدة. لهذه الحروب أيضاً « بعد أنني « لم يكن ظاهراً» في الحروب التقليدية.

وهكذا فان عدم قابلية الدولة وكفاءتها في معظم دول الشرق الاوسط في الاستجابة لمطالب المواطنين في الديمقراطية والحرية (في منطقته يؤكد فوكوياما، توصف بكونها تمتلك ثقافة قبول الدكتاتورية)، أدى الى عدم السيطرة على الاضطرابات ومنع تطورها نحو منحنيات خطيرة ستؤثر على وجودها وتحولها الى نوع من « الدول الفاشلة».^{٢١} ان من أهم اسباب هذا الوضع « الرديء» للدولة في الشرق الاوسط هو بعدها عن الشعب مما خلق « هوة « و» مسافة طويلة « بينها وبين المواطنين وهذا ما أثر على مدى تمتعها بالشرعية.

ان دول الشرق الاوسطية تعاني من أزمات سياسية مستمرة ولا تملك الكفاءة والقابلية لحلها وبالتالي فان معظم تلك الدول هي قريبة من الحالة التي حددها البروفيسور (هنتكتن) ووصفها بانها حالة: الانهيار السياسي ^{٢٢} Decay Political .

هذه الحالة تبرز عندما لا تتمكن مؤسسات الدولة من تلبية متطلبات. التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا يعني عدم تمكنها من استيعاب الظروف الجديدة.

ان هذه الدول ليست لها القابلية في الاستجابة للمطالب المتعلقة بالديمقراطية، حيث يؤكد (فوكوياما)^{٢٣} أنه على الرغم من مرور اربعة أعوام على الربيع العربي لا تبدو هناك مظاهر وملامح تدل على قرب ظهور حكومة ديمقراطية (ماعدنا في تونس). ان هذا الوضع يشير الى صعوبة عملية ترسيخ الديمقراطية في تلك البلدان حيث النخبة السياسية المرتبطة بالاتجاه الفكري المحافظ وتستمد قوتها من الارتباطات العشائرية والمذهبية والقوى التقليدية في المجتمع.

اذن عاملان مهمان تحددان أفاق مستقبل المنطقة: مصالح الدول الكبرى، ومصالح النخبة التقليدية الحاكمة. فرض هذه المصالح على المنطقة خلق اجواء من الصراع حول مستقبل المنطقة والذي أفرز جملة من الاحداث لم تكن ممكنا أن تظهر الى العلن في السابق، ومنها: مشاكل المكونات الاثنية والدينية. ان هذه المشاكل التي أشرنا اليها سابقا، ستكون هي « الموجهة» للأحداث التغييرية، لكونها تحاول أن ترسخ حقوقها دستوريا وواقعيا أو انها تطالب أن تكون لها كيان خاص بها.

ان المستقبل يحمل في طياته الكثير من المفاجئات والتي قد لا تكون لصالح إرادة شعوب المنطقة، بل يمكن أن تتغلب مصالح القوى الكبرى على مطالب تلك الشعوب وبالتالي قد تعيش المنطقة لفترة غير محددة وضعا قلقا غير مستقرا).

وفي إطار العلاقات الدولية المعاصرة والمتسمة بحالة « اللا استقرار» برزت ظاهرة جديدة تتمثل في دور وحدات تسمى بـ (الفاعلون من غير الدول (non-state Actors) وهذه الوحدات تحاول أن تبني لنفسها « مركزا » أو « موقعا» في السياسة الدولية كـ « فاعل من غير دولة». وتستند هذه المحاولة على عدد من العوامل منها عامل الإرهاب والعنف. ولكن هذه الحالة في السياسة الدولية تحدد بكونه حالة عدم اليقين uncertainty.

إن معادلات العلاقات الدولية غالبا ما أهملت ارادة الشعوب وركزت على مصالح الدول القوية، بل أيضا على كيفية تكوين أطراف المعادلة السياسية في العلاقات الدولية. ان التورط في قضايا دولية أكبر من حجم اللاعب سيثير اشكاليات ومتاعب للاعب وبالتالي من الممكن أن يخرج بالنتيجة من اللعبة وهو في وضع ليس أحسن من الوضع السابق.

هذه القاعدة الجوهريّة في العلاقات الدولية، يجب على صانعي القرار السياسي في "وحدات من غير الدول" التمعن بها ومراعاتها في أية ارتباطات في تلك العلاقات التي لا تسير على الاهواء ولا على الصدفة، بل تسير وفق المصالح التي هي متشابكة ومعقدة وغير واضحة تماما وفي أغلب الاحيان.

في الشرق الاوسط يحدث كل شيء، وماذا تهدف هذه الاحداث: بعض الشيء، ما هو هذا البعض؟ مصالح الدول القوية وليس مصالح الشعوب. ما هو البرهان على هذا؟ يكتب (محمد خليفة) بهذا الصدد "ولاشك أن قول الرئيس أوباما أنه غير متفائل بمستقبل المنطقة صحيح لأنه يعلم أن المخطط مازال في مرحلة العنفوان والصعود ولم يقترب من نهايته، ولاسيما وأن التغييرات الإقليمية والدولية تتطور لصالح القوة العمياء والهمجية، التي تحدثت عنها صحيفة (الغارديان) مؤخرا، وقالت إنها تستهدف تدمير (المدن التاريخية) في الشرق الأوسط، وأدانت التغاضي الدولي عن هذه الجريمة، دون أن يسعف الوعي هذه الصحيفة لتدرك أن الهدف هو تغيير المنطقة لا المدن فقط..."^{٢٤} ويؤكد د. عصام خليفة على «إن حدود الخرائط الجديدة في مشرقنا العربي تكتب بالدم. وبدل أن يكون ترسيم الحدود وسيلة من وسائل معالجة المسائل، كما يقول يبدو أن الغاء الحدود هو المشكلة لأن المطروح إعادة تشكيل دول المنطقة.

إن ما يجري في مشرقنا العربي، وقلبه سوريا، هو مزيد من الاتجاه نحو التفكك المرتكز على غليان في المشاعر الطائفية والإثنية المتنامية. وهذا الوضع يدخل المنطقة في فوضى مفتوحة قد تهدد السلم العالمي برمته»^{٢٥}

إن فهم ما يجري الان في الشرق الاوسط يتطلب قراءة التاريخ (وبالذات تاريخ العلاقات الدولية) التي ستوضح كيفية فهم ما يجري الان من خلال الأحداث التاريخية وتحليلها. وبدون هذه القراءة، لا يمكن ان ينضج رجل الدولة وكما يقول المؤرخ والفيلسوف الروماني (سينيكا- المتوفي ٦٦ الميلادية): يظل الانسان طفلا اذا لم يقرأ التاريخ.

الهوامش:

- ١ . Henry Kissinger, World Order, Reflections on the Character of Nations and the Course of History, Allen Lane Published by Penguin Books, London, 2014, p.142
- ٢ . برنارد لويس، مستقبل الشرق الاوسط، ٢٠٠٠، ص ٢٠
- ٣ . نقلا عن: د. عصام خليفة، ” مؤتمر مئة عام على إتفاقية سايكس بيكو... رؤية مقارنة“، دراسة منشورة في : جريدة المستقبل، بيروت في ٢٦/١١/٢٠١٦، ص ١٣
- ٤ . Francis Fukuyama, State Building. Governance and World Order in the Twenty-First Century, Profile Books, London, 2004 (الترجمة العربية: فرانسيس فوكوياما، بناء الدولة. النظام العالمي ومشكلة الحكم والادارة في القرن الحادي والعشرين، نقله الى العربية: مجاب الإمام، الناشر: العبيكان، الرياض، ط ١، ٢٠٠٧)
- ٥ . Fukuyama.op. Cit., P.X, 128
- ٦ . محمد خليفة، «إتفاق ريباعي...»، مجلة الشراع، بيروت ٢٨/١١/٢٠١٦، ص ٢٦
- ٧ . بيتر و.غالريث، نهاية العراق: كيف تسبب القصور الأمريكي في إشعال حرب لا نهاية لها، ترجمة: أياد أحمد، الدار العربية للعلوم - ناشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢١٣ وما بعدها
- ٨ . نفس المصدر أعلاه، ص ٩٦ وما بعدها
- ٩ . نفس المصدر أعلاه، ص ٢٢٧ وما بعدها وكذلك ص ٢٣١ وما بعدها
- ١٠ . Fukuyama.op. Cit., p. 137
- ١١ . Fukuyama Francis, Political Order and Political Decay, Profile Books, London, 2014, p.314-
- ١٢ . غالريث، المصدر السابق، ص ٢٤٥
- ١٣ . نفس المصدر أعلاه، ص ٢٣١
- ١٤ . Fukuyama.State Building.op. Cit., p. 137
- ١٥ . غالريث، المصدر السابق، ص ٩٥
- ١٦ . برنارد لويس، المصدر السابق
- ١٧ . انظر: د.أياد العنبر وم.م اسحق يعقوب محمد، « مستقبل العراق: دراسة في العلاقة بين مؤشرات الدولة الفاشلة ومتغيرات انهيار الدولة»، دراسة منشورة في الموقع الاتي:
(www.uokufa.edu.iq/journals/index.php/Kufa Review/article/viewFile/.../pdf_94_2/12/2016)
- ١٨ . Ralph Peters. Blood Borders. How a better Middle East would like? In: Armed Forces Journal, June 200
- ١٩ . لاري دايموند، الثورة الديمقراطية، ترجمة سمية فلو عبود، دار الساقى، بيروت، ط ١، ١٩٩٥
- ٢٠ . برنارد لويس، المصدر السابق
- ٢١ . Fukuyama.Political Order.op. Cit., P.47
- ٢٢ . (Huntington, Political Order in Changing Societies, 1968
- ٢٣ . Fukuyama, Ibid
- ٢٤ . محمد خليفة، المصدر السابق
- ٢٥ . د.عصام خليفة، المصدر السابق

”قراءة في مستقبل حركة تنظيم الدولة” ”داعش”

نضال أبو عيشة *

مقدمة

إن حالة الفوضى الشاملة والتدمير المنظم والتفكيك المقصود لكل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العراق، والتي قادت إلى تداعي كيان الدولة الناتج الطبيعي لاحتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق عام ٢٠٠٣، ومن أهم آثار تداعي الدولة العراقية تسريح الجيش العراقي، وإنعاش للطائفية والمذهبية من خلال انحياز أمريكا إلى الشيعة والأكراد وتهميش الطائفة السنية، التي شكلت بذرة للنزاع الطائفي وظهور الحركات الجهادية.

ومع تنامي المقاومة المسلحة في العراق للاحتلال الأمريكي وانخراط الحركات الجهادية فيها، شكل ذلك ملاذاً آمناً ومنطقة استقطاب للجهاديين الذين كانوا قد تشرذموا في بقاع الأرض بعد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان ودحر تنظيم القاعدة عنها على أثر تبني القاعدة لأحداث ١١/أيلول/٢٠٠١، ولعب ذلك دوراً حيوياً في تأسيس فرعاً للقاعدة في العراق التي شكلت أساساً موضوعياً لبروز داعش فيما بعد، والتي كان لها كلمة الفصل في ظل ما أطلق عليه ثورات الربيع العربي، والتي تحولت من حركة مطلبية إلى صراع على السلطة بعد عامها الأول وأنتجت دولاً فاشلة سمتها الأساسية الفوضى الدموية غذتها التدخلات الخارجية، فعمت فيها الحروب الأهلية والطائفية، وهذا بدوره أسهم وهياً الظروف الملائمة لنشأة داعش وترعرعها وتمددتها.

في ظل تمدد داعش وسيطرته على أراضٍ في كل من العراق وسوريا وإعلانه قيام دولة الخلافة الإسلامية فيهما على مساحة جغرافية شاسعة، وإنشائه لأجهزة إدارة الدولة كالجهاز الإداري والمالي والإعلامي والعسكري وغيره، واكتفائه الذاتي مالياً، ومبايعة بعض الحركات الجهادية في دول الربيع العربي وبعض الدول الإسلامية لداعش وانطوائها تحت رايته، واستقطابه للمقاتلين سواء من الدول العربية والإسلامية أو المسلمين حديثي الإسلام من أوروبا. ومع قيام داعش بالتمدد نحو دولة الأكراد في شمال العراق واستيلائها على المعابر بين العراق وسوريا وبين العراق والأردن والزحف إلى الحدود السعودية من العراق، وقيامه بالعديد من

عمليات القتل الوحشي لأسرى غربيين وعرب وبشها عبر الشبكة العنكبوتية، شكل ذلك توجساً لدى الإدارة الأمريكية على حلفائها الأكراد والسعودية، فسارعت إلى تأسيس حلف دولي مكون من ستون دولة لمحاربة داعش في أيلول/ ٢٠١٤ وبالإضافة إلى قيام روسيا في أيلول/ ٢٠١٥ بالتدخل العسكري في سوريا، إلا أنه لغاية الآن لم ير أثر ذلك التحالف على الأرض، وبالمقابل فإن العمليات العسكرية للتنظيم تعدت حدود تواجده الجغرافي حيث قام بعدد من العمليات في العديد من الدول كأمريكا وفرنسا ومصر وغيرها، وتوعد دولاً أخرى بمثل تلك العمليات رداً على الهجمات الدولية على أماكن تواجده. وعلى الرغم من التدخل العسكري الأمريكي الروسي وحلفائهم الذين يتعدون ستون دولة في محاربة داعش في العراق وسوريا إلا أنه يلاحظ أن تنظيم داعش ما زال مسيطراً على الأرض، وبالتالي فإن مشكلة الدراسة تتمحور حول مستقبل داعش في المنطقة العربية؟.

داعش النشأة والجذور

يعود نشأة الإسلام السياسي «الجهادي» في صورته الحالية في المنطقة العربية إلى الحرب الأمريكية الأولى في العراق التي اتخذت من عملية «تحرير الكويت» من الغزو العراقي ذريعة وغطاء عام ١٩٩١، لإخراج القوات العراقية من الكويت، حيث بدأ أسامة بن لادن عملية إعادة تجميع «للمجاهدين العرب» الذين قاتلوا معه في أفغانستان حينما كانت محتملة من الاتحاد السوفيتي في مزارعه في السودان لوضع النواة الأولى لتنظيم القاعدة وإطلاق «الحركة الجهادية» لإخراج القوات الأجنبية من الجزيرة العربية أولاً وإسقاط الأنظمة المتواطئة معها.

وقد نجحت أمريكا وحلفاؤها في تدمير حكم «طالبان» في أفغانستان المتحالف مع تنظيم القاعدة بقيادة بن لادن في أكتوبر/ ٢٠٠١ كردة فعل على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حيث دمرت البنى التحتية لتنظيم القاعدة وشردت مقاتليه الذين انتهوا إما قتلى أو معتقلين أو مشردين متخفين في باكستان وإيران وغيرها من الدول. وقد شكل احتلال أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣ بداية الزخم القوي لصعود الإسلام الجهادي ووفر له العوامل والمبررات والأيدولوجيا والملاجئ والسلاح الذي كان بحاجة إليه.

فإذا كان الإسلام الجهادي قد نشأ في صورته الأولى في أفغانستان في المرحلة الأولى ضمن الجهاد الأفغاني ضد القوات السوفيتية، وفي صيغته الثانية لانتقال بن لادن من السودان إلى أفغانستان واتخاذها قاعدة لشق عمليات انتحارية تستهدف أهدافاً أمريكية كقاعدة الخبر في السعودية عام ١٩٩٦، وسفارتي أمريكا في نيروبي ودار السلام عام ١٩٩٨، والهجوم

على المدمرة الأمريكية «أس أس كول» في خليج عدن عام ٢٠٠٠، وضرب عدة أهداف في عقر أمريكا تمثلت بأحداث ١١/ سبتمبر عام ٢٠٠١، فإن النشوء الحقيقي للإسلام الجهادي المتمثل في «داعش»، تم في العراق بعد غزوها واحتلالها من أمريكا عام ٢٠٠٣ حيث شكل النقلة الأهم في تاريخه ونقله من أفغانستان إلى قلب الوطن العربي^١

الحاضنة العراقية وبداية العمل العسكري

مرحلة الزرقاوي (٢٠٠٣ - ٢٠٠٦)

ويذكر (عطوان، ٢٠١٥، ص ٧٤-٨٠) في دراسته إن بداية انطلاق المعارضة المسلحة للاحتلال العراقي في الأول من أيار/ ٢٠٠٣ وهو نفس اليوم الذي أعلن فيه الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش انتهاء العمليات العسكرية. ففور سقوط بغداد حث بن لادن أنصاره في ٢٠٠٣/٣/٨ البدء في العمليات الانتحارية وذلك في شريط صوتي مسجل، وانخرط في المقاومة الثوار البعثيين من ضباط وجنود من الجيش العراقي المنحل، بالإضافة إلى سبع مجموعات سنية رئيسية مقاتلة أبرزها جماعة «التوحيد والجهاد» بزعامة الأردني الأصل أبو مصعب الزرقاوي (احمد الخلايلة)، إلى جانب سبع جماعات شيعية منخرطة في المقاومة بقيادة مقتدى الصدر وجيش المهدي الذي أسسه، ويشار هنا إلى أن الجماعات الشيعية باستثناء جيش المهدي قد انخرطت بقوات الجيش العراقي وقواه الأمنية التي تأسست تحت راية الاحتلال بعد تشكيل الحكومة العراقية الجديدة. وقد توحدت الفصائل السنية المقاتلة تحت مظلة واحدة باسم «جيش أنصار السنة» باستثناء «التوحيد والجهاد» بعد خمسة أشهر من احتلال العراق، ويعود عدم انضمامها إلى التجمع بسبب تمسك الزرقاوي بأيدولوجية القاعدة ونظرتها العالمية الأوسع وفكرها المتشدد، والرابط لهذا التجمع بالإضافة للتوحيد والجهاد الرغبة في إقامة دولة إسلامية في العراق بعد هزيمة المحتل.

فجماعة التوحيد والجهاد حسب (ليستر، ٢٠١٥) ونظراً لشهرتها وشبكات تجنيدها الدولية الواسعة، مثلت على نحو متزايد مركز المظلة الجهادية المتنامية في العراق، وانضوت تحت لوائها بعض المجموعات الأخرى.

في كانون الأول عام ٢٠٠٤ انضم الزرقاوي إلى تنظيم «القاعدة» وأعلن البيعة لزعيمه بن لادن، ووضع الزرقاوي استراتيجية محددة للتنظيم تتمثل في منع العراقيين بكل الوسائل من التعاون مع الحكومة العراقية وزعزعة الاستقرار، ولم تقم استراتيجيته على مقاومة المحتل بل تعدت ذلك لتغذي الخلاف الطائفي السني الشيعي كوسيلة لتوسيع نفوذه وتجنيد أكبر

قدر ممكن من العراقيين وغير العراقيين في صفوفه وخاصة من الدول المجاورة، ولإنجاح استراتيجيته استخدم الزرقاوي العنف الدموي القائم على التصفيات والتفجيرات في المقار الأمنية وأماكن تجمع المتطوعين الجدد سواء للجيش أو القوات الأمنية، واستخدم أيضاً الحرب النفسية ووظف التكنولوجيا لخدمة أغراضه من خلال بث أفلام الفيديو لعمليات ذبح الرهائن والأسرى الأجانب التي يقوم بها، وبث فيلم له شخصياً حينما ذبح رجل الأعمال الأمريكي ”نيك بيرغ“ حاملاً رأسه المقطوع أمام الكاميرا والدماء تنزف منه ليمثل لاحقاً طريقة التوحش التي يتبعها داعش.

يعود نجاح الزرقاوي في المثلث السني إلى التوحد القبلي والعشائري في مواجهة الاحتلال وأعدائه، إلا أن فترة ازدهار الزرقاوي سرعان ما أفلت بعد فترة من الزمن بسبب حالة الاستياء وعدم الرضا لدى أوساط ومناطق سنية كان يتواجد بها نتاج الممارسات العنيفة التي قام بها ومنها تنفيذ ثلاث هجمات انتحارية في الأردن (بلده الأصلي) طالت ٦٠ شخصاً نصفهم من الفلسطينيين والأردنيين. وبسبب الانتقادات والانتهاكات الموجهة له وردة الفعل الغاضبة لأعماله في الأردن، بدأ يفقد التأييد الذي حظي به من دوائر القاعدة، وحاول تأسيس جماعة جهادية سنية جديدة في كانون الثاني ٢٠٠٦ أطلق عليها ”مجلس شوري المجاهدين“ بصفة مبدئية وعين عبد الله البغدادي أميراً عليها لسحب الذرائع ومخاوف من الجهاديين العراقيين الذين ظهرت بعض أصواتهم عن ”خطف“ الجهاديين الأجانب التنظيم في بلاد الرافدين، إلا أن هذه الحركة لم تنطلي عليهم ولم تحسن من موقف الزرقاوي لديهم وتراجعت مكانته لدى بن لادن الذي أصدر أمراً بتنحيته عن الإمارة في نيسان/ ٢٠٠٦، وفي حزيران من ذات العام نجح الأمريكيان بتحديد مكانه واغتياله.

مهد الزرقاوي الطريق لداعش بإذكائه الحرب الطائفية والعرقية فقد أعلن في آب/ ٢٠٠٣ مسؤوليته عن اغتيال المرجعية الشيعية العليا السيد آية الله باقر الحكيم زعيم ومؤسس المجلس الإسلامي الأعلى للشورة العراقية، كما شن حملة دموية ضد الطائفة الشيعية أطلقها في آذار/ ٢٠٠٤ باستخدام السيارات المفخخة في بغداد وكر بلاء بموسم عاشوراء المقدس لدى الشيعة. ويلاحظ أن الفترة التي تولى فيها الزرقاوي إمارة ”تنظيم القاعدة“ في بلاد الرافدين قد زادت من قوة التنظيم وصلاحيته واتساع قاعدته، وضم الآلاف من الجهاديين الجدد إلى صفوفه من العالمين العربي والإسلامي بهدف مقاتلة المحتل الأمريكي وإخراجه من العراق ٣. وسيعتبر الزرقاوي لاحقاً الاب الروحي لتنظيم داعش.

ترك الزرقاوي بعد مقتله منظمة متماسكة قوية نافذة، هدفها محدد وواضح يتمثل بإقامة دولة إسلامية على أساس الهوية السنية فقد تم الإعلان بعد فترة وجيزة عن تشكيل «حلف المطيبين» وهو حلف شمل الحركات والمنظمات المنضوية في إطار «مجلس شورى المجاهدين» وبعض زعماء العشائر السنية في ١٢ تشرين الأول ٢٠٠٦، وبعد يومين فقط تم الإعلان عن تأسيس «دولة العراق الإسلامية» في ١٥ تشرين الأول ٢٠٠٦ وتضم عدد من المحافظات السنية، وتعيين أبو عمر البغدادي أميراً لهذه الدولة، إلا أن البعض يرى أن أيوب الأنصاري هو الذي حل محل الزرقاوي. وأعلنت الدولة الإسلامية هدفها المتمثل بإقامة إمارة إسلامية في كل العراق بالطرق العسكرية؛ وعينت مجلس وزراء وطبقت الشريعة الإسلامية في المناطق التي تسيطر عليها في أجزاء من العاصمة بغداد وسامراء والموصل والأنبار وكركوك وفي عاصمتها بعقوبة. وتحولت هذه الدولة التي حظيت ببعض الازدهار الاقتصادي والاستقرار الأمني إلى وجهة رئيسة للجهاديين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ونتاج السياسات المتشددة التي اتبعتها الدولة الإسلامية، نشأت حالة تمللم لدى عشائر عراقية في المثلث السني استغلها الجنرال الأمريكي «ديفيد بترايوس» قائد القوات الأمريكية بالعراق وقرر تكوين «الصحوات» تحت اسم «أبناء العراق» وجرى تعيين الشيخ عبد الستار أبو ريشة زعيماً لهذه الصحوات، وأمدتها القوات الأمريكية بالمال والسلاح للتصدي لتنظيم الدولة الإسلامية لإخراجه من منطقة الأنبار. وحسب الإحصاءات الرسمية الأمريكية فقد جرى تجنيد حوالي مئة ألف مقاتل في منظومة الصحوات، كان لها الأثر في دحر الدولة الإسلامية وبمشاركة أمريكية وإخراج قوات الدولة الإسلامية من العديد من المناطق التي كانت تسيطر عليها.

ونجحت الخطة الأمريكية في تأليب معظم أبناء الطائفة السنية ضد الدولة الإسلامية بسبب تشددتها، قابله نجاح الدولة الإسلامية في اغتيال الشيخ أبو ريشة زعيم الصحوات في أيلول ٢٠٠٧ وشكلت هذه العملية أبرز نجاحات الدولة الإسلامية إلى جانب استهدافها الطائفة اليزيدية والتي أجمعت الأعمال الطائفية.

وأدى تراجع دعم القاعدة السنية للدولة الإسلامية إلى اضمحلالها ابتداءً من أيلول ٢٠٠٨، حيث بدأت هجرة المقاتلين الجهاديين بعد أن شعروا أنهم لم يعودوا موضع ترحيب. في نهاية عام ٢٠٠٨ سلمت القوات الأمريكية قيادة الصحوات إلى حكومة نوري المالكي مع توصية بدمج هذه القوات وغالبيتها من أبناء الطائفة السنية والبالغ عددها مئة ألف مقاتل

في الجيش العراقي وقواه الأمنية. لكن حكومة المالكي طردت نصفهم ووعدت النصف الآخر باستيعابه في أجهزة الدولة المختلفة، إلا أن هذه الوعود كانت كاذبة، فكانت ضربة للصحوات التي أصبحت تعيش حالة من اليأس والإحباط ومن ثم تحولوا إلى «وحوش» تتطلع للثأر والانتقام من المالكي وحكومته الطائفية، فكانت بقايا القاعدة والجماعات الإسلامية الأخرى بالمرصاد، حيث عرضت عليهم التوبة والانضواء تحت رايتهما وأصبحت الصحوات تشكل العمود الفقري لجيش «الدولة الإسلامية في العراق».

عقب مقتل أمير الدولة أبي عمر البغدادي في ١٩ / نيسان ٢٠١٠ ووزير حربه؛ بادر تنظيم دولة العراق الإسلامية على استبدال كبار قادته ومبايعة أبي بكر البغدادي الحسيني القرشي أميراً للمؤمنين^٤. وتمثل هذه المرحلة بداية الخلاف بين القاعدة وداعش فيما بعد حيث أصر العراقيون من القاعدة ان يكون اميرهم من العراق لا من خارجها.^٥

مرحلة ما بعد ٢٠١٠ وإعلان الخلافة لغاية الآن

بعد خوض الصحوات قتالاً إلى جانب القوات الأمريكية ساهم ذلك في دحر الدولة الإسلامية وفقدانها الحاضنة السنية، حيث شكل نقطة تحول في المشهد السني من موقف داعم للجهاديين إلى متواطئ مع القوات الأمريكية، عل ذلك يدعم موقف السنة ويحدث اختراق في التركيبة السياسية للنظام السياسي الجديد، إلا أن النفوذ الشيعي كان قد شهد تنامياً مطرداً وسيطر على كافة مفاصل الدولة. ومع تولي المالكي لرئاسة الوزراء للولاية الثانية أواخر ٢٠١٠، وبدء القوات الأمريكية بالانسحاب من العراق بموجب الاتفاقية الموقعة مع الحكومة العراقية عام ٢٠٠٨، واستكمال الانسحاب في ٣١ / ١٢ / ٢٠١١، فقد تميزت هذه الفترة بتغلغل النفوذ الإيراني في العراق وهيمنة المكوّن الشيعي على مفاصل الدولة وتنامي الطائفية واستبعاد السنة وانتشار الفساد بكافة المجالات، وفشل مساعي دمج الصحوات في الأجهزة الأمنية العسكرية، وشكلت سياسات المالكي الطائفية والفسادة بيئة خصبة لإعادة ظهور القاعدة من جديد في العراق، تزامناً مع ازدياد مشاعر السنة بالتهميش والإقصاء.^٦

تداعيات إعلان الخلافة

شهد عام ٢٠١١ أحداث عديدة على مستوى الإقليمي تمثلت في الانسحاب الأمريكي من العراق، وانطلاق موجة الاحتجاجات المطالبة في العالم العربي المطالبة بالحرية والكرامة بدءاً من تونس ٢٠١٠ ثم مصر وليبيا واليمن والبحرين وسوريا لتتحول إلى فوضى عارمة بعد ذلك، وفعاليات الاحتجاج في العراق أواخر ٢٠١٢، وأيضاً مقتل زعيم القاعدة أسامة بن

لادن على يد قوات خاصة أمريكية في ٣١ أيار ٢٠١١ في باكستان.

وعلى مستوى تنظيم الدولة الإسلامية، فقد عمد التنظيم إلى إجراء المراجعات التي تناولت المسار والرؤية المستقبلية واستراتيجية التعامل مع الواقع العراقي المفتت طائفاً وعرقياً وتداخل العوامل الداخلية والخارجية سواء الإقليمية أو الدولية، وبناء على المراجعات أصدر التنظيم وثيقة تفسر إستراتيجيته والمراجعات التي قام بها وتكتيكاته الجديدة ورؤيته المستقبلية، وكانت بعنوان «خطة إستراتيجية لتعزيز الموقف السياسي لدولة العراق الإسلامية»، والهدف من الوثيقة وضع إستراتيجية للتنظيم لمرحلة ما بعد الانسحاب الأمريكي، وقد شملت الوثيقة خمسة مجالات لعملها المستقبلي، المجال الأول: السعي الجاد لتوحيد الجهود، ويعني تخلي الفصائل عن المصالح الخاصة والسعي للانخراط في مشروع الدولة. المجال الثاني: التخطيط العسكري المتوازن فإن الجهود يجب أن تركز على استهداف العدو الداخلي، ولتحقيق ذلك وضعت ثلاثة مبادئ وهي: مبدأ تسع رصاصات على المرتدين ورصاصة على الصليبيين، مبدأ «التطهير» ويقوم على أساس تشريد العدو وتطهير الأرض، مبدأ «سياسة الاستهداف» بالتركيز على القوات الفاعلة والشخصيات والرموز الفاعلة. المجال الثالث: مجالس الصحوة الجهادية: تتمثل بإنشاء مجالس صحوات جهادية يعطي صلاحية واسعة لشيوخ العشائر في إدارة مناطقهم في ظل «دولة العراق الإسلامية، المجال الرابع: العناية بالرمز السياسي: من خلال تقديم قيادات مقبولة اجتماعاً وتمتع بالقدرة والكفاءة، المجال الخامس: طمأنة المواطنين: بالحكم العادل لأي منطقة يحصل فيها السيطرة «التمكين».

وفي عهد أبي بكر البغدادي لم يقتصر الأمر على المراجعات ووضع الاستراتيجية بل تعدى ليطلق تركيبة التنظيم الأمنية والشرعية، فاعتمد في الجانب العسكري على ضباط عراقيين سابقين سلفيين، ليرتفع الأثر المهني على التنظيم من الناحية العسكرية والأمنية، بالإضافة لاستثماره بالمقاتلين الجهاديين العرب والأجانب في الأجهزة الشرعية وخصوصاً من دول الخليج.

لقد تحول نسق عمليات التنظيم عام ٢٠١١ من العشوائية إلى السلوك المنظم والمحدد للأهداف، وأصبح يمتلك عنصر المبادرة ويحدد الزمان والمكان، فاستهدف بعملياته مقرات المحافظات ومجالسها واتباع أسلوب موجات العمل على شكل سلسلة عمليات متلاحقة أثارت الرعب والصدمة وبذلك أثبت التنظيم وجوده وقدرته الميدانية والإعلامية والتنظيمية.^٧

خطة هدم الأسوار

مع صعود الاحتجاجات في المحافظات السنية ونتاج سياسات الإقصاء والتهميش التي مارستها حكومة المالكي، استثمر تنظيم الدولة الاحتجاجات لبيان صواب نهجه الهوياتي وبدأ بفرض سيطرته وبسط نفوذه. ووضع خطة «هدم الأسوار» لاستعادة نفوذه وسيطرته الجغرافية، ففي تموز ٢٠١٢ أعلن أبو بكر البغدادي عن بدء الخطة الجديدة في خطاب صوتي حيث خاطب العشائر السنية مستمياً إياهم وداعياً لانضمام أبنائهم للدولة، أما العشائر السنية التي انطلقت منها الصحوات فدعاهم للتوبة والانخراط بتنظيم الدولة، وخاطب الشيعة بلغة عدائية مشدداً على تأكيد الهوية السنية لتنظيمه.

وبعد عام على خطة هدم الأسوار تتوجت باقتحام سجن أبو غريب وسجن التاجي وتحرير المعتقلين فيه في تموز ٢٠١٣، وبعد انتهاء خطة هدم الأسوار أعلن عن خطة «حصاد الأضاد» في ٢٩ تموز ٢٠١٣ بهدف السيطرة على المحافظات السنية في العراق والتمدد والسيطرة على المحافظات السورية.

الانفصال عن النصرة والقاعدة

حافظت دولة العراق الإسلامية والمنظمات التي سبقتها على صلات في سوريا منذ العام ٢٠٠٣، عندما ضخت شبكات التجنيد، بتسهيل من المخابرات السورية، مقاتلين من العالم العربي إلى العراق عرب سوريا، وجذب اندلاع الثورة في سوريا أوائل العام ٢٠١١ انتباه أبو بكر البغدادي، فأرسل قائد عمليات تنظيمه في نينوى أبو محمد الجولاني في آب/٢٠١١ إلى سوريا لتأسيس جبهة لدولة العراق الإسلامية وقد تمت هذه الخطوة بالتنسيق مع أيمن الظواهري خليفة بن لادن في قيادة تنظيم القاعدة، والذي بدوره عمل على التنسيق مع الخلايا الجهادية المحلية هناك لتظهر بعد ذلك «جبهة النصرة» إلى العلن في ٢٣/كانون ثاني ٢٠١٢، وعملت النصرة في بشكل مشابه لدولة العراق الإسلامية، ولكنها أصرت على أنه ليس لها أي روابط مع ذلك التنظيم أو مع تنظيم القاعدة، وذلك أيضاً بالاتفاق بين الظواهري والبغدادي للحفاظ عليها بسبب الخلفية التاريخية للقاعدة وارتباطها بأحداث ١١/أيلول/٢٠٠١، وقد تمددت النصرة بشكل لافت في سوريا وأصبحت تستقل عن التنظيم في العراق، مما حدا بالبغدادي إلى كبح جماحها وإعلانه أن النصرة فرع من دولة العراق الإسلامية وستنضوي تحت لواء التنظيم المتوسع الدولة الإسلامية في العراق والشام^١، وفي ٢٣/نيسان/٢٠١٣ أعلن البغدادي أمير المؤمنين في دولة العراق الإسلامية مد نشاطه إلى الشام وضم النصرة ليصبح الاسم الجديد للتنظيم «الدولة الإسلامية في الشام والعراق واختصاره «داعش»^٢، الأمر الذي

حدا بالجولاني الى رفض هذا القرار على الفور وحافظت النصره على استقلالها، واضطرت داعش إلى إعادة تكوين نفسها في الصراع السوري بالاعتماد على المقاتلين الأجانب المنضوين تحت النصره وتمدد داعش في شمال وشرق سوريا ما ولد معارضة من النصره التي تقاسمت السلطة والحكم في حين أن داعش طالب بالسيطرة على المجتمع ككل، أضف إلى ذلك رفض داعش الاحتكام إلى سلطة محاكم المعارضة المستقلة وإلى وسطاء يعينهم تنظيم القاعدة قد دفع بالظواهري إلى الإعلان في فبراير أن "داعش ليست فرعاً من تنظيم القاعدة"، ولا تربطنا بها أي علاقة تنظيمية، وليست الجماعة مسؤولة عن تصرفاتها"^{١٠}. وبالمقابل أعلن العدناني الناطق باسم داعش أن الظواهري قد ضل الطريق الذي خطه بن لادن وتبناه داعش، ويعود هذا الانشقاق لوقف الظواهري إلى جانب النصره.

إعلان الخلافة

وفرت الظروف في المحيط العربي والإقليمي للتنظيم الفرصة المواتية لبيان صدق منهجه باستخدام القتال وسيلة لتغيير أنظمة الحكم، فثورات الربيع العربي لم تؤت أكلها وتم حرف مسارها، ففي مصر مثلاً تم حل جماعة الإخوان المسلمين واعتبارها إرهابية، وفي العراق استخدم المالكي القوة المفرطة ضد الاحتجاجات التي انطلقت في المناطق السنية، واستخدم المليشيات الشيعية لقمع تلك الاحتجاجات، وازداد نفوذ إيران في العراق وسوريا. كل ذلك ساهم في تدعيم التنظيم وتعزيز منظوره الأيديولوجي والنهج العسكري الذي يتبناه في العراق وسوريا. ففي العراق تحولت الاحتجاجات السلمية إلى حركة مسلحة بدأت في الرمادي ثم انتهت بالسيطرة على الفلوجة، الأمر الذي اعتبره المالكي إرهاباً تقوده القاعدة والدولة الإسلامية في العراق والشام وساندته أمريكا ومجلس الأمن في ١١ كانون الثاني ٢٠١٤، الذي أعرب عن دعمه لجهود المالكي في الأنبار ضد الإرهاب، ومع هذا الإعلان زاد الغضب والاستياء لدى قوى الحراك السني الذي شعر بعدم اهتمام واكتراث العالم بحراهم السلمي، فتشكلت مجالس عسكرية مكونة من بعض أفراد الجيش العراقي السابق، وعناصر عشائرية مسلحة وأسست جماعات مقاومة عراقية كأمثال: «حماس العراق»، «الجيش الإسلامي»، «كتائب ثورة العشرين»، و«جيش الطريقة النقشبندية»، الأمر الذي استثمره البغدادي في عقد تحالفات مع هذه القوى التي تقاتل على أساس هويّاتي.

ظنّ الكثيرون أن مسألة إعلان قيام الدولة الإسلامية مسألة إعلامية وهمية، إلا أن الوقائع على الأرض أثبتت عكس ذلك، ففي ١٠ حزيران ٢٠١٤ استطاع تنظيم الدولة السيطرة الكاملة على مدينة الموصل في محافظة نينوى، وبات يتحدث عن دولة واقعية. وبالتزامن مع تمدد التنظيم في سوريا وسع التنظيم مناطق سيطرته ونفوذه في العراق. وفي ٢٩ حزيران

٢٠١٤ بث التنظيم شريطاً مصوراً بعنوان «كسر الحدود» يُظهر آلياته وهي تزييل السواتر بين الحدود العراقية السورية. وقد أدى التمدد الجغرافي الواسع للتنظيم في كل من سوريا والعراق وكذلك سقوط الموصل بيد التنظيم - الذي أصاب المجتمع الدولي بالصدمة - إلى قيام التنظيم بإعلان الخلافة الإسلامية، فظهر أبو محمد العدناني الناطق الإعلامي باسم التنظيم بتسجيل صوتي معلناً قيام دولة «الخلافة» والذي سيعرف منذ اليوم باسم «داعش»، وتنصيب أبو بكر البغدادي «إبراهيم عواد البدري» خليفة للمسلمين ليكون اسمه الخليفة إبراهيم، وتعدى الأمر الإعلان، بل إلى فرضه على القوى والجماعات كافة، وإعلان الخلافة «صار واجباً على جميع المسلمين المبايعه، وتبطل شرعية الإمارات والجماعات والتنظيمات التي يتمدد إليها سلطانه ويصلها جنده، ومن أراد شق الصف، فافلقوا رأسه بالرصاص وأخروا ما فيه كائن من كان ولا كرامة». وفي اليوم التالي لإعلان الخلافة أصدر البغدادي خطاباً بين فيه حال المسلمين وبيّن موقفه من الأيديولوجيات قائلًا: «إن للمسلمين اليوم كلمة عالية مدوية.. أفداماً تدوس القومية، وتحطم صنم الديمقراطية... أن لك أن تتحرري من قيود الضعف، وتقومى على الطغيان على الحكام الخونة، عملاء الصليبيين والملحدين وحراس اليهود»، ويدعو إلى الهجرة إلى دولة الخلافة واصفاً أيها «دار الإسلام» فيقول: «يا أيها المسلمون في كل مكان من استطاع الهجرة إلى الدولة الإسلامية فليهاجر فإن الهجرة إلى دار الإسلام واجبة». وتلا ذلك سيطرة التنظيم على أربع فرق عسكرية ومخازن السلاح وبدأ بالتوسع والسيطرة على مناطق ومدن محافظة الأنبار والقائم ومعبر ربيعية الحدودي مع سوريا وتكريت وغيرها.

أما على الساحة السورية فقد استغلت التنظيمات المسلحة انشغال التنظيم بالساحة العراقية وتحديداً بمعركة الفلوجة وشتت هجوماً على مقاره ومناطق نفوذه وحالة الاستياء والهجوم الإعلامي ضده، مما حملته على التراجع عن بعض المناطق التي سيطر عليها وتكبد خسائر فادحة. إلا أن التنظيم ونتاج خبرته العسكرية وآلته الإعلامية وقراءته للواقع العشائري بشكل سليم عمل على استعادة المبادرة فانطلاقاً من الرقة قام بهجمات منظمة مرعبة وبدأ بالاستيلاء على المناطق «المحررة» بالقوة المسلحة وأجبر الجماعات والتنظيمات والكتائب والعشائر على البيعة للخليفة وفرض منهجه بتلك المناطق، وقد انضم معظم المقاتلين الأجانب إلى صفه وبايعوا الخليفة أبو بكر البغدادي وأصبح الشيشاني «عمر الشيشاني» القائد العسكري الأهم لتنظيم الدولة في سوريا^{١١}.

هيكلية تنظيم داعش

منذ سيطرة داعش على مدينة الموصل في حزيران ٢٠١٤، أثارت القدرات التي يمتلكها أسئلة كثيرة حوله، فإلى جانب التمديد العسكري السريع والخاطف في كل من سوريا والعراق، وانتصاراته على جيوش النظامية، وسحقه للتنظيمات والمليشيات وانهارها أمامه، يمتلك التنظيم قدرات مالية هائلة لم تشهدها الحركات والتنظيمات الجهادية من قبل مما يشير إلى امتلاكه جهازاً فنياً محترفاً بإدارته، وأيضاً جهازاً أمنياً كفواً ساعده على تنفيذ مهام معقدة كالاغتيالات وحماية قيادته العليا في الوقت الذي تترصده أجهزة استخبارات دولية وإقليمية ذات قدرات تكنولوجية هائلة، بالإضافة إلى بروزه في المجال الإعلامي وتوظيفه التكنولوجي المتطورة في تغطية عملياته وفي مجال الاستقطاب والتجنيد، وإصداره المجلات كمجلة دابق وإنتاج الأفلام بمستوى عالٍ من الجودة التقنية باستخدام اللغتين العربية والإنجليزية إلى جانب اللغة الروسية.

وزاوجت هيكلة الدولة الإسلامية التي تعتبر من أكثر الحركات الجهادية تطوراً وتنظيماً وفعالية إدارية بين الأشكال التنظيمية الإسلامية التقليدية التي نشأت مع مؤسسة الخلافة الأولى، وتنظيرات الفقه السلطاني «الذي أسس لمفهوم الدولة السلطانية الذي يقوم على مبدأ الغلبة والشوكة والإمارة»، إلى جانب مفهوم الدولة الحديثة^{١٢}.

ويتشكل الهيكل التنظيمي للدولة الإسلامية «الخلافة» كالاتي:

أولاً: الخليفة: قائد ديني وسياسي له حق الطاعة بعد اختياره من مجلس الشورى وأهل الحل والعقد، ويشكل رأس هرم الدولة ويشرف على باقي المجالس «الوزارات» ويتمتع بصلاحيات واسعة في تعيين وعزل رؤساء المجالس بعد أخذ رأي مجلس الشورى. ويشير تشارلز ليستر^{١٣} إلى أن لدى البغدادي مستشار شخصي يليه نائبان مباشران (واحد لسوريا وآخر للعراق) ومجلس وزراء من ثمانية أعضاء ومجلس عسكري يضم ١٣ عنصر على الأكثر.

ثانياً: مجلس الشورى: من مهامه النظر في القضايا المستجدة، واتخاذ القرارات الهامة ورسم السياسات العامة وتقديم الرأي والمشورة للخليفة، وترشيح خليفة جديد، ويضم في عضويته عدد من القيادات التاريخية وخصوصاً الشرعية يضم بالغالب ما بين ٩-١١ عضو يختارهم الخليفة بتزكية من الأمراء والولاة.

ثالثاً: أهل الحل والعقد: وهو من المفاهيم الراسخة في الفقه الإسلامي، ويمثلان فئة عريضة من القادة والأمراء بالإضافة لمجلس الشورى، ويطلق عليهم أحياناً «أهل الشورى»، وهم من ينصب الخليفة ويأبىه.

رابعاً: الهيئة الشرعية: تقوم الهيئة بصياغة خطابات الخليفة وإصدار الكتب والرسائل والبيانات والتعليق على الأفلام والأناشيد والمواد الدعائية الخاصة بالتنظيم. والهيئة قسماً الأول: يمثل المحاكم الشرعية ومؤسسة القضاء، والثاني يقوم بدور الوعظ والإرشاد والتجنيد ومتابعة الإعلام.

خامساً: الهيئة الإعلامية: ووظيفتها التسويق للتنظيم داخلياً وخارجياً باستخدام التكنولوجيا المتطورة وإصدار المجلات والأفلام ويعتمد التنظيم أكثر من لغة في نشاطاته الإعلامية كالروسية والإنجليزية.

سادساً: بيت المال: وهي المؤسسة المالية حسب التسمية الإسلامية ويشرف عليها الخليفة مباشرة، وقد تضخم رأس مال التنظيم حيث يُقدر بحوالي ٢ مليار دولار وبنات مصادر تمويله متعددة وواسعة بعد سيطرته على الموصل وتوسعه في العراق وسوريا.

سابعاً: المجلس العسكري: يعتبر العمود الفقري للتنظيم نظراً لطبيعته العسكرية، وينقسم إلى هيئة أركان وقوات الاستشهاديين والاقترحام والدعم اللوجستي والقنص وقوات التفخيخ. ومن مهامه: التخطيط الاستراتيجي وإدارة المعارك وتجهيز الغزوات والإشراف والمراقبة والتقويم لعمل الأمراء العسكريين. وعدد أعضاؤه يتكون من ٩-١٣ عضواً، ويتكون المجلس من قادة القواطع، وكل قاطع يتكون من ثلاث كتائب كل كتيبة تضم ٣٠٠-٣٥٠ مقاتلاً وتنقسم الكتيبة إلى عدد من السرايا وكل سرية من ٥٠-٦٠ مقاتل.

ثامناً: المجلس الأمني: وهو من المجالس الهامة للتنظيم وأخطرها وتتحدد مهمته بوظيفة الأمن والاستخبارات للتنظيم والخليفة وصيانتها من الاختراق.

تاسعاً: التقسيم الإداري: يقسم التنظيم مناطق إلى ولايات يتولى إدارتها مجموعة من الأمراء، ويبلغ عددها ١٦ ولاية تتوزع مناصفة بين سوريا والعراق، وتقسم الولاية إلى قواطع وتضم المدن وفق التسميات التي يطلقها ويعتمدها التنظيم، ويدير الولاية مسؤول من التنظيم يحمل لقب «والي» يعاونه مجموعة من المسؤولين يحملون صفة «أمير»^{١٤}.

مصادر تمويل تنظيم داعش

يعتبر تنظيم الدولة أغنى الحركات الجهادية العالمية، ويقوم على إنتاج ماليته بنفسه محققاً إكتفاءً ذاتياً ويعود ذلك إلى تمدده وتوسعه وسيطرته على مساحات شاسعة غنية بمواردها الطبيعية كالنفط والآثار في كل من سوريا والعراق. وتقدر بعض الدراسات رأس مال التنظيم بحوالي (٢ مليار دولار)، وحسب دراسة (أبو هنية، وأبو رمان، ٢٠١٥) تتعدد مصادر تمويله ومن أهمها^{١٥}:

التبرعات والهبات: حيث رصد تقرير صادر عن الخارجية الأمريكية في حزيران ٢٠١٤ تمويل شخصيات خليجية للتنظيم، ووفق التقرير هناك (٢٨) شخصية سعودية و(١٢) عراقية و(٥) كويتية إلى جانب أخرى من قطر والبحرين والإمارات، بالإضافة للهبات التي دخلت خزينة التنظيم بعد السيطرة على الموصل من أيدي عراقيين.

أموال الصدقات والتبرعات والزكاة: حيث استغلت المنابر والقنوات الإسلامية خلال عامي ٢٠١١ و ٢٠١٢ على حث وتشجيع المسلمين بالتبرع وتوجيه الصدقات والزكاة لتأييد الجهاد والمقاومة في سوريا.

عوائد تحرير الرهائن والمختطفين: حيث ساوم التنظيم ذوي المختطفين الأجانب ودولهم على تقديم الفديات مقابل الإفراج عنهم.

الاستيلاء على الموارد والسلع من الأماكن التي يسيطر عليها التنظيم.

عوائد الثروات الطبيعية والمعادن من نفط وغاز في المناطق التي استولى عليها في كل من سوريا والعراق حيث سيطر على أكثر من (٨٠) حقل نفطي صغير ويقوم ببيعها محلياً وخارجياً من خلال وكلاء، وتقدر إيرادات التنظيم من هذه المصدر بنحو مليون دولار شهرياً، فضلاً عن سيطرته على مناجم الذهب بالموصل.

فرض الضرائب والرسوم: وهي من الإيرادات الهامة التي تفرض على التجار والمزارعين والأثرياء والمواطنين، والجزية على غير المسلمين، وضرائب الزكاة والمؤسسات، حيث تقدر بحوالي ٦ ملايين دولار شهرياً. ويشير (ليستر، ٢٠١٤، ص ١٩) في دراسته إلى فرض ضريبة جمركية على الشاحنات التجارية على الطرق الرئيسية والسريعة في غرب العراق، وتم تحديد المعدلات الضريبية بـ ٣٠٠ دولار لكل شاحنة مواد غذائية و ٤٠٠ دولار للشاحنة التي تحمل مواد إلكترونية.

الأموال الحكومية: فقد استولى التنظيم على كميات من الأموال كانت موجودة في المصارف والمؤسسات الحكومية بعد السيطرة على الموصل تقدر بعشرات الملايين من الدولارات.

عائدات الزراعة والغلال والحبوب: إذ يستحوذ على حوالي ثلث إنتاج العراق من الفحم بالإضافة إلى الحبوب الواسعة في سوريا.

ويرى (ليستر، ٢٠١٤، ص ١٨) أن من مصادر التمويل للتنظيم أيضاً: سرقة الآثار والتحف وبيعها في السوق السوداء، وشبكة الابتزاز المعقدة تولد للتنظيم (١٢) مليون دولار شهرياً. ويضيف (عطوان، ٢٠١٥، ص ٣٣) مصادر أخرى بالإضافة لما ذكر أعلاه تتمثل في تجارة السلاح، والتجارة بالنساء وخاصة الإيزيديات.

الأساليب الدعائية والنفسية لداعش، ومنظومات تسويقها

صاحب التمدد والتوسع الجغرافي لداعش اهتماماً عالمياً، فتصدرت أخبار انتصاراته العسكرية وعملياته الأمنية من خطف وقتل للرهائن، ومهاجمة أهداف خارج نطاق مجال عمله في سوريا والعراق، وسائل الأخبار المسموعة والمقروءة، وقد أتقن التنظيم استخدام الوسائل الدعائية والحرب النفسية لكسب المؤيدين وتجنيد الأتباع ولضرب الحالة المعنوية للآخر المتمثل في المجتمع المحلي والمحيط الإقليمي والدولي.

ولتحقيق أهدافه استخدم العديد من الوسائل الدعائية والنفسية لتسويق تنظيم قبل التمدد على الأرض، ففي دراسة (القيم، ٢٠١٥) وهي الدراسة الأولى التي تناولت دعاية وتسويق داعش الرمزي حسب ما يشير معد الدراسة، فقد تناول الآليات التي اتبعتها التنظيم في حربه الرمزية وإدارته النفسية كالآتي^{١٦}:

البعد الديني: وهو المتغير الأكثر استخداماً في صناعة الرمز الدعائي للتنظيم، من قبيل توظيف الفتاوى لتبرير أعماله، وإطلاق التسميات الهيكلية والإدارية والرايات السوداء ذات الموروث التاريخي وغيرها، والرايات السوداء كتب عليها باللون الأبيض (لا اله إلا الله) وأيضاً (الله رسول محمد) وهي ذات طريقة الكتابة لخاتم النبوة للرسول محمد وأصبحت هذه الرايات تعبير عن هوية التنظيم.

استخدام تقنيات (الفلم الرقمي): حيث يتم بثها عبر الشبكة العنكبوتية على اليوتيوب والوسائط الرقمية الأخرى، فاستطاع التنظيم أن يسوق عملياته وشعاراته وأدبياته كجزء من الدعاية ورفع المعنويات.

المنشورات والصور والمعاملات الورقية والكتابات الحائطية واللاصقة: فاستخدم المنشور الديني والتحذيري للسكان، وبث صور القتلى والمعارك والرايات عبر الوكالات الدولية والشبكة العنكبوتية وغيرها ونشر الكتب وأصدر العملة وجوازات السفر الخاصة به، واستخدم اللوحات الجدارية بكثرة ليوحي باستدامته وبقائه، صناعة الهدايا والملصقات والإكسسوارات المتعلقة به وترويجها بأسواق تركيا وسورية وبعض الدول العربية.

تعاطف بعض وسائل الإعلام الدولية: فقد نشر نشاطاته عبر التوظيف المباشر من خلال نقل أخباره العسكرية وتمدده وتمويل بعض الصحف والمواقع في دول مجاورة، وعبر التصريحات والبيانات التي تبثها بعض الصحف الدولية الكبرى والفضائيات المهمة من أن التنظيم يمتلك قوة جبارة.

العمليات الإجرائية تجاه الآخر (لدولي): استطاع التنظيم أن يستفز الجميع ويخلق العدو الكوني من خلال عملياته المختلفة تجاه الشيعة والأقليات وبعض العشائر السنية وعمليات الخطف والقتل للأجانب والتهجير والسبي وغيرها التي طالت مكونات المجتمع العراقي والسوري وخارجهما، وكان تبني فكرة (الأعداء الكثر يأتوا بأصدقاء كثر) واستطاع عبر خلق الأعداء كسب الأصدقاء أيضا، وتلك جزء من تقنيات الدعاية التي جعلته معادي أول للخطط الأمريكية ومن وراء ذلك يحصل على الأتباع والمتبرعين.

اعتماد إستراتيجية الرعب: وهي تجاوز الرحمة والرأفة، فالرعب أصبح هو الهوية التي ينطلق ويتمدد بها التنظيم، على الرغم من أن هذه الإستراتيجية قد اتبعتها قادة سابقون كجنكيز خان وهتلر وغيرهم، وجعلت للتنظيم إتباع من الشبان العرب والأجانب الذين يحتاجون إلى الرموز التي ترعب الآخر دون وازع.

استخدام الأطفال والنساء: لدلالة أن التنظيم له الصفة العائلية من خلال إشراك الزوجة والأبناء في التنظيم، ومن ناحية أخرى إشراك الأطفال والنساء في العمليات التي يقوم بها للدلالة على أنهم ليسوا عصابات.

الزي: استخدم الزي الأفغاني للدلالة على الحاضنة الأولى للتنظيمات الجهادية، والثاني بحسب المنطقة المستباحة فالعراقي أو السوري يرتدي الزي الشعبي ويضع على الرأس غطاء اسود، وعلى الوجه قناع اسود.

الاستعراضات العسكرية: يقوم التنظيم بعمل الاستعراضات العسكرية بالمناطق التي يسيطر عليها لبيان قوته وجبروته وبثها عبر الشبكة العنكبوتية، وهي رسائل دعائية رمزية موجهة لبيان قدرته العسكرية وتشكيلاته وقدرات مقاتليه لبث الرعب والخوف لدى المتلقي سواء المواطن العادي أم المقاتلين من التنظيمات أو الدول الأخرى. كما يردد مقاتلو داعش شعار "باقية وتمدد"١٧، ويمثل هذا الشعار البسيط طريقة عمل داعش الأساسية كتتنظيم والتي خطها أبو مصعب الزرقاوي الأب الروحي للتنظيم.

التحالف الدولي وسيناريوهات مستقبل داعش

أربك صعود تنظيم داعش حساب مختلف القوى المحلية والإقليمية والدولية، ومع فشل القوى المحلية في كل من العراق وسوريا في مواجهة التنظيم والحد من نفوذه، فالجيش العراقي - الذي استغرق الأمر كيون عشر سنوات في بنائه وتجهيزه وتدريبه ليكون قوة يعتمد عليها- انهار امام التنظيم في غضون أربع ساعات في الموصل وكل شمال غرب العراق حتى وصل على أبواب اربيل، وانهار معه مبدأ أوباما القائل بالاعتماد على وكلاء محليين بديلاً عن التورط المباشر، واضطرت الولايات المتحدة إلى العودة للتدخل العسكري المباشر في منطقة الشرق الأوسط بعد أن نأت بنفسها عن التورط المباشر في أزمامته منذ سحب قواتها من العراق أواخر عام ٢٠١١. وفضّلت أن تعود لتقود تحالفاً دولياً وعربياً لمواجهة تمدد التنظيم واحتواء قوته المتنامية.

اتخذت الولايات المتحدة قرار التدخل العسكري في آب/٢٠١٤ داعية إلى تشكيل تحالف دولي جديد لمواجهة داعش. واغتنتم فرنسا الفرصة واستضافت باريس مؤتمراً حضره وزراء من (٢٠) دولة ووافقت عشر دول عربية على الالتحاق بالمبادرة، وقال الرئيس الفرنسي هولاند: «إن التهديد عالمياً...والرد يجب أن يكون عالمياً أيضاً»، وتشكل التحالف من (٤٠) دولة بقيادة أمريكا^{١٨}. وغابت موسكو عن الاجتماع، وقد نشر موقع «روسيا اليوم» تصريحاً لوزير الخارجية الروسي دعا فيها لضرورة احترام القانون الدولي وسيادة الدول في التعامل الغربي مع الملفات الدولية^{١٩}. فبعد أن كانت داعش بنظر الرئيس الأمريكي عبارة عن فريق كرة سلة من الهواة، وجد نفسه مضطراً إلى تحديد إستراتيجية لمواجهة، وأعلن يوم ١٠/٩/٢٠١٤ في خطاب موجه للشعب الأمريكي خطته الإستراتيجية للحرب المكونة من أربع نقاط: تتمحور حول القيام بضربات جوية منظمة ومتواصلة ضد داعش في العراق وسورية، وزيادة المساعدات الأميركية العسكرية لتلك القوات التي تقاتل على الأرض، وارسال ١٦٠٠ عسكري ليقوموا بالعراق بدور استشاري لوجستي تدريبي أي غير قتالي، واستمرار التعاون مع الحلفاء في سياسة «مكافحة الإرهاب وقطع تمويله وإضعاف قدراته على التجنيد وتقديم المساعدات الإنسانية لضحايا» المنظمات الإرهابية^{٢٠}. فيلاحظ الرغبة القوية لدى أمريكا بعدم الانجرار نحو حرب برية والاعتماد على الضربات الجوية وفسح المجال للقوى المحلية للتقدم على الأرض مع التأكيد على أن الحرب هي حرب على الإرهاب.

وعقد في مدينة جدة بالسعودية في ١١/أيلول/٢٠١٤ مؤتمراً في محاولة جادة للتعامل مع المعطيات الجديدة حضره عشر دول عربية وتركيا مع حضور وزير الخارجية الأمريكي وكان من جملة ما اتفق عليه: تعزيز الدعم للحكومة العراقية في محاربة تنظيم «داعش»، ومنع تدفق

المقاتلين الأجانب من دول الجوار، وكذلك وقف تدفق الأموال على "داعش" والتنظيمات المتطرفة الأخرى، ونص البيان على الآتي: «وحين يكون الأمر ملائماً للمشاركة في أوجه العمل العسكري المنسق ضد تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق)، نؤكد المشاركة على أن دول المنطقة تؤدي دورياً محورياً في هذه الجهود.» ويجدر الإشارة هنا أن تركيا رفضت التوقيع على البيان الختامي بحجة وجود عدد (٤٦) رهينة بالقنصلية التركية بالموصل لدى «داعش»^{٢١}.

وبدأت قوات التحالف أولى ضرباتها الجوية ضد داعش في تشرين أول /٢٠١٤ أدت إلى تراجع داعش عن التمدد تجاه اربيل. ثم توسع التحالف ليشمل ٦٠ دولة عازمة على محاربة داعش ووقف تمدده والقضاء عليه. وقد اجتمع شركاء التحالف الدولي لمحاربة داعش في ٤/كانون أول/٢٠١٤ على المستوى الوزاري في بروكسل وأصدروا بياناً مشتركاً في أول اجتماع لهم لم يخرج عن نطاق اجتماع جدة، مع الإشارة أن العمل سيكون طويل الأمد، حيث ورد في البيان^{٢٢}: «أعاد شركاء التحالف التأكيد على التزامهم بالعمل معاً في إطار إستراتيجية مشتركة ومتعددة الأوجه وطويلة الأمد للحط من قدرات تنظيم داعش وإلحاق الهزيمة به».

وفي ٣٠/أيلول/٢٠١٥ دخلت روسيا المنطقة بقوتها العسكرية الجوية معلنة وقوفها إلى جانب النظام السوري في مواجهة قوى الإرهاب المتمثلة في داعش وغيرها من المنظمات «الإرهابية»، وبدأت القوات الروسية الجوية تدك مواقع المنظمات «الإرهابية» على الأرض ليستغلها النظام وشركاؤه في استعادة بعض المناطق السورية، وكان للضربات الجوية الروسية أثراً في تغيير مسار الحرب في سوريا على مستوى التشكيلات المقاتلة كافة باستثناء داعش. هذا التغيير في مسار الأحداث بسوريا ونتاج الضربات الروسية تقدم جيش النظام وشركاؤه إلى المناطق التي سيطرت عليها التنظيمات المدعومة من تركيا والسعودية ودول الخليج الأمر الذي دفع السعودية وتركيا إلى إعادة حساباتهما والتهديد بالدخول البري إلى سوريا، ولذلك قامت السعودية بالدعوة إلى تشكيل تحالف عربي إسلامي لمواجهة الإرهاب، وبدأ في السعودية بمشاركة (٢٠) دولة عربية وإسلامية الحشد لمناورات عسكرية انطلقت في نهاية شباط/٢٠١٦ تحمل اسم «رعد الشمال» استجابة لتسارع الأحداث على الأرض في سوريا، لا سيما منذ تكثيف الغارات الجوية الروسية مؤخراً على المناطق التي تسيطر عليها المعارضة المسلحة المعتدلة في شمال سوريا وإعلان الهدنة بذات الفترة من طرفي أمريكا وروسيا وحلفاؤها في سوريا استثنيت منها داعش والنصرة. فهل يمكن أن تتحول هذه المناورات العسكرية من حشد إلى هجوم؟. أما تركيا ولمواجهة الخطر الكردي المتمثل في مليشيات حماية الشعب الكردية التي تهدد حدودها وعمقها الاستراتيجي، بدأت بالتدخل

على أطراف الحدود السورية المتاخمة لها لمنع تمدد القوات الكردية التي استغلت الضربات الجوية الروسية بالتوسع وبسط نفوذها على بعض المناطق. وقد شكل التدخل الروسي في سوريا معضلة أساسية لقوى التحالف التي تقودها أمريكا ولتركيا، حيث أصبحا على تماس مباشر مع الروس مما هدد امن المنطقة ككل وبرزت بوادر احتكاك ما بين تلك القوى تمثلت بإسقاط تركيا لطائرة حربية روسية بدعوى اختراقها المجال الجوي التركي مما كان له الأثر بتوتر العلاقات الروسية التركية.

ومن الجهود التي تبذلها أمريكا وحلفاؤها في محاربة داعش فرض العقوبات على قادتها، فقد نشرت صحيفة «رأي اليوم» الالكترونية بتاريخ ٢٠١٦/٢/٢٢ قيام الإدارة الأميركية منتصف شهر شباط ٢٠١٦ فرض عقوبات على ثلاثة قادة من تنظيم داعش، وقالت إن لهم الدور الأكبر في الحفاظ على استمرارية التنظيم عبر إدارة عائدات النفط وتجنيد وتدريب المقاتلين الأجانب.

ويبقى الشعار الذي رفعه التنظيم «باقية وتمدد» حقيقة لا جدال فيها، فالبقاء متواصل مع تواصل السيطرة على مدينتي الرقة والموصل في كل من سوريا والعراق، في حين خضع «التمدد» لمبدأ الكرّ والفرّ، فعلى الرغم من الضربات الجوية الموجهة من قوى التحالف الدولي ضد داعش والتصريحات الصحفية الصادرة من قادة التحالف بتراجع التنظيم حيث نشرت صحيفة «رأي اليوم» الالكترونية بتاريخ ٢٠١٦/٢/٢٢ خيرا لقائد الحملة الجوية الفرنسية الأدميرال «رينيه كرينولا»، «أن التنظيم أصبح في موقع الدفاع، وليس بمقدوره تحقيق النصر في المعارك أو كسب أراض جديدة نتيجة قصف التحالف». ونشرت بتاريخ ٢٠١٦/٢/٢٤ خيرا للكولونيل «ستيف وارن» المتحدث الرسمي باسم التحالف الدولي «إن العراق لم يعد آمنا بالنسبة لمقاتلي التنظيم وأن بعض قادته يهاجرون إلى ليبيا بهدف تجنيد مقاتلين جدد»، وأوضح «أن التقنيات العسكرية التي يعتمدها التحالف الدولي لمحاربة التنظيم الإرهابي "في غاية الدقة"، بل إنها «أكثر الحملات العسكرية دقة في تاريخ الحروب»، مشيرا إلى أن غارات التحالف الجوية تقتل في المتوسط قائدا بارزا في التنظيم الإرهابي كل يومين منذ شهر أيار الماضي»^{٢٣}. إلا أن الوقائع على الأرض تبدو باتجاه معاكس لتلك التصريحات فما زال التنظيم يتحرك على الأرض، وذكرت ذات الصحيفة بتاريخ ٢٠١٦/٢/٢٤ عن سيطرة داعش ومقاتلون من فصائل جهادية على بلدة إستراتيجية في شمال سوريا»، وفي يوم ٢٠١٦/٢/٢٧ سيطر داعش على أجزاء من بلدة سلوك ومدينة تل أبيض بريف الرقة الشمالي شرقي سوريا. وهذا يدل على أن الغارات الجوية عامل معيق على تقدم التنظيم وليس مانعا لتقدمه فالتجارب التي راكمها مقاتلي التنظيم من خلال مشاركتهم في حروب عديدة بأفغانستان والشيشان والعراق وغيرها بالإضافة إلى عنصر رجال الجيش العراقي السابق، أكسبتهم خبرة في التعامل مع تلك الضربات وتفادي الكثير من نتائجها.

معضلات التحالف الدولي والإقليمي

إن حجم التناقضات بين أطراف التحالف الدولي ضدّ التنظيم، ومدى تقاطع المصالح بين بعض أعضائه وخصومه ساهمت في رسم أدوار اللاعبين الإقليميين وتحديدتها في الصراع، وبيّنت جهود إنشاء التحالف أنّ قيادة أمريكا لم تعد بالسهولة التي كانت عليها سابقاً؛ ويستدلّ على ذلك من المساومات التي جرت بين واشنطن وشركائها الرئيسيين في المنطقة؛ أي السعودية ومصر وتركيا، في الوقت الذي تقاربت فيه واشنطن مع طهران في العراق. ويبيّن (أبو هنية، وأبو رمان، ٢٠١٥) في دراستهما أهمّ المعضلات التي تواجه التحالف ٢٤:

أولاً: إدراك الإدارة الأمريكية بأنّ القضاء على التنظيم أو إضعافه دون درجة الأهداف لتصل إلى النظام السوري لن يحل المشكلة ولن يقلب موقف المجتمع السني ليكون مشاركا فاعلاً في القضاء عليه، وهذا ما تؤكد عليه تركيا كشرط للمشاركة في مواجهة التنظيم وتأييدها فرنسا. في المقابل فإن إعلان أمريكا بان الحرب تستهدف الأسد سيجرها إلى صراع مزدوج مع النفوذ الإيراني والتنظيم في الوقت نفسه وانقلاب الحكومة العراقية عليها.

ثانياً: تعمل أمريكا على محاربة التنظيم وإضعافه، في الوقت نفسه تدعم الحكومة العراقية التي تدعم الميليشيات الطائفية وتحالف مع نظام الأسد وحزب الله في سورية في مواجهة داعش، فإن هذا التعاون المباشر أو غير المباشر في تحقيق أهداف مشتركة بين أمريكا وهذه الفصائل لن يطمئن المجتمع السني.

ثالثاً: إن تأخر الحل السياسي وتباطؤ الحل لم يقنع المجتمع السني، فالضربات التي توجه للتنظيم تصب في خدمة نظامي سوريا والعراق، وفي حال نجاحهما في القضاء عليه ما هو الضامن للسنة بالانقلابا عليه كما حدث بتجربة الصحوات ٢٠٠٧ والتي يجري استنساخها باسم «الحرس الوطني»، على الرغم من عدم قبول المجتمع السني للأجندة الدينية والسياسية للتنظيم الذي استطاع بناء موازين القوى في سوريا والعراق.

رابعاً: على الرغم من وجود عشرات الدول في التحالف التي تشن ضربات جوية ضدّ التنظيم إلا أن هناك شكوك في صلابته التحالف وتباين في رؤية هذه الدول لمصالحها، فتركيا لم تقبل بالتدخل البري لإنقاذ مدينة كوبياني الكردية، ولم تسمح خلال الفترة الأولى من الحرب باستخدام قواعدها لربطها أمر داعش بالتخلص من نظام الأسد، والدول العربية على رأسها السعودية تشعر بقلق من النفوذ الإيراني في كل من العراق وسوريا، وتتشدّد بموقفها تجاه نظام الأسد أيضاً، وترى أن التنظيم وطهران يشكلان مصدر تهديد حقيقي لها مما يخلق شقوفاً

بالتحالف في حال استمرار الحرب لفترة طويلة، وهو ما تصرح به الإدارة الأمريكية حول طول امد الحرب.

خامساً: بالرغم من أهمية الضربات الجوية على المدى البعيد إلا أنها لن تكون حاسمة من دون القوات البرية في القضاء على التنظيم، فالتحالف يعقد الآمال على تدريب السنة في سوريا والعراق تحت مسمى «الحرس الوطني» والذي يحتاج لسنوات لتطويره وإعداده.

سيناريوهات مستقبل داعش

كما بينا سابقا فقد تمدد التنظيم ليشمل مساحات شاسعة في كل من العراق وسوريا، وتحول من تنظيم مسلح إلى تنظيم عسكري عالي الكفاءة وتحول إلى سلطة وكيان تدير مناطق تسيطر عليها بهدف بناء دولة، وتمثل صعوده بوصفه فاعلاً إقليمياً عابراً للمجتمعات والدول لعدة عوامل تتمثل في: النزعة الطائفية في العراق وسوريا وتمدد النفوذ الإيراني والفراغ السني والصراعات الداخلية على أسس مذهبية وطائفية وعرقية في كلا البلدين، وسياسات الأنظمة القمعية والاستبدادية والاقتضائية وقمع الاحتجاجات السلمية التي انطلقت في ما أطلق عليه ثورات الربيع العربي، والتدخلات الخارجية في المنطقة العربية وتحديد العراق وخلق دولة فاشلة تعمها الفوضى نتاج الاحتلال الأمريكي لها. ويمثل التنظيم حالة من حالات التنظيمات المنبثقة من أساس ديني طائفي والتي أصبح لها دوراً فاعلاً في ظل فشل الدولة، كالجماعات الشيعية بالعراق وحزب الله في لبنان والحوثيين باليمن وجماعة أهل السنة للدعوة والجهاد «بوكو حرام» سابقاً في نيجيريا، وحركة الشباب المجاهدين في الصومال، وأنصار بيت المقدس في جزيرة سيناء، والحركة الإسلامية في أوزبكستان وغيرها. في المقابل ساهم تمدد التنظيم وإعلان الخلافة في اندفاع الحركات الجهادية السننية بمبايعته وإعلان الولاء له كالجماعات السننية التي ذكرت أعلاه، وقيام بعض الجماعات بإعلان التأييد دون المبايعة كحركة طالبان في أفغانستان.

فالتنظيم ليس امراً طارئاً وهزيمته تتجاوز البعد العسكري والأمني فلا بد من مواجهة الظروف الموضوعية السياسية والطائفية التي تقف وراء هذه التنظيمات. وفي ظل المعطيات التي تم المرور عليها خلال هذه الدراسة سيتم رسم السيناريوهات المحتملة لمستقبل تنظيم داعش.

السيناريو الأول:

بقاء تنظيم داعش وتقليم أظافره، هذا إذا استمرت الأوضاع على الأرض بذات النسق الساري حالياً باعتماد التحالف على الضربات الجوية فقط فاحتمالات هذا السيناريو عديدة، منها كما يشير (عبد العالي، ٢٠١٥، ص ٨٨) الآتي:

احتمال استمرار التنظيم في كل من العراق وسوريا بالاعتماد على عقد التحالفات مع الفصائل والتنظيمات الأخرى «كجبهة النصرة»، إلا أن الضربات الجوية من التحالف قد تحد من توسعه في المناطق التي تشكل خطراً على ميزان القوى في العراق وسوريا.

إضعاف التنظيم تدريجياً وتقليص نفوذه وسيطرته وتقليم أظافره بالاعتماد على الضربات الجوية من التحالف.

ويضيف (الحامد، ٢٠١٦، ص ٧) الاحتمالات التالية:

انسحاب التنظيم من المناطق والمدن التي لا تشكل خسارتها تهديداً لوجوده، كما سيستمر في إستراتيجية تجنب الدخول في معارك عسكرية كبرى مرهنا على عنصر الوقت، وسيظل خوض أي معركة متوقفاً على إستراتيجية التنظيم ومدى أهمية المدينة بالنسبة له، بما يوازي استعداده للتضحية بمقاتليه من أجلها.

حسب ماضي التنظيم فإن انحساره في المدن خلال سنوات سابقة وأثناء معاركه أمام الصحوات العراقية لجأ إلى معسكرات صحراوية متناثرة على مساحات شاسعة لتقسم منهم، فيما يذوب القسم الآخر بين السكان المحليين على شكل خلايا نائمة تلعب دوراً محورياً في تمكين التنظيم من السيطرة على المدن عند اقتحامها.

وكذلك يشير (ابو هنية، وأبو رمان، ٢٠١٥، ص ٢٢٩) بذات الشأن الآتي:

محافظة التنظيم على صلابته تماسكه والتزام أعضائه مع القيادة، إلا أن التمدد والتوسع الكبير الذي شهدته التنظيم قد يكون له نتائج سلبية معاكسة على الحالة الداخلية فانضمام أعداد كبيرة له يخلق حالة من التفاوت بين الأعضاء ويؤدي إلى مساحات هشة واسعة، وان تعرض لهزائم وخسائر عسكرية وتراجع في نفوذه فاحتمال فقدانه لإعداد كبيرة من الأعضاء والعشائر الذين بايعوا لأسباب واقعية لا إيديولوجية سيكون مؤثراً، وهو ما حصل مع الصحوات في تجربة ٢٠٠٧ إذا أدى إلى تراجع وانكماشه، وانسحاب جزء كبير من أعضائه.

نقطة ضعف التنظيم علاقته بالمحيط السني فإذا انقلب عليه لأسباب سياسية أو عدم قبول أيديولوجيته فان شرط الصمود سيتحول إلى سبب للتراجع والانكماش.

ويضيف (عطوان، ٢٠١٥، ص ٢١٩-٢٢٦) الآتي:

وجود هيكل تنظيمي قوي وحاضنة سنوية واكتفاء ذاتي مالياً، ولتشكيله نموذج في جذب الشباب الإسلامي المحبط والذي وجد فيه النموذج لإحياء أمجاد الأمة الإسلامية وفتوحاتها وحروبها ضد «الكفار والصلبيين»، ولهذا سيستمر تدفق الشباب إلى أراضيه والانخراط في صفوفه، مما يسهم في بقاء التنظيم.

إنهاك التنظيم بالساحة السورية من خلال إعداد صحوات جديدة على الطريقة العراقية ممثلة «بالمعارضة العلمانية والجيش الحر والقوات الكردية» مدعومة بالطيران الأمريكي الروسي وقوى التحالف الأخرى.

تفتت العراق وسوريا على أساس طائفي سيخدم التنظيم من خلال صعوده القومي وسيطرته على مساحات شاسعة، حيث هناك تجارب حديثة لتقسيم الدول بدءاً بالهند مروراً بيوغسلافيا وانتهاءً بالسودان.

ويتطابق هذا الاحتمال مع الطرح الروسي حيث نقلت وسائل الاعلام تصريحاً لنائب وزير الخارجية الروسي «سيرغي ريبكوف» يوم ٢٩/٢/٢٠١٦ قال فيه «نأمل ان يتوصل المشاركون في المفاوضات السورية الى فكرة انشاء جمهورية فيدرالية» وقد وجاء هذا التصريح بعد ايام معدودة من ما ورد في شهادة جون كيري وزير الخارجية الامريكى امام الكونغرس التي قال فيها ربما فات الوقت لابقاء سورية موحدة، ويتساقط ايضا مع اعلان عدة فصائل كردية في سوريا يوم ١٧/٣/٢٠١٦ حسب وسائل الاعلام المختلفة، انشاء «نظام فيدرالي» على ثلاث مناطق تسيطر عليها في شمال سورية.

وفي دراسة (المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤) يرى احتمال بقاء داعش بسبب:

موقف النظام السوري من داعش: فعزز حضور داعش وسلوكه من خدمة رواية النظام، التي تقوم على مواجهة تنظيمات جهادية متطرفة، وبالتالي تجنب النظام في دخول مواجهة تضعف داعش، ومن مصلحة النظام استمرار داعش وعدم انهياره أمام اجتماع فصائل المعارضة السورية على التخلّص منه ومن ممارساته.

ويضاف اليه أيضا حالة عدم الانسجام بين أعضاء التحالف الذي شكل لمقاتلة داعش وتضارب المصالح واختلاف الأولويات في معالجة حالة الصراع في سوريا والعراق بينهم، وهذا بدوره يصب في مصلحة داعش على البقاء. وبالتالي فان هذا السيناريو هو المرجح في ظل الأحوال السائدة حاليا.

السيناريو الثاني: تمدد وتوسع نفوذ التنظيم خارج العراق وسوريا

هذا السيناريو يتفق مع دراسة (الحامد، ٢٠١٦، ص٦)، فخسارة التنظيم لبعض المناطق التي يسيطر عليها في كل من العراق وسوريا بسبب الضربات الجوية للتحالف الدولي متبوعة بعمل عسكري عراقي سوري على الأرض لا يقود إلى نهاية التنظيم، فمع انشغال التحالف بضره في العراق وسوريا نجح التنظيم في التمدد في ليبيا القريبة من أوروبا، وهذا ما يحصل حاليا حيث أن التنظيم عزز من تواجد في ليبيا وتمدده فيها يشكل معضلة للجماعات المتناحرة هناك ولدول الجوار، وقد أوضح هذا المعنى مبعوث الرئيس الأميركي إلى التحالف الدولي لمكافحة المتطرفين بريت ماكغورك، حسب ما نشرت «جريدة الحياة الإلكترونية» في ٢٠١٦/٢/١٠ حيث قال: إن «فرع التنظيم في ليبيا هو أكبر سبب للقلق بين الفروع الأخرى، نظراً لهجماته في ليبيا والخطر الذي يشكله على شركاء الولايات المتحدة، مثل تونس ومصر»، وأضاف ماكغورك أن «الولايات المتحدة وحلفاءها يحرزون تقدماً ضد التنظيم، لكنهم يواجهون تحديات كبيرة»، مضيفاً «التقدم الذي نحققه لن يكون سلساً دائماً، وينبغي أن نتوقع انتكاسات ومفاجآت». وفي ذات السياق يشير (عطوان، ٢٠١٥، ص٢٢٠) الى الربح المتوقع من اتفاق داعش وحركة طالبان الأفغانية، والذي بدوره سيشكل انقلاباً في منطقة الشرق الأوسط واسيا. ويعمل التنظيم على التمدد في تونس ايضا فقد شن التنظيم هجوماً على مدينة «بن قردان» التونسية التي تقع في أقصى الجنوب الشرقي من تونس على خطّ التماس مباشرةً مع ليبيا، بتاريخ ٢٠١٦/٣/٧ انطلاقاً من ليبيا في محاولة للسيطرة عليها واعلان امارة اسلامية تابعة له، وفق ما نشر موقع العربية نت وقد أطلق التنظيم ما أسماه «غزوة بن قردان» وكانت نتيجة الهجوم فاشلة عسكرياً ولم تحقق اهدافها، وقد توعد التنظيم تونس بالمزيد. وقد تكون هذه العملية جس نبض للقوة العسكرية للجيش التونسي حيث ان الاعداد التي ساهمت في الهجوم ليست بالكبيرة على الرغم من التجهيز اللوجستي السابق للعملية الذي تم اكتشافه بعد انتهاء العملية.

وهذا السيناريو بإمكانه ضعيفة في ظل الوضع الحالي مع مراعاة الظروف في الدول التي سيتمدد فيه.

السيناريو الثالث: القضاء على تنظيم داعش

فالقضاء على التنظيم وتصفية قياداته وتفكيك بنيته العسكرية والسيطرة على مناطق نفوذه يتطلب تدخل القوات البرية للتحالف وعدم الاكتفاء بقوات برية محلية ممثلة بالحرس الوطني العراقي والصحوات السورية والقوات الكردية، إلا أن التدخل البري لقوات التحالف يتطلب تسوية عدة ملفات خلافية بين الحلفاء كما يرى (عبد العالي، ٢٠١٥، ص ٨٩) من قبيل معالجة الملف الإيراني في المنطقة العربية، وحل مشكلة الاحتقان الطائفي، وازدياد مشاركة السنة في الحياة السياسية وكافة مفاصل الدولة في العراق، وحل المعضلة السورية، ومن ثم خوض حرب برية من قوى التحالف بمشاركة إيران وتركيا والسعودية بدلاً من الاقتصار على الهجمات الجوية. وحسب (ابو هنية، وأبو رمان، ٢٠١٥، ص ٢٢٩) فإن القضاء على التنظيم عسكرياً سيخلق حالة من عدم الاستقرار الاقليمي، ولن ينقذ الدولة القطرية.

وهذا السيناريو في فترة الإدارة الأمريكية الحالية ضئيل، كونها تعمل وفق مبدأ الحرب بالوكالة من خلال تدريب قوى محلية كالصحوات سابقاً والحرس الوطني حالياً، وهي بذلك تستفيد من تجاربها السابقة في حربي أفغانستان والعراق فلا تحتل واشنطن مشهد النقوش المرسله لها بالطائرات يومياً. ولكن مع مغادرة الإدارة الحالية وقدم رئيس ادارة أمريكية جديدة بعد الانتخابات المزمع عقدها نهاية العام الجاري قد تتغير السياسة الخارجية الأمريكية وتدفع باتجاه التدخل البري، فحسب دراسة (أبو رشيد، ٢٠١٤، ص ١٦) قد تضطر الإدارة الأمريكية الجديدة للدخول بحرب برية فرئيس مجلس النواب الجمهوري «جون بينر» يُصر على أنه «لا بد من قوات أمريكية على الأرض لمحاربة داعش، إذ يقول إن الأمر حتمي ولا خيار لنا غيره، وإن الضربات الجوية وتدريب الجيش العراقي والمعارضة السورية «المعتدلة» وتسليحها على النحو غير المطلوب»، ويرى وزير الدفاع الأمريكي السابق «روبرت غيتس» «ان تكرار رفض اوباما مرارا وتكرار إرسال قوات برية يحشر نفسه في الزاوية».

ويبقى التدخل البري محاطا بعدد من المخاطر ومتوقف على التوافق بين الحلفاء فاذا أقدمت أمريكا على الدخول بحرب برية دون حل للملفات الشائكة بين الحلفاء سيترتب عليه ردة فعل من دول الجوار والجماعات الشيعية التي هددت بمقاومته مع الأخذ بعين الاعتبار الموقف الروسي حالياً الراض للتدخل البري وبالتالي ستجر المنطقة إلى المجهول، وبالتالي فإنه بعيد المنال حالياً.

خاتمة

نشأت داعش في ظل الاحتلال الأمريكي للعراق وبثها بذور النزعات الطائفية والعرقية، وتدميرها الممنهج للدولة العراقية التي باتت دولة فاشلة، وتمدد التنظيم في العراق مستفيداً من حالة الفوضى، وعلى الرغم من النجاح المؤقت في دحره في عام ٢٠٠٧. بمساندة الصحوات التي أنشأتها القوات الأمريكية، إلا أنه سرعان ما عاد اشد واقوي مما سبق نتاج حالة فساد حكومة المالكي وسياستها الطائفية البحتة وتمدد النفوذ الإيراني في العراق. ومع انطلاق ثورات «الربيع العربي» وما نتج عنها من تمزيق للنسيج الاجتماعي والسياسي في دوله وتحديداً في سوريا استطاع التنظيم أن يتمدد في كل من العراق وسوريا ويعلن دولة الخلافة، وفي ظل سيطرته الفعلية عسكرياً وإدارياً على مساحة تمتد من الرقة إلى الموصل، تفوق مساحة المملكة المتحدة، وبمقدرات اقتصادية تفوق مقدرات عدة دول عربية مجتمعة، حيث تميز التنظيم بالاكتمال الذاتي مالياً نتاج سيطرته أساساً على حقول النفط بالإضافة لمصادر مالية أخرى، وأصبح من غير المجرد وصفه بالحركة أو التنظيم فقط، الأمر الذي أدى لتشكيل تحالف دولي بقيادة أمريكا ضده وشنه ضربات جوية بمشاركة روسيا في سوريا استهدفت مواقع في كل من سوريا والعراق. وعلى الرغم من الضربات الجوية المستمرة منذ نهاية ٢٠١٤ لغاية الآن، ما زال التنظيم يحتفظ بقوته على الأرض الأمر الذي سيبقيه لسنوات قادمة، ما دامت ضربات التحالف معتمدة على الضربات الجوية دون استخدام الهجوم البري وحل الأسس الموضوعية التي ساهمت في وجوده والمتمثلة في الطائفية وتهميش السنة وإقصائهم من مفاصل إدارة الدولة في كل من العراق وسوريا، وعدم حل الأزمة السورية.

قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم، فؤاد: داعش من النجدي الى البغدادي، «نوستاليجا الخلافة». ط ١. بيروت. مركز اوال للدراسات والتوثيق. ٢٠١٥. نسخة الكترونية.
- أبو هنية، حسن، أبو رمان، محمد: «تنظيم الدولة الإسلامية، الصراع على الجهادية العالمية». ط ١. عمان. فريدرش ايرت. ٢٠١٥. نسخة الكترونية.
- عطوان، عبد الباري: الدولة الإسلامية، الجذور، التوحش، المستقبل. ط ١. بيروت. دار الساقى. ٢٠١٥. نسخة الكترونية.
- عبد العالي، عبد القادر: «تنظيم الدولة الإسلامية: عوامل الصعود والانحسار» مجلة شؤون الأوسط. مج. ٢٥، ع. ١٥١ (آذار / حزيران ٢٠١٥)، ص. ٧٨-٩٤. نسخة الكترونية.
- القيّم، كامل: حرب الرموز وتسويق مثيرات العنف والإرهاب. مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية. مج. ٥، ع. ٢. (٢٠١٥). نسخة الكترونية.
- تنظيم «الدولة الإسلامية»: النشأة، التأثير، المستقبل. مركز الجزيرة للدراسات، تشرين الثاني ٢٠١٤. نسخة الكترونية.
- أبو رشيد، أسامة: هل تتساق الولايات المتحدة الأمريكية إلى حرب برية جديدة في الشرق الأوسط. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. أكتوبر ٢٠١٤. نسخة الكترونية.
- الحامد، رائد: معركة الرمادي: مكاسب وتكتيكات تنظيم الدولة. مركز الجزيرة للدراسات. شباط ٢٠١٦. نسخة الكترونية.
- ليستر، تشارلز: تحديد معالم الدولة الإسلامية. مركز بروكنجز الدوحة، (كتبت النسخة الأصلية باللغة الإنجليزية وترجمها المركز). ديسمبر ٢٠١٤. نسخة الكترونية.
- المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، وحدة تحليل السياسات: انطلاق المواجهة مع «داعش» على أبواب جنيف. يناير ٢٠١٤. نسخة الكترونية.

المواقع الالكترونية:

<https://arabic.rt.com/news>

<http://www.islamist-movements.com>

<http://iipdigital.usembassy.gov>

<http://www.raialyoum.com>

www.alarabiya.net/ar

الهوامش:

١. عطوان، عبد الباري: مصدر سبق ذكره، ص ٥٧ - ٥٨.
٢. ليستر، تشارلز: تحديد معالم الدولة الإسلامية. مركز بروكنجز الدوحة، (كُتبت النسخة الاصلية باللغة الانجليزية وترجمها المركز). ديسمبر ٢٠١٤. ص ٦. نسخة الكترونية.
٣. عطوان، عبد الباري: المصدر السابق. ص ٧٤ - ٨٠.
٤. تنظيم «الدولة الإسلامية»: النشأة، التأثير، المستقبل، مركز الجزيرة للدراسات، تشرين الثاني ٢٠١٤، ص ٣٤+٣٥، نسخة لكترونية.
٥. إبراهيم، فؤاد: داعش من النجدي الى البغدادي، «نوستاليجا الخلافة»، ط ١. بيروت. مركز اوال للدراسات والتوثيق. ٢٠١٥. ص ٦٠٦. نسخة الكترونية.
٦. أبو هنية، حسن، أبو رمان، محمد. مصدر سبق ذكره، ص ١١٢.
٧. أبو هنية، حسن، أبو رمان، محمد. مصدر سبق ذكره، ص ١١٣-١١٦.
٨. ليستر، تشارلز: مصدر سبق ذكره. ص ٩.
٩. إبراهيم، فؤاد: مصدر سبق ذكره. ص ١٢٣.
١٠. ليستر، تشارلز: مصدر سبق ذكره. ص ١٠.
١١. أبو هنية، حسن، أبو رمان، محمد. مصدر سبق ذكره، ص ١٢٠-١٣٥.
١٢. تنظيم «الدولة الإسلامية»: النشأة، التأثير، المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥.
١٣. ليستر، تشارلز: مصدر سبق ذكره. ص ١٦.
١٤. تنظيم «الدولة الإسلامية»: النشأة، التأثير، المستقبل، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥-٤١.
١٥. أبو هنية، حسن، أبو رمان، محمد. مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.
١٦. القيم، كامل: حرب الرموز وتسويق مثيرات العنف والإرهاب، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية. مج. ٥، ع. ٢. (٢٠١٥). ص ٢٦٥-٢٧٣. نسخة الكترونية.
١٧. ليستر، تشارلز: مصدر سبق ذكره، ص ٥.
١٨. عطوان، عبد الباري. مصدر سبق ذكره. ص ٣٠.
١٩. <https://arabic.rt.com/news>
٢٠. ابو رشيد، أسامة: هل تتساق الولايات المتحدة الامريكية الى حرب برية جديدة في الشرق الاوسط. المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات. اكتوبر ٢٠١٤. ص ٦-٧. نسخة الكترونية.
٢١. <http://www.islamist-movements.com>
٢٢. <http://iipdigital.usembassy.gov>
٢٣. <http://www.raialyoum.com>
٢٤. ابو هنية، حسن، ابو رمان، محمد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦-٢٢٨.
٢٥. الحامد، رائد: معركة الرمادي: مكاسب وتكتيكات تنظيم الدولة. مركز الجزيرة للدراسات. شباط ٢٠١٦. ص ٧. نسخة الكترونية.
٢٦. المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، وحدة تحليل السياسات: انطلاق المواجهة مع «داعش» على أبواب جنيف. يناير ٢٠١٤. نسخة الكترونية.

ثقافة الكراهية والتحريض الاب الشرعي لرفض الآخر وتصفيته - اغتيال ناهض حتر نموذجاً

زياد عثمان *

أثارت جريمة اغتيال الكاتب والمثقف الاردني ناهض حتر في الخامس والعشرين من شهر ايلول الماضي على يد أحد المتطرفين الاسلاميين جدلاً واسعاً واستولدت ردود فعل كثيرة خصوصاً في الوسطين الاعلامي والثقافي، والذي تم اغتياله اثناء تواجده أمام قصر العدل بالعاصمة عمان لكي يمثل امام المحكمة للنظر في الاتهام الذي قدمته النيابة ضده بالاساءة الى الرموز الدينية والذات الالهية.

ومأساة ناهض حتر أنه دفع الثمن مرتين لعمل هو لم يقم به بل لاجتهاد أو خطأ ربما ارتكبه دون تخطيط أو تفكير مسبق، المرة الأولى عندما وجهت له المحكمة التهمة التي اعتقل بسببها وخرج بكفالة، والمرة الثانية عندما لقي مصيره المشؤوم بالاغتيال على يد متطرف اسلامي. والقضية التي أودت بحياته هي ببساطة قيامه باعادة نشر كاريكاتير على صفحته في الفيس بوك تضمن عبارات اعتبرها البعض مسا بالذات الالهية، ورغم توضيحاته أنه وضع الرسم المذكور على صفحته تشهيرا بالمتطرفين والدواعش وليس للمس بالذات الالهية، ومن ثم قيامه لاحقا بشطب الرسم عن صفحته في محاولة لاغلاق الملف بطريقة هادئة وسلمية وبعيدا عن التحريض والتهجمات التي كتبها المعارضون للرسم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، الا ان ذلك لم يشفع له لا أمام المحكمة ولا أمام الجهات المتطرفة ولقي مصيره بالاغتيال.

وبغض النظر عن الملابس المحيطة بالموضوع قيد النقاش ومن كان معارضا لاعادة نشره الكاريكاتير ومن كان مؤيداً، فان فكرة اغتيال الكاتب حتر على خلفية ابداء الرأي سواء من خلال الرسم أو الكتابة هو ما اشعل الاضواء الحمر في الاوساط الثقافية والاعلامية ومنظمات المجتمع المدني ودق ناقوس الخطر لدى الرأي العام الاردني والعربي عموماً، لان عملية الاغتيال مجرد الاختلاف بالرأي تؤثر لحقيقة ما وصلت اليه حالة التطرف في المجتمعات العربية نتيجة الحقن و التحريض وبالتالي فان جريمة الاغتيال أشارت للخطر الداهم المستحکم في المجتمع الاردني وعموم المجتمعات العربية والمتمثل في انتشار ثقافة الاقصاء والتخوين والتكفير والفكر الظلامي الذي لا يعترف بالآخر المختلف ولا يقر بوجوده، ولديه الاستعداد والرغبة أن يذهب الى ابعد من التنكر نحو تصفية من يخالفه الرأي تصفية جسدية دون أن يرمش له جفن او ترتجف له يد.

الأمر الثاني الذي أثار قلق الاوساط المدنية والراي العام يتمثل في أن جريمة الاغتيال من جهة مثلت انتهاكا صارخا وفاضحا لحق مكفول في القوانين المحلية والدولية ومبادئ حقوق الانسان؛ الا وهو حق حرية الراي والتعبير، وهو من الحقوق الاساسية التي لا يجوز لأي جهة كانت مصادرتها او تقييدها، ومن جهة ثانية فان الجريمة اشترت الى خطورة التحريض الذي بات متاحا أمام من هب ودب من خلال وسائل التواصل الاجتماعي التي باتت منصات ومنابر لاطلاق الفتاوي التي تتيح القتل وما دونه بزعم الدفاع عن الدين من «عدو» مجهول الهوية وتحت ذرائع نظرية المؤامرة على الاسلام التي يسوقها دعاة التطرف والتكفير من التيارات الاسلامية السلفية والاصولية، وللتدليل على أثر وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها الخطير جدا على السلم الاهلي وثقافة الحوار والتسامح فقد أحصى موقع اليكسا عام ٢٠٠٦ وجود ما يزيد عن ٤١٨٠٠ موقع إلكتروني متطرف تنشر فكر تعصبي. ورأى الخبراء ان هذه المواقع تسهم في تكوين هويات جماعية ترى في العنف وسيلتها في حل الخلافات الداخلية والخارجية. عدد كبير من تلك المواقع يعتمد التكفير سلاحا في مواجهة خصومه في الفكر، أو جوابا على الخلاف في الراي. التكفير يعني إلغاء الآخر وإقصائه معنويا وماديا. وثقافة التكفير أدت الى منع التفكير كما يقول الشاعر والمفكر أدونيس. تلك الثقافة التي تقوم على التعصب والكرهية ورفض الآخر المختلف. وبالتالي فان عملية الاغتيال هي محصلة طبيعية للتحريض الاسود المتدثر بعباءة الدين، ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن من قام بعملية إطلاق النار على الكاتب الاردني ناهض حتر لا تربطه به سابق معرفه ولم يقرأ له أي من كتاباته أو انتاجه الادبي، لا بل إنه لا يعرف معالم شكله وسمع ما قيل عنه من قبل متطرفين آخرين من خلال مواقع التواصل الاجتماعي كما نقلت مصادر اعلامية اردنية عنه من أقوال أدلى بها خلال التحقيق معه بعد ارتكابه جريمة القتل!!

صحيح أن ما حصل في الاردن من اغتيال لكاتب على خلفية ابداء الراي والمعتقد ليس جديدا كفعل اجرامي على المستوى العربي، فالتاريخ العربي الحديث شهد مع نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الراهن الكثير من الاحداث المشابهة التي طالت مفكرين وكتاب وادباء وسياسيين عرب منهم الكاتب فرج فودة، والاعلامي سمير قصير، والمفكر حسين مروة، والمفكر مهدي عامل، والاديب والمفكر غسان كنفاني، ورسام الكاركاتير ناجي العلي وغيرهم الكثير اضافة الى محاولات اغتيال وتكفير طالت عميد الادب العربي طه حسين والكاتب والاديب المصري نجيب محفوظ، والسوري حيدر حيدر عن روايته «وليمة اعشاب البحر»، والدكتورة نوال السعداوي بسبب مواقفها المدافعة عن المرأة، ونصر حامد ابو زيد وتفريقه عن زوجته لتشريحه الخطاب الديني، وغيرهم الكثير ممن واجهوا ولا زالوا يواجهون التهديدات بالقتل والاغتيال بسبب ابدائهم لآراء قد تتعارض مع منظور المتطرفين الاسلاميين او قراءاتهم الموثورة للدين.

في كل الاحوال وبعيدا عن ردود الفعل الانفعالية التي صدرت بعيد الجريمة سواء المنددة او الرافضة او المستنكرة، الا ان المغزى الحقيقي للجريمة هو التداعيات اللاحقة التي يجب البناء عليها حيث انها اعادت إثارة النقاش مجددا في اوساط الراي العام ولا سيما» تجمعات الانتلجنسيا» العربية التي انتابها القلق لما حصل، خصوصا أنه لا يوجد ادنى ضمانه من تكرارها وسقوط ضحايا جدد، بسبب طبيعة الثقافة التي بدت تظهر على سطح الحياة السياسية والمجتمعية في البلدان العربية بعد ما أطلق عليه «الربيع العربي» والثورات العربية، حيث دخلت تلك المجتمعات في نزاعات داخلية ولدت انقسامات خطيرة وانهار السلم الاهلي وصولا الى انهيار كيانات الدولة القطرية القائمة كما في اليمن وليبيا والعراق وسوريا، ونشوء كيانات وهيكل جديدة طائفية ومذهبية بمسميات غريبة وطائرة(دولة الخلافة الاسلامية في العراق وبلاد الشام) والتي تختصر «بداعش»، وأبرز سماتها التطرف والقتل دون تمييز وأخذ النساء سبايا وبيعهن في أسواق النخاسة. لقد مثلت تلك المتغيرات وما رافقها من مظاهر عنف وانتهاك للأعراف والمبادئ الانسانية ارتدادا خطيرا للوراء أعاد المجتمعات العربية الى ظلامية القرون الوسطى وأدخلت الشعوب العربية في تناقضات وصراعات داخلية لم تكن بالحسبان ولم تكن ضمن اجنداتها او اولوياتها.

من الناحية المنهجية البحتة فان مناقشة موضوع انتشار ثقافة التكفير والتخوين كتجل وتجسيد لثقافة الكراهية التي تنتجها قوى متعددة الاطياف من المتطرفين من مثلي واتباع القوى الاسلامية السلفية، وقوى الاسلام السياسي، والقوى القومية الشوفينية على حد سواء، وهي ثقافة تخاطب الجانب الغرائزي والانتماءات الأولية في الإنسان، كالعنصرية والطائفية والمذهبية والقومية الضيقة، ومثل هذه الثقافة البغيضة يقتضي اخذها على محمل الجد ووضعها على طاولة النقاش سواء على المستوى القطري او الاقليمي العربي لتحليلها وتشريحها بشكل معمق، بحيث تغطي تلك النقاشات والحوارات كافة الجوانب، وتحيط بهذه الظاهرة الخطيرة من مختلف الابعاد، وتاليا تتوافق على صياغة استراتيجية مواجهة ديمقراطية طويلة الأمد تعمل بالتكريم على تكريس ثقافة حوار وتسامح، وهذا الأمر يعد من المسائل التي تكنسي طابع التعجل وعدم التأخير، وخصوصا ان هناك ما يشبه الاجماع في اوساط مختلف القوى المدنية التي تنشده التنوير والتسامح على خطورة ظاهرة التطرف والغلو وما تحمله من ويلات في حال تركها تفعل فعلها التدميري دون فعل فعال ومدروس في مواجهتها وليس مجرد ردود أفعال انفعالية أو ارتجالية، وللوصول الى هذا الوضع المأمول واعادة اليقين والثقة بالمستقبل للناس فانه لا بد من البدء بحوار وطني ونقاش من نوع آخر ما بين مكونات تلك المجتمعات وما بينها وبين البنى الرسمية أيضا التي ليست بعيدة عن التسبب في انتاج تلك الحالة بسبب الاستبداد السياسي وبسبب تبني منظور للدين والثقافة يكرس التعصب والتطيف، وبالتالي فان تلك الانظمة بشكل او باخر تتحمل قسطا من المسؤولية في أنها هيئت مسرح الاحداث لوجود داعش وأخواتها في المشهد الثقافي والمجتمعي.

مسؤولية المثقف طرح المزيد من الاسئلة ؟

باعترادي ان وظيفة الاستكشاف في موضوع التطرف وانتاج ثقافة الكراهية من خلال المقالات والتقارير والتحقيقات الصحفية وغيرها من الادوات المعرفية، له وظيفة تنويرية وهو مساهمة في النقاش من زاوية توفير المعلومة بشفافية، ومن زاوية طرح الاسئلة الصعبة والمعقدة التي غالبا ما يتم تجنبها في المنابر الرسمية لأن الاجابة على تلك الاسئلة أو البحث في سياقها الموضوعي والذاتي سيقود الى ادانة الانظمة ومؤسساتها المعرفية والترويجية وتحميلها مسؤولية ما آلت اليه الامور. وحتى لا نقع في دائرة المغالاة اقول ان تلك الاستكشافات على أهميتها لا تعدو كونها أكثر من مجرد مناقشة أولية ضرورية لاثارة اهتمام الرأي العام وتنوير الجمهور العادي من الناس في موضوع ثقافة الكراهية وتداعياتها الخطيرة على الابداع والتفكير وحق الاختلاف، لكن تلك المناقشات الاولوية على أهميتها ليست بديلاً للحوار المعمق الذي يجب أن يتبعها ويتناغم معها، بل هي محفز ومساند، حيث تبدو الحاجة الى نقاش من نوع آخر ما بين النخب الاجتماعية والثقافية والسياسية المعنية بالتغيير الديمقراطي والمناهضة لثقافة الكراهية حاجة ماسة وضرورية، من أجل الاجابة على تحديات الواقع بما يحمله من أسئلة وبما يفرضه من وقائع باتت تفرض نفسها على مختلف الصعد والجوانب. وبالخلاصة نحن بحاجة الى نقاش يفتح كوة في جدار الدواخل العربية المغلقة باحكام وبقرار من الحكام والطبقات السياسية المهيمنة على الحكم والتي غالبا ما وصلت الى سدة الحكم بطرق غير ديمقراطية، لاجراج الرياح الفاسدة واستبدالها برياح نقية نظيفة، وهو أمر سيقى محفوفاً بالفشل اذا ما تم تغييب الارادة السياسية والاصرار على المعالجات بالطرق القديمة التي ثبت أنها عقيمة وأنها تقاوم من الأزمات التي تعاني منها المجتمعات العربية، لأن التهميش والقمع والاستبداد وغياب المحاسبة والشفافية تشكل مادة زخمة لأنصار ثقافة الكراهية والتطرف الاصولي.

وبالعودة الى السؤال الأساس الذي يشكل مفتاحاً لمناقشة راهنية المجتمعات العربية ارتباطاً بثقافة الكراهية وموضوع الاغتتيال على خلفية ابداء الراي المختلف هو: هل باتت عملية التحريض على القتل وصولاً الى ممارسة القتل نفسه مجرد حالات فردية تتكرر بين الفينة والاخرى في بلد عربي هنا وبلد عربي هناك أم أنها باتت أبعد وأكثر فتكاً وخطراً؟

اعتقد من المشروع أن يتم طرح هكذا سؤال ولا سيما أن الحالة التي تعيشها المنطقة العربية اليوم باتت من السوء والضعف وافتقاد الوزن والحضور بسبب النزاعات الدموية التي يغذيها التطرف، إلى حد يدعو الى الرثاء، حيث الازمة العامة فرخت سلسلة أزمات في مختلف المناحي، وأصبحت التناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية والاثنية والطائفية تتناهشها

من كل صوب وحذب. وبدون شك ان تلك الصراعات والتناقضات التي تفجرت دون وجهة محددة كما هو باين -على الاقل ضمن المنظور المباشر ومعطيات الواقع الراهن- تسير باتجاه العتب لتصب في حالة الضياع والتطرف والغلو وليس الى التغيير الذي يفضي الى المزيد من المنعة الداخلية والقوة وتوفير مقومات النهوض والتقدم، وعليه فان الحالة العربية ومن خلال المعينات والقراءات الاولية التي تاخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي والحالة الراهنة فيبدو للأسف أنها ذاهبة باتجاه التمادي في العنف والتطرف وانتاج لثقافة الكراهية بما يحمله هذا التمادي من تهديد بالقتل والتصفيات وتنفيذ لاغتيالات في غير مكان وزمان.

يعتبر اصحاب المنهج التبريري ومن باب الهروب من مواجهة الحقائق الصادمة انفجار الازمات بشكل متلاحق في الوضع العربي، وتحويلها الى احداث دامية تنتج تطرفا وقتلا وتدميرا مجرد ردود افعال غير واعية ومسيرة من الخارج، ومثل هذه المواقف والتحليلات تنسم غالبا بالتبريرية والازاحة وتحميل الظروف الخارجية او التدخلات الخارجية المسؤولية الاكبر، وواصحاب هذا المنهج وبمجرد تمسكهم بهذه الروايات فانهم يضللون الناس والراي العام ويحرفون الانظار عن الاسباب الحقيقية التي انتجت هكذا حالة من مآسي وويلات طالت الشعوب وفاقمت من الجوع والفقر والتشرد وتههد كيانات تلك الشعوب. بطبيعة الحال لا يمكن عزل التدخلات الخارجية او اعفاءها من المسؤولية في الخراب الحاصل والتطرف الذي يلف عموم المنطقة ولكن ليس الى الحد الذي يلغي محورية العامل الداخلي ودوره الحاسم في توليد الازمات، لانها تجد فيها الحاضنة والبيئة الخصبة التي تترعرع ف سياقها وتحت مظلتها تلك الظواهر الخطيرة.

ولا أعتقد هنا أننا بصدد المحاججة بالرأي ولكن ومن باب تفتيح الافاق وتوسيع دائرة النقاش فان أي متابع للوضع العربي ودون عناء كبير سيساند الرأي القائل أن المسببات الداخلية هي الأساس فيما وصل إليه الوضع العربي، ولا سيما العقلية السائدة في أنظمة الحكم حيث الاستبداد السياسي وكم الافواه ورفض التنوع والتعددية السياسية والثقافية، ومصادرة الحريات العامة، واغلاق الافاق أمام تلك المجتمعات للخروج من عنق زجاجة الفقر والتخلف والتبعية، والاصرار على هيمنة تلك الانظمة على مقدرات شعوبها عنوة، وتغييب مفاعيل المجتمع لصالح نظام الحكم المنفصل واقعيا عن مصالح الناس بسبب الطينة السميكة التي باتت تفصل بينه وبين المواطنين .

ويعيد الكثير من المثقفين العرب ما حصل ويحصل في الوضعية العربية من انتشار لثقافة الكراهية بأنه تراكم لحصيلة عقدين او اكثر من زمن التحولات التي تملك بمسلمات متعددة على الساحتين الدولية والاقليمية، ولكنها خلال العقدين الاخيرين أخذت تعبر عن

نفسها بشكل منهجي واضح، سواء في الخطاب الاعلامي أو السياسي أو الثقافي الذي تنتجه تلك الجماعات المتطرفة المنتشرة في مختلف الأرجاء العربية، كما باتت تتميز أيضا في السلوك الدموي الخارج عن المألوف من خلال التفجيرات الجماعية التي تنتج القتل العشوائي وتجد من يبررها بفتاوى دينية، وبغض النظر عن التباين في أسباب انتشار وتكريس هذه الثقافة الخطيرة في مضامينها ومراميتها وأهدافها، فهي توليفة أنتجت بفعل عوامل داخلية وخارجية متظافرة حكمتها مصالح تلك الاطراف واعتبارات الضيقة .

من هنا يصبح من المجدي أن لا تستمر القوى والاطر الحداثية والتنويرية في قتل الوقت بالتشخيص والتحليل، لان هذه المرحلة اخذت ما يكفيها من استحقاق زمني، وهو ما يفترض الانتقال باطر الحوار الى ما يجب عمله بالتناظر ما بين الاقليمي والقومي في آن، لأن المعركة المفروضة على المستوى العربي لم تعد تقتصر على دولة دون أخرى أو مجتمع دون آخر، عدا عن رياح التطرف الاسلامي بكل مسمياته السياسية بات اليوم يشكل تحديا جديا في عموم المجتمع العربي وتأثيراته طالت بعض الاطراف الداعمة له.

مطلوب اطلاق حركة تنوير عربية

قد يبدو سؤال ما العمل في ظل تعقد الحالة العربية سؤالا منطقيا جدا ومفصليا لأنه يبحث في حركة المستقبل العربي الذي يبدو في ضوء قراءة الراهن أنه لا زال في نطاق المجهول، وهو ما يعني ان هناك ضرورة موضوعية لاطلاق حركة حداثية تقدمية تعمل على تنوير الراي العام واحداث اختراق في بنية النخب المؤثرة من خلال أطر وأدوات عمل ديمقراطية بمقدورها حمل رسالة التنوير والحداثة كبديل لثقافة الكراهية والتطرف والغلو.

واعتقد جازما أنه قد آن الاوان أن تنتقل قوى ومنظمات المجتمع المدني من عملية التوصيف والتفسير الى التغيير، لانه بات مجمعا ما بين تلك المكونات على أسباب الازمة العامة في الوضع العربي، والمطلوب الانتقال الى الخطوة الثانية وهي البحث في سبل التغيير الممكنة، ولان سيما أن التغيير سيفرض فرضا ان لم تكن تلك القوى مستعدة ومهيئة برناجيا وعمليا للتعامل معه. وطالما نتحدث عن حراك مدني ديمقراطي فان تغيير الواقع العربي وتغيير البنى الثقافية الهدامة يجب أن يتم بطريقة حضارية ديمقراطية سلمية تلتمز بالمعايير الاخلاقية وتنحاز لقيم العدالة ونظام القانون والحريات العامة والتنوير والتسامح وحق المعرفة وامتلاك المعلومة ورفض العنف بكل اشكاله ومسمياته.

بضع كلمات عن الحالة الفلسطينية وثقافة الكراهية

إن الحالة الفلسطينية ليست بعيدة عن محيطها الاقليمي والحوار العربي، ويتشابك المجتمع الفلسطيني مع المجتمعات العربية في الكثير من العناصر المشتركة، لكن ما يزيد من تعقيدات الوضع الفلسطيني عن دول الحوار العربي وجود الاحتلال الاسرائيلي. بما يمثله من عنف سياسي وثقافي وقومي واعتداء صارخ على حق تقرير المصير كحق اصيل من حقوق الانسان ومبادئ القانون الدولي والامم المتحدة. ولا يوجد اثنان من الشعب الفلسطيني يختلفان ان الاحتلال الاسرائيلي كان ولا زال له مصلحة احتلالية استعمارية في تسعير التناقضات في اوساط المجتمع الفلسطيني وايجاد حالة استنزاف داخلية تقوم مقام الاحتلال وتحرف الشعب الفلسطيني عن هدفه الرئيسي المتمثل في الخلاص من الاحتلال العنصري الاحلالي الذي يعمل جاهدا من أجل شرعنة احتلاله وتغيير معالم التاريخ والجغرافيا والسكان وكل ما يستطيع تغييره لخدمة هذا الهدف.

وما زاد الطين بلة على المستوى الفلسطيني هو الانقسام السياسي والجغرافي الذي حصل في العام ٢٠٠٧ وانفصل بموجبه قطاع غزة عن الضفة الفلسطينية، اثر الانقلاب العسكري الذي نفذته حركة حماس في قطاع غزة، وبقناعتني ان ما هو اسوأ من الانقسام هو ما انتجه وما خلفه هذا الانقسام وما رافقه من تداعيات خطيرة على الثقافة السياسية الفلسطينية حيث باتت مصطلحات التخوين والتكفير والاقصاء والدعوات العلنية الى القتل على خلفية الاختلاف الفكري والسياسي مسالة متداولة في وسائل الاعلام الحزبية ولا سيما اعلام حزبي السلطة في كل من الضفة وغزة .

وما يثير القلق في اوساط الراي العام الفلسطيني ان الانقسام السياسي والجغرافي ما بين شطري الوطن لا زال قائما الى يومنا هذا ويتعزز مع مرور الوقت وليس العكس، رغم كل ما يقال ويشاع عن جلسات حوار تزيد من حالة الالتباس الفلسطيني تعقيدا وابهاما، خصوصا ان مناخات التحريض المتبادل الذي تنتجه كل سلطة ضمن دائرة هيمنتها ونفوذها، وهو ما ينذر في حال استطالة الانقسام الى انتاج ثقافة كراهية عميقة الجذور في المجتمع الفلسطيني تؤيد حالة الانقسام وتحويلها من مجرد حالة عارضة -او هكذا يفترض- الى حالة دائمة.

ورغم المكابرة من قبل بعض السياسيين في التقليل من نتائج حالة الانقسام الفلسطيني على الصورة الذهنية للشعب الفلسطيني التي بدت ترسم أمام العالم كنفية للصورة المشرقة البراقة، فان النتائج الأخطر هي النتائج غير المنظورة لهذا الانقسام والمتمثلة في ثقافة الكراهية وشيطة الاخر كمقدمة لتصفيته واخراجه من المشهد السياسي والثقافي العام، الأمر الذي

يتطلب اهتماما متزايدا من قبل منظمات المجتمع المدني والقوى المجتمعية للعمل على انتاج خطة انقاذ وطني هدفها وضع الامور في نصابها الصحيح ومناهضة الانحرافات الثقافية التي تتعارض مع مبادئ التسامح وحق الاختلاف.

إن التركيز على الجانب الثقافي بنظري ليس دون دلالة، بل له دلالة كبرى تتمثل في ان انهيار الامم والشعوب يبدأ بالانهيار الثقافي، وصمودها واعادة انتاجها بصور أكثر رقيا أيضا يتوقف على الجبهة الثقافية. وقطعا ثقافة الكراهية ليست عنصر بناء بل كانت وستبقى على الدوام عنصر هدم، سواء على المستوى الفلسطيني أو العربي بشكل عام أو على مستوى البشرية ككل، وبالتالي يمكن الاستنتاج أن هناك مصلحة لدى كل الخيرين في العالم - من الناحية النظرية - للاثتلاف من أجل مناهضة ثقافة العنف وما تنتجه من ارهاب وقتل ودمار، لانه لا يستطيع كائنا من كان الادعاء اليوم أنه محصن من تأثيرات التطرف ولا سيما أن العالم بات أشبه بقرية كونية بفعل وسائل التواصل الاجتماعي والتقنيات الحديثة في المرئي والالكتروني وبالتالي انتقال ثقافة التطرف والكراهية بات ممكنا وأسرع مما يمكن تقديره او تخيله، وما حصل في فرنسا وبلجيكا وتركيا والمانيا وغيرها من تفجيرات ارهابية على يد متطرفين لخير دليل على صحة ما افترضناه .

الجماعات الجهادية في فلسطين

إسلام موسى*

مقدمة: -

تُعتبر الجماعة المسلحة الجهادية حديثة العهد في فلسطين، ولم تظهر إلا منذ عدة سنوات تقريباً، وترتكز بالكامل في قطاع غزة، أما في الضفة الغربية فيبدو أننا أمام مجموعات شبابية محدودة العدد ومحلية النشاط تفتقر إلى التجربة، لكن جمعها الافتتان بالفكر السلفي الجهادي، وما أن حاولت اختبار قدراتها على الأرض، نُجحت في توسيع نشاطها "الجهادي الفردي" وتشكيل بعض الخلايا التي ما لبثت أن وقعت في قبضة الاحتلال مثل خلية الخليل بتاريخ ٢٦ نوفمبر ٢٠١٣ وقتل ثلاثة من أعضائها^١ والتي تبناها تنظيم مجلس شورى المجاهدين الذي له نشاط في غزة وسيناء^٢.

في غزة تعددت الجماعات المسلحة وارتبط ظهورها بتبني مسؤوليها عن اعتداءات على أملاك المواطنين أو عمليات مسلحة ضد العدو الصهيوني وتكثرت بأسماء مختلفة لكنها لم تصل إلى مرحلة متقدمة من التأثير على الشارع الفلسطيني أو تعريض ممتلكات العامة للخطر بشكل كبير إلا من بعض الحوادث التي لا تزيد عن عشرات وكلها حوادث في الممتلكات العامة للمدنيين وبعض ممتلكات لقياديين سياسيين وأمنيين وبعضها على إثر خلافات سياسية وأمنية مع السلطة الحاكمة في غزة، لكن كل الحوادث لم تسجل أي إصابات أو قتل لأفراد فلسطينيين. وقد اختفت بعض المسميات لهذه الجماعات عن المسرح، وبعضها استمرت في تأكيد حضوره مثل: جيش الإسلام، وجيش الأمة، وجماعة التوحيد والجهاد، وأنصار الله، ولواء التوحيد، وجماعة جلجلت، وسرية عمر حديد، أنصار الشريعة، وحركة الصابرين ويعتبرها البعض قريبة للفكر الشيعي وليست سنية كباقي الجماعات.

إضافة إلى بعض التنظيمات التي اختفت مسمياتها عن الساحة ولم تستمر طويلاً ولكن بعضها ترك أثراً بسيطاً ومن هذه الجماعات: تنظيم جند الله، الجبهة الإسلامية لتحرير فلسطين، أبناء أهل السنة والجماعة، جحافل التوحيد والجهاد، جيش القدس الإسلامي، قاعدة جهاد ولاية فلسطين الإسلامية، عصبة الأنصار^٣، سيوف الحق، جماعة فتح الاسلام في أرض الرباط (فلسطين).

وعن أعداد هذه الجماعات فهي لا تتجاوز البضع مئات، إلا جماعة جلجلت والتي تبلغ ثلاثة آلاف عنصر كحد أقصى.^٤

وأما عن فكر هذه الجماعات فهي تتبنى الفكر السلفي الجهادي، وبعضها بايع تنظيم الدولة الإسلامية مثل أنصار الشريعة.^٥ وجيش الإسلام.^٦

وعلى الرغم من أن الجماعات المسلحة في غزة أكدت حضورها بعد أن تجرأت وغادرت مربع الفكر إلى أرض الفعل وخصوصاً من خلال إطلاق صواريخ على إسرائيل أحياناً تخرق فيها التهذئة بين حماس وإسرائيل، إلا إنها مازالت ظاهرة غير واضحة المعالم للفلسطينيين وفعاليتها بسيطة حتى تصل إلى مرحلة التأثير بشكل ملموس لتظفر بحاضنة شعبية مؤثرة حيث أظهرت نتائج أحدث استطلاع للرأي العام الفلسطيني نفذه المعهد العالم العربي للبحوث والتنمية أورد، أن غالبية فلسطينية ساحقة قدرها ٩٣٪ تعتقد بأن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام المعروف بـ «داعش» لا يمثل الإسلام الحقيقي، ويرى ٩٢٪ بأن ممارسات داعش التي يشاهدونها عبر وسائل الإعلام غير مبررة ولا تؤسس لدولة إسلامية حقيقية.^٧

ويمكن القول أن هذه النسبة انعكست بهذه السلبية على الجماعات المسلحة لأن الفلسطينيين اختبروا العمل المسلح والتنظيمات والجماعات المسلحة ولم تعد بالأمر الجديد حيث يتساءل الفلسطينيون ما الذي يمكن أن تفعله الجماعات المسلحة في فلسطين ضد إسرائيل ولم تفعله الأجنحة العسكرية المختلفة على امتداد عقود؟ وكيف لها أن تتواجد في منطقة تشهد زحاما في البنادق قاربت على الفتك بنفسها في غزة؟

أما في الضفة يمكن أن نلمس خيرة الناس واعتقادهم بأن حملة اعتقال إسرائيلية عشوائية واحدة قد تكسر كل مخططات الجماعات المسلحة، فلماذا تغامر؟ بتواجد غير مأمون؟ فإذا كان للجماعات المسلحة أن تعمل على تأمين حاضنة شعبية لها يجب عليها أن تلجأ إلى ما هو غير مألوف أو متوقع بحيث يؤدي تدخلها إلى حدوث فارق مميز في المواجهة مع إسرائيل. هكذا يمكن أن يتقبلها المجتمع الفلسطيني المتعطش للخلاص بنفس القدر الذي يتعطش فيه للثأر وحتى تنظيماته المسلحة قد ترغم على تقبلها دون حساسية كبيرة مثلما أرغمت المنظمات الفدائية من قبل على تقبل حركة حماس والجهاد الإسلامي ولجان المقاومة الشعبية.^٨

خطر الجماعات على الفلسطينيين

لا تؤمن الجماعات المسلحة في المشاريع القومية والوطنية ففكرها عابر للحدود والجهاد عندها هو السبيل لإعلاء كلمة الله وتغيير أنظمة الحكم «الكافرة» غير الشرعية، وتحرير البلاد المحتلة وتطبيق الشريعة، وتعتنق «الصيغة الأكثر جذرية لتسييس الدين، فتتعامل به كأيديولوجية صدامية لا تقف عند هدف استعادة النظام السياسي الإسلامي في فضاءه التاريخي المعروف، وإنما تتجاوزه إلى الجهاد ضد ما تُسمّيه بالطاغوت والجاهلية في كل مكان من الكرة الأرضية، والعمل على إقامة دولة خلافة عالمية، أي حكم الإسلام للعالم كافة.»

كما تبتنى صيغة جذرية لتقسيم البشرية على أساس ديني، مسلمين وكفاراً، إلا إنها توسّع معنى الكفر فتخرج جزءاً كبيراً من المسلمين من حظيرته، ويبدو البحث عن الدائرة الإسلامية الأوسع في الفكر السلفي الجهادي عملاً لا طائل منه، لأنها تضيق "لتنحصر في أهل السنة والجماعة، وهذه الدائرة تضيق بدورها لتنحصر في الجماعة السلفية، كما تضيق هذه الأخيرة فيستثنى منها السلفيون الموالون للنظام الوهابي السعودي بحيث لا يبقى من الأمة أو الجماعة المسلمة سوى دعاة للسلفية الجهادية وأنصارها، فهم الوحيدون الذين ينطقون بالحق ويجسدون الشرعية."^٩

ويتضح من تلك الأفكار والأيدولوجيا أن الجماعات ضد أي مشروع، وبالتالي المشروع الوطني الفلسطيني يندرج تحت هذه المشاريع وهو ما أكده بيان «لمجلس شورى المجاهدين» الصادر على إثر عملية اغتيال ثلاثة من عناصره في الخليل على يد العدو الصهيوني في نوفمبر/ ٢٠١٣ وحمل البيان عنوان، "جهاد طواغيت السلطة المجرمين، مشروع؛ لأنهم توافقوا مع كفار الأرض من اليهود والنصارى وغيرهم لمحاربة الجهاد وتسليم المجاهدين للأعداء، ولكن خابوا وخسروا فقد امتد منهج السلفية إلى الضفة الغربية"، وأضاف البيان "نبش الأمة أنه بفضل الله تعالى أصبح لمنهج الجهاد العالمي في الضفة الغربية موطن قدم بعد أن سعى الجميع لإفشال كل بذرة تزرع هناك". وتابع البيان "إننا أمام الحرب المفتوحة على المسلمين في الضفة الغربية حيث القتل والأمر بمصادرة الأرض وهدم البيوت وتدنيس المقدسات وغير ذلك لندعو كل مخلص إلى نبذ ما تسمى بالمفاوضات التي تفوح منها رائحة العمالة"^{١٠}.

وبالتالي يمكن لإسرائيل أن تستغل هذه الدعوات والتمدد للسلفية الجهادية في الضفة الغربية للتوصل من أي عملية سلام وتجهض أي مشروع تسوية قادم وتسوف القضية الفلسطينية، وقد بدأت الصحافة الإسرائيلية بعد عملية الخليل بحملة إعلامية كبيرة تحاول ربط الخطر في الضفة الغربية بالخطر الإقليمي التي تصاعد بفعل الجماعات المسلحة

المنتشرة في الإقليم خصوصاً سوريا وسيناء، إذ تحدث الإعلام الإسرائيلي على إنه لأول مرة منذ الصراع التاريخي الفلسطيني الإسرائيلي، وبعد مرور أقل من أربع وعشرين ساعة على تصفية جيش الاحتلال الإسرائيلي لثلاثة شبان فلسطينيين يتبعون للجماعات السلفية الجهادية. وإن هذه الجماعات موجودة في عمق أراضي الضفة الغربية. وسوف تزداد ووفقاً لما جاء في تقرير مفصل عن عمل الجماعات الجهادية السلفية على موقع «واللا العبري»، فإن مشاركة تلك الجماعات والدخول في دائرة العمل العسكري مع الفصائل الفلسطينية المقاومة وعلى رأسها حركتي حماس والجهاد الإسلامي ما هي إلا مسألة وقت نظراً للأحداث الجارية في منطقة الشرق الأوسط خاصة في مصر وسوريا والعراق. وتعزز إسرائيل استثمارها لواقع الجماعات في الضفة والداخل المحتل ببراهينها الخاصة، إذ ادعت النيابة الإسرائيلية في أكتوبر/ ٢٠١٦ في لائحة الاتهام ضد ثلاثة شبان وهم (أمين جبارة، ومحمد ناشف، وإبراهيم يوسف) من مدينة الطيبة في منطقة المثلث، بولائهم لتنظيم الدولة الإسلامية في مايو/ ٢٠١٦، والتخطيط لحفر نفق تحت الجدار الأمني، بهدف تهريب وسائل قتالية، لعمليات جهادية.^{١١}

ويشير موقع «واللا» إلى وجود آلاف المؤيدين للفكر السلفي في مناطق الضفة الغربية، لكنهم لا يدعون إلى أي نوع من العمليات ضد «إسرائيل»، على الرغم من وجود عوامل يمكن أن تحرك ساكناً بهذا الشأن. ويدعي الموقع بأن عناصر التيار السلفي الجهادي هم من يشكلون الرعب في صفوف جهاز الشاباك، حيث نجحوا في الآونة الأخيرة بجذب المزيد من عناصر الدعوة السلفية المدنية إليهم، وسط دعوات بمحاربة «إسرائيل» عسكرياً، لافتاً إلى أنهم يقومون بإجراءات مشابهة كالتالي يقوم بها عناصر جلجلت وجماعات أخرى في قطاع غزة التي تطلق صواريخ على إسرائيل، على حد قوله. ولفت الموقع إلى أن ليس لتلك الجماعات قائد معروف أو حتى مسؤولين من أصحاب متخذي القرارات في الضفة الغربية، مدعياً أن حزب التحرير في الضفة هو أحد المجموعات الكبيرة المؤيدة للجماعات السلفية والذين خرجوا أكثر من مرة في مظاهرات منددة بالمداهمات الإسرائيلية وسياسات السلطة الفلسطينية تجاه قضيتهم، مشيرة إلى أن هذا التنظيم «حزب التحرير» يحظى بتأييد كبير في الضفة نظراً لتراجع شعبية حركة فتح المتمثلة في السلطة الفلسطينية بسبب ما تقوم به من مفاوضات يرفضها معظم الشعب الفلسطيني، وكذلك تراجع شعبية حركة حماس نظراً للملاحقة الأمنية ضد عناصرها المتواصلة من قبل الاحتلال والسلطة على حد سواء.^{١٢}

ويقول المحلل العسكري عاموس هرتيل «إن ارتباط زيادة شعبية السلفيين في الضفة، على ما يبدو، مرتبط بخيبة الأمل من إدارة السلطة الفلسطينية وكذلك بالمصاعب التي تواجهها حماس، من الملاحقة من قبل السلطة الفلسطينية وإسرائيل، في تقديم بديل هام ومستقر».

وأضاف هرتيل: «يمكن الافتراض أن زيادة نشاط الفصائل ذات التوجه الفكري الشبيه، في سيناء وخاصة في الحرب الأهلية الوحشية في سوريا، تعزز دعمهم في الضفة».^{١٣}

لكن إسرائيل تفضل دائماً نماذج جديدة لا تتمتع بالمصادقية والقبول الدولي حتى لا تخرجها أمام الرأي العام الدولي فهي دائماً تسعى وتروج رواية عدم وجود شريك فلسطيني. ويمكن أن تجد في الجماعات المسلحة ضالتها. وخصوصاً وأنها قادرة دائماً على التعامل مع أي أخطار محيطة وخصوصاً جماعات مسلحة إسلامية فني إحدى مقابلات «راديو دوتش فيلة» الألماني مع مراسل إذاعة إسرائيل قال: «إنه لا يوجد قلق إسرائيلي من وجود الجهاديين عند الحدود الإسرائيلية، لأن إسرائيل لديها القدرة على التعايش مع التنظيمات الجهادية فسبق لها أن تعايشت مع حماس وأن إسرائيل تخشى قوة الجيش المصري، أي الجيوش النظامية أكثر ما تخشى الجهاديين».^{١٤}

ربما هذا الرد يفسر الترحيب الإسرائيلي دائماً والجهوزية الإسرائيلية للتعامل مع سيناريوهات لتحلل الإقليم وازدياد وتساعد الجماعات المسلحة فيه، ويمكن أن تبلور خطط لما بعد السلطة وترسيخ فكرة عدم وجود شريك فلسطيني حقيقي، حيث غرّة بها حركة حماس إضافة إلى عدد كبير من التنظيمات والجماعات السلفية المحظورة دولياً، والصفة الغربية تتمدد فيها جماعات سلفية جهادية تولد خطراً على إسرائيل وهي أيضاً محظورة دولياً. وهذا يُريح إسرائيل من الضغط الدولي للتوصل إلى تسوية مع الفلسطينيين بحجة وجود الإرهاب والذي على العالم مساعدتها في مواجهته، ويوفر عليها إمكانية التنازل عن الأراضي.

كما اتضح ذلك من خلال بعض التقارير التي تفيد أن مراكز التقدير الاستراتيجي في إسرائيل تستعد لليوم الذي يلي نظام الأسد بإعداد بنك أهداف وخطط تحرص من خلالها على الترويج لفكرة تقسيم سوريا، على اعتبار أن مثل هذه الصيغة تفيد إسرائيل والغرب من خلال القضاء على ما كان يوصف إسرائيلياً بالتهديد السوري ممثلاً بالجيش العربي السوري، وعدم وجود جهة ذات سيادة كاملة تطالب بهزيمة الجولان مما يعزز السيطرة الإسرائيلية على هضبة الجولان المحتلة، وتعزيز قدرات الردع الإسرائيلية كنتاج مباشر عن الخلل في ميزان معسكر قوى المقاومة.^{١٥}

لذلك تعمل إسرائيل بقوة من أجل ربط الجماعات المسلحة في سيناء وسوريا بجماعات مسلحة في غزة والضفة الغربية وأن أفكار هذه الجماعات ستنتقل بقوة إلى غزة والضفة، حيث أظهرته تقارير إسرائيلية بأنها تقدر عدد المتطوعين المنحدرين من قطاع غزة بنحو ٣٠ متطوعاً، غالبيتهم العظمى من عناصر تنظيمات جهادية سلفية في القطاع، بعضهم عناصر في

حماس انسحبوا منها وليس لهم انتماء تنظيمي وقد قتل ما لا يقل عن ثمانية.^{١٦} وفلسطينيون معدودون من الضفة الغربية، وبضع عشرات من الفلسطينيين من سكان مخيمات اللاجئين في لبنان (وأبرزها مخيم عين الحلوة المجاور لمدينة صيدا) وفلسطينيون من سكان سوريا والأردن^{١٧} فالظاهرة تنطوي على أخطار محتملة بالنسبة لإسرائيل، لكون معظم المتطوعين متوقع التحاقهم وهم في سوريا بتنظيمات محسوبة على القاعدة والجهاد العالمي واكتساب الخبرة العسكرية والخضوع لعملية تعميق رؤيتهم الجهادية وتوقع أن يقوموا وهم في سوريا بربط صلات مع عناصر في غزة والضفة الذين يحتمل لجوئهم إلى محاولة تكليفهم بتنفيذ مهام بعد أن يكونوا قد عادوا إلى دولهم الأم.

مستقبل الجماعات المسلحة في فلسطين

تعتبر ظاهرة توجه العرب الإسرائيليين والفلسطينيين من قطاع غزة والضفة الغربية إلى سوريا ظاهرة ضيقة النطاق إذا قورنت بدول أخرى، ونعتقد بأن ذلك يعود أولاً وقبل كل شيء إلى المعوقات الأمنية واللوجستية المرتبطة بمغادرتهم. ومع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من سيولة الحالة السياسية في المنطقة العربية منذ سنة ٢٠١١ وما توفره من أجواء داعمة لتمدد الجماعات المسلحة في فلسطين، فإن العامل الأهم في تحديد مستقبلها يكمن في موقف حركة «حماس» وخياراتها تجاه القطاع، فضلاً عن التطورات السياسية المحتملة، وخصوصاً فيما يتعلق بالاحتلال والجانب المصري.^{١٨}

أما في الضفة الغربية فانتشار الجماعات المسلحة مرهون بقوة الأجهزة الأمنية، إضافة إلى نوايا إسرائيل الحقيقية في استكمال مشروع السلام وإيجاد شريك فلسطيني حقيقي أم خلق بوئر توتر لتبقى الحال على ما هو عليه، وتذرع بعدم وجود شريك فلسطيني وأنها لا تستطيع أن تؤمن على نفسها في ظل ضعف السلطة الفلسطينية.

أما من ناحية أخرى فإن مستقبل الجماعات المسلحة في فلسطين مرتبط بالتمويل أيضاً، والأحوال الفلسطينية تختلف كلياً عن أحوال التنظيمات الجهادية في سيناء وسوريا، حيث أن الحدود غير مسيطر عليها بالكامل إضافة إلى وجود موارد يمكن استغلالها كالنفط، وتأمين دعم مالي من خلال الحدود والتهرب، أما في الضفة فهذا ليس بالسهل، وأما غزة فلم يعد الأمر سهلاً كما كان عليه الأمر قبل يونيو/ ٢٠١٣ بعد أن بدأ الجيش المصري عملياته في سيناء وعمليات هدم الانفاق والشروع في إنشاء منطقة عازلة بين غزة وسيناء.

الهوامش:

١. عزام، ماجد، ٢٠١٣، السلفية في فلسطين "الخلفيات، الواقع، الافاق، تقرير، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، قطر، ص٦-٧، تاريخ الوصول للموقع الإلكتروني ٢٤/٦/٢٠١٥، <http://samanews.com/ar/index.php?act=post&id=152050>
٢. شاشة نيوز، ٢٠١٣، تنظيم سلفي جهادي يعلن عن وجود مقاتلين له بالضفة الغربية، تاريخ الوصول للموقع الإلكتروني، ١٠/١٢/٢٠١٥، <http://www.shasha.ps/news/86959.html>
٣. فارس، عوني، ٢٠١٣، السلفية الجهادية في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد شتاء ١٠١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شارع أنيس النصولي فردان، بيروت لبنان، ص٤٨-٥١
٤. الشبايك، ٢٠١٠، ظاهرة جلجلت في قطاع غزة، جهاز الأمن العام الاسرائيلي، تقرير ٢٠١٠، موقع الإلكتروني، http://www.shabak.gov.il/arabic/publications/Reviews/Pages/1-7-09_ar.aspx
٥. الجزيرة نت، ٢٠١٤، تنظيم سلفي فلسطيني يبايع تنظيم الدولة، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/11/2/%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%B3%D9%84%D9%81%D9%8A-%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D9%8A%D8%A8%D8%A7%D9%8A%D8%B9-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D8%A9>
٦. واكد، علي، ٢٠١٥، داعش تزداد نفوذا في غزة، المصدر، <http://www.al-masdar.net/%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4%D8%AA%D8%B2%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D9%86%D9%81%D9%88%D8%B0%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%BA%D8%B2%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7/>
٧. اوراد، ٢٠١٥، نتائج استطلاع الرأي العام الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، مركز العالم العربي للبحوث والتنمية، رام الله، غزة، فلسطين، ص٤
٨. حجازي، أكرم، ٢٠٠٦، في صميم عقل السلفية الجهادية القاعدة نموذج، سلسلة مقالات منشورة في صحيفة القدس العربي، ص٣٩
٩. فارس، عوني، ٢٠١٣، السلفية الجهادية في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد شتاء ١٠١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شارع أنيس النصولي فردان، بيروت لبنان، ص٦
١٠. شاشة نيوز، ٢٠١٣، تنظيم سلفي جهادي يعلن عن وجود مقاتلين له بالضفة الغربية، تاريخ الوصول للموقع الإلكتروني، ١٠/١٢/٢٠١٥، <http://www.shasha.ps/news/86959.html>
١١. الحياة الجديدة، ٢٠١٦، اتهام ٣ شبان بالانتماء لداعش ومحاولة حفر نفق من اسرائيل للضفة، http://www.alhaya.ps/ar_page.php?id=1dead8dy31370637Y1dead8d
١٢. الكوفية، ٢٠١٥، السلفية الجهادية في الضفة الغربية حقيقة ام صنعة الاعلام الإسرائيلي، <http://kofiapress.net/pages/print/15631>
١٣. المصدر، ٢٠١٣، خطر جديد في الضفة السلفية الجهادية، <http://www.al-masdar.net/%D8%AE%D8%B7%D8%B1-%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B6%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%84%D9%81%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%87%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A9/>
١٤. محمد، جاسم، ٢٠١٣، المشروع الأمريكي الإخواني وتقسيم سيناء، جريدة العراق اليوم، العدد ١٩٦٥، العراق، ص٨
١٥. ساسة، ٢٠١٥، تغلغل الجماعات الجهادية في سوريا القلق الدائم لإسرائيل، <http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:http://www.sasapost.com/israel-and-the-jihadist-associations-in-syria/>
١٦. مركز المعلومات، ٢٠١٤، انضمام المتطوعين من العرب الاسرائيليين ومن الفلسطينيين الى صفوف المتمردين في سوريا، مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب على اسم اللواء مثير عميت في مركز تراث الاستخبارات، تقرير ١٤/١/٢٠١٤، ص٦
١٧. المرجع السابق، ص١
١٨. فارس، عوني، ٢٠١٣، السلفية الجهادية في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد شتاء ١٠١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، شارع أنيس النصولي فردان، بيروت لبنان، ص٤٨

استراتيجيات الخطاب المعرفي والمرجعي في إسرائيل (المخاطر والتحديات)

عماد موسى *

مفهوم الاستراتيجية

ان المتبع لمفهوم الاستراتيجية (The Strategy) سيجد، أن هذا المفهوم، هو من أكثر المفاهيم تداولاً، في العلوم العسكرية، والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتي تستخدم للدلالة على أكثر من تخصص، فكلمة "استراتيجية" و"استراتيجي" تستخدم استخداماً واسعاً من قبل الباحثين والمتخصصين في شتى العلوم، حتى أن عدداً من الجامعات تضم أقساماً متخصصة لدراسة الاستراتيجية، وترتبط بها مراكز (ومعاهد) للأبحاث الاستراتيجية، كما أن استخدام تعبير "الاستراتيجية" تتعدد وتشمل العديد من الميادين، والتخصصات، ويوصف حالياً أي موقع ما، أو بقعة جغرافية من دولة ما، بأنه "استراتيجي" وعلى سبيل المثال، عربيا: مضيق هرمز، قناة السويس.

وهو من أكثر المصطلحات استعمالاً في الكتابات، وتداولاً في الحوارات الصحفية، وأصبح مصطلحاً أقرب إلى اللغة الشعبية وإلى اللغة التداولية، منه للغة الاصطلاحية الاختصاصية، وإن سلمنا باتساع معانيه، ومضامينه، وكيف يفهم من لدن مستعمليه، وكيف يصل المعنى، والمحتوى من لدن مستقبله؟

يوصف غالباً أي قرار سياسي أو عسكري ذي أهمية، بأنه "استراتيجي" كما يطلق أيضاً وصف "استراتيجي" على عدد من الأسلحة التي تتصف بقدراتها المتطورة، بمدياتها، ودقتها ونوع ما تحمله من عتاد، ومتفجرات، لما تحققه هذه "الأسلحة الاستراتيجية"، من قدرة تدميرية أو ردعية، والتي تحقق تأثيراً حاسماً في الصراع وتفوقاً فيه، "وقد يطلق الخبراء مصطلح الاستراتيجية، أيضاً، على بعض الموارد التي تؤثر على السياسة الاقتصادية، أو السياسة أو العسكرية لدولة ما، فيقال: من الموارد الاستراتيجية البترول، مثلاً.

وكما توصف الخطط، وأنماط معينة من التفكير بأنه "تفكير استراتيجي"، وخطط استراتيجية،

أو أنواع محددة من الدراسات المتخصصة، بأنها دراسات استراتيجية. والسؤال هنا من أين جاءت هذه الكلمة، وما هو أصلها؟

يعود أصل كلمة "استراتيجية" إلى اللغة الإغريقية فهي "تكتسب اسمها من اللفظ اليوناني القديم "ستراتيجيوس" (strategos) وتعني "القائد".^(١)، ويبقى معنى: الاستراتيجية حسب أصلها قيادة الجيش وقد يوصف قرار سياسي أو اقتصادي هام بأنه «استراتيجي»^(٢)، كما يطلق وصف «استراتيجي على (علم وفن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق أهداف حددتها السياسة عن طريق القوة أو التهديد بها»^(٣)

وتعريف آخر هي (علم وفن استخدام جميع موارد أمة ما أو موارد تحالف أم، لتحقيق أغراض حددتها السياسة) وكذلك تعرف الاستراتيجية (بأنها فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف سياسية، وإنها فن حوار القوى وحوار الإرادات التي تستخدم القوى لحل خلافاتها)^(٤)

وإذا أخرجنا انفسنا، من دائرة الاستخدام العسكري لمصطلح «الاستراتيجية» إلى الاستخدام المدني، فإنها تعرف على أنها «مجموعة الخطط الموجهة والتي تساعد الادارة على تحقيق المسار الذي اختارته، والاستفادة من الفرص المحيطة، ومواجهة القيود والتهديدات والمخاطر، التي تتعرض لها، لتحقيق أهدافها الاستراتيجية. مع التأكد من تنفيذ الخطط والبرامج المحددة». ^(٥)

أما توماس شيلينج فيعرف الاستراتيجية بأنها «تعني الألعاب التي تعتمد فيها أفضل حركة، يقوم بها أي لاعب، على ما يفعله اللاعبون الآخرون، وقد قصد من هذا المصطلح التركيز على اعتماد قرارات الخصوم بعضها على بعض، وعلى توقعاتهم لسلوك كل لاعب آخر، وليس هذا المعنى الذي يستخدم في المجال العسكري». ^(٦)

استراتيجية الخطاب الإعلامي

الاستراتيجية: هي ذلك المخطط الذهني الرئيس، وما يتبعه من المنجز النصي الرئيس الذي يحقق الهدف الرئيس». ^(٧) اما تمام حسان فترجم الاستراتيجية الى مصطلح «مرتكزات»، ويعتبر جمعان بن عبد الكريم أن «هذه الترجمة تدرج في إطار النظرية النصية الإجرائية»^(٨)، فأصبحت الاستراتيجية، هي المرتكزات، ولكنها لم تقدم معالجة لمضمون الاستراتيجية ومحتواها، لأن المشكلة ليست في ملفوظ «الاستراتيجية» وإنما في مضمون الاستراتيجية ومدلولها.

من خلال ما تقدم، يمكن تعريف استراتيجيات الخطاب: بأنها البناء اللغوي للخطاب، وفقا للتخطيط الذهني الذي يسبق بناء الخطاب، بما فيه، الاجزاء المتحققة داخل الخطاب وفقا للسياق الذي أنتج فيه الخطاب.

مفهوم الرؤيا الاستراتيجية للخطاب الإعلامي

الرؤيا الاستراتيجية: هي المحصلة النهائية للتفكير المعمق، والمدرّوس، وأن الرسالة، هي نتاج هذه الرؤيا، لما يمكن ان نتوقعه من الخطاب، وفي ضوء ذلك التوقع، يمكن القيام ببناء غايات الخطاب، والتي يسعى إلى تحقيقها في ضوء تحديد الأهداف والسياسات وتحليلها، بحيث يمكن من خلالها، أن ينجزه الخطاب.

فالرؤيا: هي أحد مداخل التخطيط الاستراتيجي المعتمد على نظام السيناريوهات، أو المشاهد ذات العلاقة المباشرة، بتحليل بيئة الخطاب، وتطوير خيارات الخطاب، لأنها قد تكون مترابطة مع بعضها الآخر. وذلك لأنه " باستطاعة الصحفيين، أن يفرضوا على كل المجتمع المبادئ التي ينطلقون منها في رؤيتهم للعالم، وأن يفرضوا اشكالياتهم، ووجهات نظرهم على الآخرين." (٩)

رؤيا الخطاب الإعلامي الإسرائيلي
« إسرائيل دولة لجميع مواطنيها
« نحو دولة يهودية ديمقراطية
« دولة ثنائية القومية
« تحقيق الأمن بإزالة التهديدات
« بناء عقيدة أمنية وعسكرية تواكب المتغيرات في المحيط العربي
« تفريغ أكثر للسكان، استيطان أكثر
« التهديدات الوجودية لإسرائيل وكيفية إزالتها.

أعلى النموذج

إن الغاية من امتلاك رؤيا استراتيجية للخطاب الإعلامي - كما هو معلوم - من أهم وظائف الخطاب الإعلامي.

والتي لا تقل أهمية عن باقي الوظائف الأخرى: كالإنتاج (إنتاج الخطاب، تسويق الخطاب،

وترويجه)، نظرا لما يظهره العنصر البشري من أهمية فائقة، بوصفه أحد عناصر عمليات الاتصال الرئيسة فهناك:

« المرسل (منتج الخطاب)

« المستقبل، (الرأي العام، الجماهير، الفئات المستهدفة "قطاع محدد من المجتمع")
« مديات التأثير على المستقبل (الرأي العام، الجماهير، الفئات المستهدفة) والتي يطلق على هذه المديات "بالمجال الصحفي والذي هو عبارة عن فضاء اجتماعي مشيد، مجال تفاعل للقوى، وداخل هذا المجال هناك المهيمنون والخاضعون، هناك علاقات ثابتة، ودائمة من عدم المساواة تمارس داخل هذا المجال. والمجال هو أيضا ساحة للصراع من أجل تغيير بنية المجال، والاحتفاظ بالوضع القائم".^(١٠). من جهة، وتأثيره عبر التغذية الراجعة (feedback) على المرسل، منتج الخطاب من جهة ثانية. من هنا لا" يمكن فهم أي شيء إذا لم نفهم المجال الذي أنتجه، والذي يعطيه قوته المتواضعة".^(١١)

لقد اتسع مفهوم الاستراتيجية والرؤيا الاستراتيجية بحيث شملا الخطاب، وتوصيفه؛ وظائفه، أهدافه غيائه، وأنواعه، والذي يتطلب تخطيطا، من أجل جذب الجماهير واستقطابها، والتأثير فيها، ومن أجل تحفيزها، كي تبني موقفا، او تتخذ قرارا، أو تغير سلوكا ما.

والرؤيا الاستراتيجية للخطاب الإعلامي هي: ما تعكس طموحات المؤسسة الإعلامية الرسمية، وغير الرسمية، وتزودها بنظرة بانورامية عن (إلى أين نذهب) وتعطي إشارات حول مستقبل الدولة، ومصيرها، إنها تقوم بترجمة الغايات البعيدة الأمد، وتقدم تصورا للغايات القريبة الأجل، مع العمل على تجسيد هوية المؤسسة الإعلامية.

كما أنها تحدد اتجاهات هذه المؤسسة، وفي أي اتجاه تسير، ولذلك، يرسم الخطاب مسارا استراتيجيا له، من أجل أتباعه وإتباعه، ليحافظ على وجوده في المجتمع، وسط الضخ الإعلامي الكبير. ووسط "ألوان مختلفة من التصورات في ذهن أي فرد حول الحقائق السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والشخصية".^(١٢)

مفهوم الخطاب الإعلامي

الخطاب الإعلامي الذي هو « نسق لغوي يعتمد في تأليفه على الأدلة، بحدها التمثيلي الذهني، وأمناطها المجردة، الإحالية والتأويلية، وسيلزم عن وسم انتاجات الوسائط بالخطابية، القول: بسيميائية اللغة الصحافية (الإعلامية) التي تعالق القوالب اللسانية، (التركيبية الدلالية والتداولية) بالقوالب المعرفية السياسية المجتمعية، الثقافية.»^(١٣)

نلاحظ أن العاقد قد ضمن محددات الخطاب الإعلامي بالمحدد اللغوي. بما يتضمنه من دلالات وتمثلات ذهنية. بما فيها التمثلات التجريدية ذات القدرة على الاحالة والتأويل والمحدد الثاني هو وجود الوسيط الاعلامي، والثالث هو اللساني (التركيب الدلالية والتداولية) فحصره في إطار اللغة.

ويتقارب عبد الواسع الحميري مع العاقد في هذا المفهوم لذا فإنه يرى «الخطاب عبارة عن البنية الذهنية المجردة التي تسكن وعي كل منا، وتبرجه، وأن النص عبارة عن التجسيد الفعلي لتلك البنية، أو هو عبارة عن السياق التداولي الانتاجي لتلك البنية، فالخطاب إذن، هو الذي يصوغ وعي المخاطب (أي المستقبل، المتلقي)»^(١٤)

نأتي إلى تعريف الخطاب واستراتيجياته ورؤيا ومفهومه بحيث ينصب تحليلنا للخطاب الإعلامي الإسرائيلي المكتوب، لأنه يحاول تكثيف قوته التعبيرية في وحداته اللسانية الانتقائية، ولأن التواصل، في مجال الصحافة المكتوبة، يقوم على أساس استراتيجية التفاعل الافتراضي للقارئ، وذلك لأن» للقارئ مقاصده الخاصة، التي قد تتجاوز مقاصد الكاتب نفسه وتدفعه لأن يؤول ما شاء في النص»^(١٥).

من هنا يسعى الخطاب الاعلامي إلى تحقيق وظيفته التواصلية عبر تقنيات أو استراتيجيات مستوحاة من العلوم الأخرى؛ كعلم الاجتماع والسياسيولوجيا والفلسفة واللسانيات والعلوم اللغوية والانثربولوجية، وذلك لأننا « لا نستطيع إعادة بناء منظومة فكرية ما، إلا بالاعتماد على مجموعة من الخطابات، ويتم ذلك على نحو يكون الغرض منه، هو العثور خلف العبارات نفسها على قصيدة الذات المتكلمة، وعلى نشاطها الواعي، وما كانت ترغب في قوله، بل، وعلى بعض التجليات اللاشعورية التي برزت إلى واضحة النهار، فيما قالته صراحة أو ضمنا.»^(١٦) مما يجعل من عملية التأويل «للخطاب» خاضعة أساسا لمقاصد البنية النصية المنفتحة على القراءات في حدود ما تسمح به الظروف»^(١٧).

من هنا يأتي السؤال: هل الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، كان في يوم من الأيام خطابا إعلاميا محايدا سواء أكان في المواجهة مع الفلسطينيين، أم في الصراع العربي الإسرائيلي أم في الصراع الاقليمي، أم أنه لا يزال هو الدعامة الأساسية، في ترويج الاستراتيجيات السياسية والأمنية والعسكرية الإسرائيلية؟ أم أنه عمل، وما يزال يعمل الخطاب الإعلامي بتوجيه من صناع القرار في إسرائيل ومتخذيها، أو من الدوائر الحزبية، لذلك، فلا غربة أن نجدهم « يتحكمون بالأخبار-من الناحية العملية (فهم اصحاب كافة شبكات التلفزيون والصحف) ومن ناحية المضمون على حد سواء»^(١٨)، لأمر الذي يجعل المجتمع الإسرائيلي خاضعا للنظام

الاقتصادي والاجتماعي، وتحت السيطرة، ويتضح ذلك جلياً، من خلال «السيطرة على أجهزة المعلومات، والصور، على كل المستويات، تمثل وسيلة أساسية... فامتلاك وسائل الاعلام والسيطرة عليها، شأنه شأن أشكال الملكية الأخرى، متاح لمن يملك رأس المال والنتيجة الحتمية. أن يصبح الجهاز الإعلامي جاهزاً لأن يضطلع بدور فعال وحاسم في عملية التضليل»^(١٩).

إنه مما لا شك فيه أن مجمل «التحولات العميقة التي شهدتها المجتمع الإسرائيلي خلال العقدين الأخيرين، أثرت في الخطاب «الإعلامي الإسرائيلي، شكلاً ومضموناً، كالتخصص، واللبلة الاقتصادية، والدمقرطة السياسية، وقادت التحولات إلى نتائج ابتعدت بإسرائيل عن فكرة «المخيلة الجماعية» التي حاول بن غوريون الأب الروحي لحزب العمل الإسرائيلي، تأسيسها وأدت إلى تصاعد، هيمنة رأس المال، حيث الإعلام مصدر ربح، ويمكنه ذلك من خلال الدمج بين الإيديولوجية القومية التعبوية، ومجالات وثقافات الترفيه، وبهدف تعميق التحكم بآليات الاستهلاك الإعلامي وضمان الانصياع السياسي»^(٢٠).

يتضح أن الخطاب الاعلامي يتبنى استراتيجيات محددة، ذات أهداف محددة، بقصد إحداث التأثير في الجماهير (الرأي العام)، لتوليد الاستعدادات النفسية من أجل دفعهم لتقبل القرارات السياسية ذات الصلة بتنفيذ التهديدات، وهي عملية إخضاع نفسية للجماهير تتم باستعمال استراتيجية تضخيم الخطر الوجودي، لذلك، نجد أن الكاتب جورج اورويل يتقول: إن «الاهتزازات المدهشة للرأي العام التي تحدث اليوم والمشاعر التي يمكن فتحها وإغلاقها كالصنوبر، هي نتاج إيهام الصحف والمذيع، ويجب علي أن أقول أنها تتبع بين المثقفين من المال، ومن الشعور بالأمن المادي فهم قد يكونون في لحظة ما مع «الحرب»، أو ضد «الحرب»، لكن ليست لهم في الحالتين أية صورة واقعية للحرب في رؤوسهم»^(٢١)، وقد ظهرت في مطلع الثمانينات مدارس تحليل الخطاب التي انتشرت، وأصبح لها وجود، وتأثير ملحوظ في الدراسات الأجنبية والعربية، ومع ذلك (فإن هناك غموضاً وعدم اتفاق بين هذه المدارس حول مفهوم الخطاب الإعلامي ومكوناته).

وبغض النظر عن هذه الاختلافات، فإنه يجب التسليم، بأن الخطاب الإعلامي: هو ممارسة اجتماعية متغيرة، ويتعرض دائماً للتغير والتطور، لكن الأمر الأكثر أهمية، هو أن نفهم أن الخطاب الإعلامي ليس شيئاً واحداً، بل هناك عدد من الخطابات الإعلامية المتصارعة أو المتعاونة، كما أن هناك تداخلاً أو تعايشاً بين أكثر من خطاب^(٢٢)، ولكن قد تصمد بعض الخطابات وتكتب لها الاستمرارية لأنها «تستطيع السيطرة، ويتمكن من خلق آليات لممارسة سيطرتها على نتاجات عصرها»^(٢٣).

أن هذه الخطابات المتداخلة، تعكس حقائق اجتماعية متباينة، ومصالح متعارضة ومتناقضة، ومع ذلك، فقد تحدث استعارات في المفاهيم، والأطروحات، في إطار محاولة كل خطاب، أن يواكب الواقع الذي يعيش فيه، وأن يحظى بقدر أكبر من التأثير الاجتماعي، بهدف إحداث تغيير في السلوك والوعي.

فهناك خطاب إعلامي، قد يتبنى بعض المقولات، أو المفاهيم، سواء أكانت لحكومة، أو لحزب سياسي معارض، وأن يدججه في إطار بنيتة الخطابية، بقصد التأثير في الجمهور، وحرمان المعارضة احتكار مثل هذا التأثير عبر توظيف اللغة المؤدجلة لأنها، اختيارات أيديولوجية، كما أن الخطاب ممارسة ذات طابع أيديولوجي، من حيث التكوين والتأثير مع ملاحظة، أن مدارس تحليل الخطاب استخدمت مفهوماً للأيديولوجية والسيطرة الأيديولوجية، أقرب ما يكون للغرامشية الجديدة، إذ يتفق فان ديك وروث ووداك وفيركلاو، على أن ممارسة القوة في المجتمعات الديمقراطية الحديثة، لم تعد تعتمد على الإكراه بالدرجة الأولى، بل على الإقناع أي أصبحت عملية أيديولوجية بالمعنى الغرامشي، ويرى فان ديك، أن الأيديولوجية أطر تفسيريه كما تعتبر أساساً لإدراك المواقف الاجتماعية أيضاً.

ومما لا شك فيه، أن الاتفاق على فكرة الهيمنة عبر الإقناع، وتحقيق إجماع، وتعدد شكلي داخل المجتمع، أو ما يعرف بالهيمنة الناعمة (soft power)، هو ما دفع مدارس التحليل النقدي للخطاب، نحو الاهتمام بتحليل الخطاب الإعلامي، المجال الإعلامي، وذلك لأنها يعكسان عملية الصراع والهيمنة، ويجسدنها عبر الإقناع ومن خلال تزييف وعي الجماهير، خصوصاً أن "المادة (الإعلامية)... والأخبار، والمعلومات العامة والتوجهات والأفكار، يجري، يجري انتقائها جميعاً من الإطار المرجعي الاعلامي نفسه، من حراس اللبابة الاعلامية." (٢٤)

الأمر الذي يقتضي فيه أن تفضي فيه» الجمل المرجعية إلى أنماط مختلفة، من البناء، تعتمد على درجة عموميتها، وعلى عاطفية الحوادث، التي تثيرها». (٢٥) .

الخطاب المعرفي المرجعي

ارتأينا قبل استعراض استراتيجيات الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، أن نبسط القول: فيما نطلق عليه الخطاب المعرفي المرجعي للخطاب الإعلامي الإسرائيلي، والتي أدرجناها في محورين لمتطلبات الدراسة، انطلاقاً من أن « المعرفة هي ما يمكن أن نتحدث عنه في ممارسة خطابية مخصوصة، إنها المجال الذي تكونه موضوعات مختلفة، تحوز أو لا تحوز صفة

العلمية»^(٢٦)، وذلك لأن « المفاهيم كالنظريات وكالبيوت، والأجساد عرضة للانتهاك، في كل لحظة، بل، قد ينتج ذلك، الاضطراب عن التحريف المقصود، أو الأحكام المسبقة، أو كثرة الاستعمال، فتتحول الكلمة إلى بداهة، تنسى مساءلتها.»^(٢٧) ومن خلال قراءة متأنية للتهديدات والمخاطر، والتي تحولت إلى استراتيجيات في الخطاب الإعلامي الإسرائيلي أخذنا بعين الاعتبار «التصنيف أساس «مرجعي» بمعنى ان يتم تحديد أصناف الخطاب من حيث غلبة مرجعية ما على عملية التأصيل المنهجي، في داخل هذا الخطاب، وينبغي هنا أن يقصد بدقة ماهية «غلبة مرجعية ما.»^(٢٨)

إذاً عمل الخطاب المعرفي المرجعي على بناء العقل الإسرائيلي وتشكيله، من هنا، تمكن الخطاب الإعلامي من نقل رسالته إلى الجمهور الإسرائيلي، وذلك لأن لكل رسالة قصدها وموقفها، وظروف تلقيها»^(٢٩). وكما عمل خطاب المعرفة المرجعية على «صياغة قوانين الذاكرة الجمعية... أي قوانين تشغيل الذاكرة، وصياغة الآليات التي على أساسها»^(٣٠) ليتم إنتاج الخطاب الإعلامي الإسرائيلي.

يعتبر يعقوب عميد رور من أكثر المهتمين، في هذا الشأن، إذ قام بطرح هذه التهديدات والمخاطر وتكثيفها، الأمر الذي جعلها تشكل خطاباً معرفياً مرجعياً لصياغة الوعي، وإعادة تشكيله، لدى النخب الإسرائيلية، بحيث يعتمد عليها منتجو الخطاب الإعلامي، سواء كان في صياغة استراتيجياته أو صياغة أهدافه، ومقاصده، وكذلك الخطاب السياسي والأمني والعسكري... إلخ فيقول « نالت التهديدات التي تواجهها دولة إسرائيل، تأكيدات مختلفة، خلال الستين عاماً الماضية، غير أن المبدأ الأساس الذي يشكل أرضية لفهم سائر التهديدات لم يتغير، وهو أن العالم العربي المحيط بنا، لا يقبل بوجود دولة يهودية مستقلة وذات سيادة، في قلب الشرق الأوسط، وسيبذل كل ما في استطاعته للقضاء عليها. ولا يدور الحديث هنا على الأراضي التي احتلت في حرب عام ١٩٦٧. أو على هذا الاحتلال أو ذاك، وإنما يدور على وجود الدولة اليهودية، في حد ذاته هذا الفهم الأساس، هو حجر الزاوية في فهم التهديدات، وفي أساس بناء القوة العسكرية للدولة اليهودية.

إن الذين لا يفهمون هذا المبدأ، متوهمين، بأن الوضع ليس خطيراً إلى هذا الحد، وأن العالم قد تغير، سيواجهون فشلاً أكيدا في ساحة القتال، لأنهم لن يقوموا ببناء القوة بشكل سليم ولن يستعدوا للحرب كما يجب.

صحيح أن هذا التوجه أو التفكير يعلوه التشاؤم، وأنا أدرك أن الناس يفضلون الأوهام. لكن من يعمل في بناء القوة العسكرية، وتفحص التهديدات، عليه أن ينظر إلى الواقع كما هو، وألا

يخدع نفسه ويخدعنا، عليه أن ينظر إلى التهديدات من زاوية السيناريو الأخطر. وان لا يعتمد على نظام يبدو في فترة معينة، أنه موجود خارج منظومة التهديدات فحصول تغيير في الحكم أو السلطة، في دولة معينة في الشرق الأوسط، يمكن أن يؤدي إلى تغيير في توجهات هذه الدولة، ومن ثم انضمامها إلى دائرة التهديد. وأذكر أنه جرت نقاشات في الجيش الإسرائيلي قيل فيه، أنه في أعقاب الحرب في العراق، لم يعد ثمة ما يدعو للقلق من جبهة شرقية، ولكنني، أتساءل: هل، يمكن لأحد أن يقول لي، كيف سيبدو العراق، بعد عشرين عاما. أو ليس من واجبنا إن نستعد اليوم لتطورات سيئة من ناحيتنا؟

هنا بطبيعة الحال يأتي دور تحديد سلم الأولويات في استثمار الموارد المالية، وبناء القوة العسكرية فعليا... في العام ١٩٩٥ تقريبا، وفي سياق متصل في العلاقات بين إسرائيل وتركيا، طرح السؤال بشأن الحاجة إلى إقامة علاقات معينة مع تركيا، وقد كان تقديرنا، أن تركيا، تشهد عملية تحول نحو الأسلمة، وأنها دولة إسلامية ستبتعد عن إسرائيل. لم نجد رأينا هذا قبولا، حيث توطدت شبكة العلاقات مع تركيا. ولكن العملية التي شخصناها جارية بالفعل. وفي هذا السياق علينا أن نتذكر شبكة العلاقات التي كانت قائمة بين إسرائيل وإيران - قبل الاطاحة بنظام شاه إيران- وكيف قدرت بعض الأوساط في إسرائيل أن لبنان سيكون الدولة العربية الثانية، التي ستوقع اتفاق سلام مع إسرائيل. هذه الأمور تنبع من واقع أننا غير مستعدين للإقرار بضرورة بناء نظرتنا الأمنية.»^(٣١)

قبل أن نلج إلى داخل الخطاب لا بد من التأشير أولا إلى أن «الاقتراب من محاولة التحديد (للأطر المعرفية) يستلزم منا تقديم قراءة من داخل اللغة للألفاظ الدالة على تلك المفاهيم»^(٣٢)، من هنا نجد أن الخطاب منذ البداية يستعمل ملفوظ (نالت) ليؤثر به إلى طبيعة الاهتمام المتواصل بالتهديدات، وليقدمها كإطار معرفي، فالكلمة تحمل دلالات ثرة، فهي تعلن:

أولاً:- عن مدى الاهتمام الكبير الذي حظيت به (التهديدات) لتصبح استراتيجية، ومبدأ أساس في استراتيجية الأمن القومي الإسرائيلي، ومن ثم استراتيجية من استراتيجيات الخطاب الإعلامي الإسرائيلي، دون التورط في تفاصيل كرونولوجية متجاوزا هذه المعضلة، التي قد تحدث خلافا، في بناء استراتيجية الخطاب التي أسسها على الحجاج، والاقناع باستعمال التعقيب الكرونولوجي، للدلالة على الزمن التاريخي منذ قيام إسرائيل فاستعمل الخطاب» خلال الستين عاما الماضية» ومن ثم ينتقل إلى طرح المبدأ الأول الذي تشكل منه استراتيجية التهديدات «إن العالم العربي المحيط بنا، لا يقبل بوجود دولة يهودية، مستقلة وذات سيادة في قلب الشرق الأوسط»، فالخطاب بعد أن يحدد التهديد بالعالم العربي يقدم تفسيراً ماهية هذا التهديد لأنه «لا يقبل بوجود دولة يهودية» وهو المصطلح البديل «لدولة إسرائيل» ومن

ثم يقدم الخطاب حججه، وبراهينه،» لا يدور الحديث هنا على الأراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧، وإنما يدور على وجود الدولة اليهودية» وهكذا يستبدل مصطلحا بمصطلح ويدغم الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ في الدولة اليهودية كآلية واعية لتبطين المقصدية، من هنا اعتبر «وجود الدولة اليهودية، في حد ذاته. هذا الفهم الأساس، هو حجر الزاوية في فهم التهديدات، وفي أساس بناء القوة العسكرية للدولة اليهودية».

وكذلك المبرر الأيديولوجي المتبطن أيضا في مصطلح الدولة اليهودية «لبناء القوة العسكرية (للدولة اليهودية) والذي يسميه الخطاب «بالمبدأ» ويشغل الخطاب على إخراج جزء من الجمهور، ويصنفهم بالذين لا «يفهمون هذا المبدأ» والمصايين بالتوهم «متوهمين لكونهم لا يدركون» بأن الوضع ليس خطيرا إلى هذا الحد» ويستعمل الخطاب ملفوظا يشير إلى المستقبل وهو محمول بالتهديدات وبالمخاوف المستقبلية» سيواجهون فشلا أكيدا في ساحة القتال» فالحجج هنا تأخذ منحى زرع المخاوف من الهزيمة لا لشيء، سوى أنهم أغفلوا هذا المبدأ الذي تترتب عليه محمولات متعددة، ولكنها متعكسة ومتضادة، «لأنهم لم يقوموا ببناء القوة العسكرية بشكل سليم، ولن يستعدوا للحرب كما يجب» ولمزيد من تعزيز التهديدات وبناء المخاوف من الفشل، يوظف الخطاب في بنائه استراتيجية الاقتناع للجمهور «صحيح أن هذا التوجه والتفكير يعلوه التشاؤم» وبهذا الأسلوب يغلف الخطاب نفسه وسماء الجمهور (المتلقي) بغيمة التشاؤم، فهي قابلة للانزياح، لأن منتج الخطاب يؤكد على أنه يفهم ما يفكر به الجمهور» أدرك أن الناس يفضلون الأوهام، إلا أنه يخرج من بين الناس باستعمال كلمة (لكن) للفصل بينهم وبين الآخرين» لكن من يعمل في بناء القوة العسكرية، «فهذا الفريق مطالب بمجموعة من البيانات وهي:» تفحص التهديدات، عليه أن ينظر إلى الواقع كما هو، وأن لا يخدع نفسه، ويخدعنا. عليه أن ينظر إلى التهديدات من زاوية السيناريو الأخطر، وان لا يعتمد على نظام يبدو في فترة معينة، أنه موجود خارج منظومة التهديدات فحصول تغيير في الحكم أو السلطة، في دولة معينة في الشرق الأوسط، يمكن أن يؤدي إلى تغيير في توجهات هذه الدولة، ومن ثم انضمامها إلى دائرة التهديد.

ويستمر في سرد رواياته للإقناع «وأذكر أنه جرت نقاشات في الجيش الإسرائيلي قيل فيه، أنه في أعقاب الحرب في العراق، لم يعد ثمة ما يدعو للقلق من جبهة شرقية، ولكنني، أنساءل: هل، يمكن لأحد أن يقول لي، كيف سيبدو العراق، بعد عشرين عاما. أو ليس من واجبنا إن نستعد اليوم لتطورات سيئة» لذلك، أخرج العراق نسبيا من دائرة التهديدات الآن على إسرائيل، ولكن ينبغي على الجمهور الذي يسعى إلى اقتناعه بأن «ينظر إلى التهديدات من زاوية السيناريو الأخطر. وان لا يعتمد على اتفاق، في إشارة واضحة على مصر، وإلى منظمة التحرير ويختزلها بالسلطة، أو على نظام يبدو في فترة معينة، أنه موجود خارج منظومة

التهديدات. فحصول تغيير في الحكم أو السلطة، في دولة معينة في الشرق الأوسط، يمكن أن يؤدي إلى تغيير في توجهات هذه الدولة، ومن ثم انضمامها إلى دائرة التهديد. ويسرد الخطاب مزيدا من القصص لإقناع الجمهور بأن التهديدات جدية وواقعية» أن تركيا، تشهد عملية تحول نحو الأسلمة» وهذا يحد ذاته يشكل تهديدا، ويضيف الخطاب أنه «علينا أن نتذكر شبكة العلاقات التي كانت قائمة بين إسرائيل وإيران - قبل الاطاحة بنظام شاه إيران-» في اشارة واضحة الى التهديد النووي الذي تشكله ايران بعد هذا التحول في عهد الآيات واحمدي نجاد وبهذا يقدم الخطاب آخر سرديته لإقناع الجمهور بالمخاطر المحدقة بهم من المحيط العربي والمحيط الاسلامي السني والشيعي في الشرق الأوسط، من خلال» التجسيد المعرفي للتخاطب التواصل، وعلى مسألة المتخاطبين في الخلفية اللسانية والثقافية، التي تمثل القاعدة الموسوعية، كما يقول ريكور لتوليد التواصل عبر وسائط محددة.»^(٣٣)

ماهية المخاطر والتهديدات

بعد أن قام بتسجيل ما أسماه بالملاحظات يقول الجنرال يعقوب عميد رور، « سأنتقل إلى الحديث عن ماهية المخاطر والتهديدات ذاتها، وفي هذا السياق علينا أن نتذكر بأن إسرائيل تقبع في وضع ثابت غير قابل للتغيير بسبب عدد من عدم التناظرات التي تشكل الإطار الذي يتعين، بناء القوة داخله، ولا بد أن ندرك أن ندرك أن عدم التناظرات هذه ستستند دائما وأبدا إلى الفهم بأن دولة إسرائيل هي دولة لا يسلم العالم المحيط بوجودها، وعلى أساس هذه اللا تناظرات يجب أن تبنى القوة العسكرية.

١. عدم تناظر المساحة: خلافا لجاراتها، لا تملك إسرائيل عمقا تنفيذيا أو استراتيجيا... في المقابل، يملك أعداء إسرائيل عمقا وقدرة امتصاص كبيرة، لإخفاقات تكتيكية، فدولة إسرائيل بأكملها بمثابة جبهة قتال، بسبب مساحتها الضيقة، وكونها محاطة من كل الجهات بأعداء فعليين، أو محتملين، كذلك، فإن قدرة إسرائيل على الامتصاص محدودة جدا، نظرا لعدم قدرتها على نشر البنى والقواعد التحتية مع احتياط كاف، وهو أمر له أهمية بالغة في عصر الصواريخ.

وتواجه إسرائيل وضعاً صعباً في مواجهة الإرهاب، على اختلاف أنواعها، نظراً لأن الجزء الأكبر من أراضيها، وتجمعاتها السكانية، يقع في مرمى نيران منظمي «حزب الله» و«حماس»، كما أنه لا يتوفر زمن إنذار كاف في مواجهة إرهابيين ينطلقون من مراكز إرهاب محتملة في قطاع غزة والضفة الغربية.

٢. محدودية حجم السكان: سيبقى الإسرائيليون إلى الأبد قلة في مواجهة الكثرة. حتى لو هاجر كل يهود العالم، فإن إسرائيل ستبقى محاطة بدول أكبر منها بما لا يقاس، بناء عليه سيبقى الجيش الإسرائيلي صغيراً، وستضطر إسرائيل دائماً وابدأ، إلى استنفاد جل طاقات المجتمع الإسرائيلي.

٣. غياب التأييد الواسع في الساحة الدولية: إن غياب التأييد، لا ينبع فقط من أعمال وتصرفات إسرائيل، وإنما لأنه لا توجد في المنظومة الدولية، كتلة تضم ستين دولة، تصوت أثنوماتيكياً ضد إسرائيل، هذا يعني وجود قيود في الجدول الزمني الدولي، عندما تريد إسرائيل القيام بأي عمل عسكري، أي أنها تملك زمناً قصيراً جداً، لاستنفاد قدرتها العسكرية.

٤. الحسم: ليس في استطاعة إسرائيل الحاق الهزيمة بأعدائها، وليس في إمكانها فرض تغيير أنظمة حكم في العالم العربي، ولا حتى إحداث تغيير في مفاهيم ومواقف هذه الأنظمة، في المقابل فإن انتصاراً واحداً يحققه أعداء إسرائيل، كفيل بتصفية وجودها. ويشكل هذا اللا تناظر أحد عوامل التأثير الكبرى، على مبنى القوة العسكرية، ولا بد للجمهور في إسرائيل، وفي مقدمه صانعو القرارات من أن يدركوا ذلك.

٥. الوسائل: إسرائيل مقيدة من حيث الوسائل، التي في إمكانها اللجوء إليها. فهي لا تستطيع شن عمليات قصف مركزة، بالقنابل على مناطق مدنية، كما فعلت روسيا في الشيشان مثلاً، [وينسى ويتناسى قصف أميركا لملجأ العامرية في بغداد إبان الحرب على العراق]. ولذلك فإن دعوات من قبيل «هيا نسحقهم وندمرهم» وما شابه لا تتصف بالمسؤولية والجدية، لذلك لا يجوز لنا أن نخدع أنفسنا، يجب على إسرائيل أن تحافظ على الحد الأدنى الضروري، من القواعد الأخلاقية، إذا ما كنت ترغب في أن تبقى دولة ديمقراطية، ويهودية.

هذه اللاتناظرات كلها نافذة على قاعدة المنطق القائل: بأن وجود إسرائيل في الشرق الأوسط غير مرغوب فيه، وان وجودها مرغوب بقدرتها، على ردع أعدائها، وليس في تغيير مواقفهم ومنطلقاتهم.»^(٢٤)

تحليل الخطاب:

يمكن ان نستنتج «أن الفكر ليس ما يجعلنا نؤمن بما نفكر، أو نرضى بما نفعل، بل هو ما يجعلنا نطرح مشكلة ما نحن عليه بالذات.»^(٣٥) وذلك من منطلق أن «ليس من عمل الفكر أن يدين الشر الذي قد يسكن كل ما هو موجود، بل أن يستشعر الخطر الذي يكمن في كل ما هو مألوف، وأن يجعل كل ما هو راسخ موضع إشكال.»^(٣٦)، وأن الخطاب قد احتوى

على الأطر المعرفية-والتي صاغ منها الخطاب الإعلامي جزءا كبيرا من استراتيجياته والتي ضمنها اهدافه ومقاصده، وذلك لأن «الجملة المرجعية (الواردة في الخطاب) هي التي تتيح للخطاب أن يتحقق»^(٣٧)، كما وردت في خطاب يعقوب عميد رور- بالإضافة إلى عدد من الاستراتيجيات غير المذكورة في خطابه، لأنه يركز على الناحيتين الأمنية والعسكرية. وهذه الأطر هي:

« العالم العربي المحيط بإسرائيل، عالم تهديدي ويشكل مخاطر وجودية على اسرائيل لذا، فهو عالم معاد لإسرائيل، لا يقبل بوجود دولة يهودية مستقلة وذات سيادة، في قلب الشرق الأوسط، وسيبذل كل ما في استطاعته للقضاء عليها، وترتب على هذا المبدأ اتخاذ كافة الإجراءات العسكرية وامتلاك القوة العسكرية، وتطوير العقيدة العسكرية، والعيش تحت مظلة نووية، مما يتساقط مع حجم التهديدات والمخاطر في وسط هذا المحيط العربي المعادي. وهذا يتطلب دائما من اسرائيل رصد التهديدات ووضع التهديد في محمل الجد والسيناريو الأكثر خطورة عليها، والتعامل مع هذه الخطورة في الوقت المناسب.

إن القارئ للخطاب سيكتشف ان التشكل الفعلي للخطاب يحاول أن يمسك الخطاب قدرته على الاثبات، بل أقصد القدرة على تشكيل مجالا من الموضوعات مجالات تثبت بصدده، أو تنفي قضايا صحيحة أو خاطئة، ولنطلق على مجالات الموضوعات اسم (الوضعيات.)^(٣٨) لأن الخطاب يتشكل من وضعيات مختلفة ولكل وضعية منها مضامين تهديدية محددة اشتغل عليها الخطاب الاعلامي الاسرائيلي.

« عدم الوثوق في الاتفاقات التي وقعتها إسرائيل مع مصر و م.ت.ف. والاردن. مما يعني عدم الركون إلى هذه الاتفاقات في معنى مبطن غير ظاهر في لغة مباشرة. هذا الإطار المعرفي شكل استراتيجية حل الدولتين والدولة الواحدة.

« عدم الاعتماد على النظم التي تدور في فلك إسرائيل وتربطها علاقات تعاون عسكري وأمني واقتصادي، وعلمي، لأنها معرضة للتغيير، وساق أمثلة على ذلك "العراق، تركيا إيران"، ليقدم برهانا معرفيا، بوجود احتمالية دخول مثل هذه الدول في دائرة التهديد لإسرائيل.

« بناء نظرية أمنية، تأخذ بالحسبان أسوأ المتغيرات المحتملة التي قد تحدث في الدول والنظم ذات العلاقة بإسرائيل والتي تتطلب عقيدة أمنية، تمتلك القدرة على مواكبة المتغيرات وعلى مواجهة التحديات، والمخاطر، والتهديدات الناجمة عن هذا التغيير.

« صغر مساحة إسرائيل الجغرافية بالقياس مع محيطها العربي ومع جاراتها، إن هذا الإطار المعرفي تحول إلى استراتيجية الاستيطان في الخطاب الإعلامي، ودفع صناع القرار

ومتخذه أيضا باتجاه الضم للضفة الغربية واستكمال تهويد القدس، لذلك فلا غرابة، أن نجدهم ينظرون لموضوع صغر مساحة إسرائيل، وهذا من وجهة نظرهم، يشكل تهديدا، فالحل لا يكون الا بالتوسع الكولونيالي، أي بممارسة العدوان، لذا، «كرست الحركة الصهيونية جل مصادرها، بغية تثبيت الجماعة السكانية القائمة وتسريع بلورتها، كمجتمع قابل للحياة، وعلى توسيع الأرض التي تحت سيطرتها، وعلى اجتلاب أعداد متزايدة من اليهود إلى أرض فلسطين»^(٣٩)، من هنا لجأت إسرائيل إلى استراتيجية حرب كل عشر سنوات تقريبا، وإلى عمليات اجتياح وقصف جوي خلال العشر سنوات بهدف اضعاف الفلسطينيين، والعرب وفرض شروط لتسوية مذلة، وخلق وقائع على الأرض. بما يتيح لإسرائيل بناء المستعمرات، لأنهم يرون أنه «ثمة تمييز واضح بين إسرائيل الواقعة في نطاق حدود ما قبل حرب الأيام الستة (حرب ١٩٦٧) وبين أرض إسرائيل (فلسطين) في حدود الانتداب البريطاني، عشية الإعلان عن تقسيم أرض إسرائيل في تشرين الثاني ١٩٤٧»^(٤٠)، هكذا يتم قلب الوعي في العقل الإسرائيلي، ففلسطين الانتدابية، تصبح (إسرائيل) وأرض فلسطين، تصبح أرض إسرائيل، لذلك كان «مصطلح «أرض إسرائيل» غامضا على الدوام حين يتعلق الأمر بالحدود الدقيقة، فإن المصطلح يحدد الملكية بكل وضوح.»^(٤١)

« مواجهة الإرهاب المتعدد «حزب الله وحماس، ومن الضفة الغربية.
« الاحساس بالعزلة الدولية نتيجة عدم وجود تأييد دولي كاف لإسرائيل لدوام الاحتلال واستمراره.

« الحسم: ويعني عدم قدرة إسرائيل على تحقيق انتصار على أعدائها، الأمر الذي يترتب عليه تصفية وجود إسرائيل، وعلى الرأي العام الإسرائيلي وصناع القرار إدراك هذه المخاطر.
« الوسائل: تدعي إسرائيل أنها مقيدة في استعمال الوسائل العسكرية (إسرائيل مقيدة من حيث الوسائل، التي في امكانها اللجوء إليها) وتتنكر بالمطلق إلى استعمالها للأسلحة المحرمة دوليا في عدونها على لبنان عام ١٩٨٢، وعلى لبنان عام ٢٠٠٦ وعلى قطاع غزة.
« محدودية الديموغرافيا الإسرائيلية وهنا يقصد اليهودية ما يضع معادلة الكثرة السكانية العربية مع المساحة الكبيرة في مقابل ديموغرافية يهودية قليلة ومساحة جغرافية صغيرة وجيش صغير فعليه أن يقر أنه «سيكون بمقدور إسرائيل البقاء والاستمرار في الوجود فقط، إذا ما توفرت فيها، أغلبية يهودية صهيونية واضحة، تعيش في منطقة جغرافية تسمح مقاساتها وحدودها، بتحقيق سيادة الدولة والدفاع عنها، وإذا ما عم فيها مستوى معيشي يلائم مجتمعا غربيا.

إن تحقيق هذين الشرطين، الضروريين لوجود إسرائيل اليهودية الصهيونية ليس أمرا مفروغا منه، أن السيرورات، الديمغرافية الجارية في إسرائيل، تهدد القدرة على تحقيقها.»^(٤٢)
لهذا، يتفق العقل الإسرائيلي، على فكرة الترانسفير للفلسطينيين العرب الذين لم يغادروا

وطنهم، لتحقيق هذه الغاية. (التوازن الديموغرافي) وصولاً إلى أغلبية يهودية، ودفع هذا العقل المرعب إلى التفكير إلى ما هو أبعد من ذلك، وهو العمل على ابتكار الأساليب للحد من تكاثر الفلسطينيين العرب الذي صمدوا في وطنهم فإن سيفضي إلى تكاثر اليهود "ونتيجة لوقف التكاثرين العرب، ولأن نسبة التكاثرين الحريديم المتدينين القوميين في إسرائيل، ستبقى مرتفعة نسبياً، فإن نسبة اليهود قد ترتفع نسبتهم على أعتاب العام ٢٠٣٠م تحديداً، إذ يتوقع أن ترتفع نسبتهم في هذا العام إلى ٧٢،٢٪ (بحسب مكتب الإحصاء المركزي، ٢٠١٠)."^(٤٣).

أتينا فيما تقدم على ذكر الأطر المعرفية المؤسسة للتهديدات والمخاطر الإسرائيلية، وكذلك استعرضنا ماهية هذه المخاطر والتهديدات، وسنقوم باستعراض أبعاد هذه التهديدات والمخاطر وتطورها التاريخي، حتى نكتشف طبيعة العقل الإسرائيلي، وماهية تفكيره التي تشكل الوعي، وتفرض نفسها على أنماط التفكير وعلى البنى المعرفية والثقافية وعلى الاستراتيجيات العسكرية والأمنية، حيثما تصبح لاهوتا، يتم الاتكاء عليه وتوظيفه لتجسيد الرأي العام الإسرائيلي، والأمريكي، خصوصاً اليهود الأمريكيين، فما هي هذه الأبعاد التي حددها منتج الخطاب المعرفي:

هناك ثلاثة أبعاد للتهديدات المحدقة، بإسرائيل تطورت بمرور السنوات وهي:

أ. القدرة العملية التي يمتلكها الطرف الآخر، على أساس المتاح له، ومدى استعداده للتضحية، وقدرته على منع سقوط النظام.^(٤٤)

ب. ينطلق الجنرال يعقوب عميدور من التاريخ الذي لم يأت على ذكره في هذا المقال وهو أنه «عشية إعلان «الاستقلال» عام ١٩٤٨، بدأ التهديد في فلسطين أكثر شؤماً بكثير، وأعلن ديفيد بن غوريون، أن «٧٠٠» ألف يهودي قد وضعوا في مواجهة ٢٧ مليون عربي—أي ما نسبته واحد إلى أربعين» وانضمت الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة، في فرض حظر لتصدير السلاح إلى المنطقة، معززة بذلك تفوقاً عربياً واضحاً في ميزان التسلح، وعزز الأمريكيين اليهود مخاوف من وقوع «حل نهائي» نازي آخر. وإذ استهجن «اللجنة الأمريكية اليهودية» أن تسلح الدول العربية، تابع هتلر المفتي [أمين الحسيني]، فيما تفرض الولايات المتحدة حظر تسليح على المنطقة». فقد توقع انتحارا [يهودياً] جماعياً وهو لوكوستيا كاملة في فلسطين.^(٤٥)

ج. نلاحظ كيف يتم توظيف المحرقة النازية مع ربط مقصود بين الحاج أمين الحسيني وهتلر لشحذ الذاكرة المصحوب بالفوبييا، وتصوير الحالة اليهودية في فلسطين على أنها قريية من حافة الهاوية والتي أطلقوا عليها مصطلح «حل نهائي ، نازي آخر» وحتى تتضح

صورة الحل يتم استحضار الهولوكوست المصنعة عند اليهود الأمريكيين.

في حين ضرب عميدروور مثلا آخر في سياق تاريخي آخر على ذلك، وهو ما حدث» في سوريا في النصف الثاني من عقد الثمانينيات، ففي أعقاب التطورات التي شهدتها العالم. ومن ضمن ذلك خروج مصر من دائرة المواجهة بعد توقيعها على معاهدة السلام مع إسرائيل، أدرك (الرئيس السوري الراحل) حافظ الأسد بشكل قاطع، أنه لا يستطيع القضاء على دولة إسرائيل^(٤٦) طالما يعترف منتج الخطاب المعرفي بأن سوريا غير قادرة على أو غيرها القضاء على إسرائيل، فلماذا يصر على تبني القوة لإزالة التهديدات الافتراضية.

د. قيود امتلاك الأسلحة: لا تملك غالبية الدول العربية قدرة حقيقية على إنتاج الأسلحة. ولكن هناك حالتين شاذتين، فمصر تملك صناعة أسلحة، وإن لم تكن متطورة جدا، فيما تملك سوريا قدرة على صنع الصواريخ على اختلاف أنواعها، ومن ناحية مبدئية، فإن إمكانية الحصول على أسلحة حديثة من الخارج تشكل أحد العوامل المؤثرة على نشوء التهديدات من جانب دول وجهات غير دولانية، وهذا ما يدفع إسرائيل دائما امتلاك السلاح دون حدود وترفض أي توجه لنزع أسلحة الدمار الشامل من المنطقة، وهو ما حدا بها إلى تدمير المفاعل النووي العراقي واغتيال علماء الذرة العراقيين، وتدمير المفاعل النووي السوري واغتيال المشرف عليه في طرطوس. وهي تحاول وصف البرنامج النووي الإيراني بأنه يشكل تهديدا وتذهب كل مذهب لتبرير الضربة العسكرية الإسرائيلية للمنشآت النووية الإيرانية، وشرعت عمليا في اغتيال علماء الذرة الإيرانيين وفي تحريض الدول الغربية وأميركا والعربية ضد إيران لفرض مزيد من العقوبات الاقتصادية عليها، كما فرض من قبل على العراق وصولا لتصفية علماء الذرة العراقيين.

هـ. فهم الطرف الآخر لكيفية القدرة على تحقيق إنجازات ومكاسب أثناء الحرب. فالأهمية التي اكتسبها جهد النيران في السنوات الأخيرة، تستند إلى فهم الطرف الآخر، للمستطاع وغير المستطاع تحقيقه. هذا التهديد ينشأ في الأوقات أو الظروف التي تؤدي فيه انتصارات إسرائيل إلى تغير في التهديدات، وظهور تهديدات جديدة، في أعقاب إدراك الطرف الآخر، بأنه لا يستطيع تحقيق إرادته في ساحة القتال.^(٤٧)

نلاحظ بوضوح كيف يوظف الخطاب استراتيجية الاقناع عبر طابع نسق من التهديدات مما يجعلها تتمثل الوقائع والتحويلات تمثالا خاصا في الذهنية الادراكية للجمهور «المتلقي» فتتحقق غاياتها بتقبل التهديدات وتتفاعل معها، مما يؤثر فيه، ويدفعه إلى اتخاذ سلوك ما.

مراجع الدراسة

- ١- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
- ٢- المرجع نفسه، ويكيبيديا
- ٣- المرجع نفسه، ويكيبيديا،
- ٤- المرجع نفسه، ويكيبيديا،
- ٥- د. عائدة سيد خطاب الإدارة الاستراتيجية للموارد البشرية كيبوترا للطباعة والنشر، القاهرة، ط١٩٩٩، ص ٤
- ٦- توماس شيلينج، استراتيجية الصراع، ترجمة نزهت طيب، وأكرم حمدان، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، بيروت ط١، سنة ٢٠١٠، ص ١١
- ٧- جمعان بن عبد الكريم، اشكاليات النص، النادي الأدبي بالرياض، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، سنة ٢٠٠٩، ص ١٧٥
- ٨- مرجع سبق ذكره، جمعان عبد الكريم
- ٩- بيير بورديو، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة، درويش الحلوجي، دار كتعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، ط١، سنة ٢٠٠٤، ص ٩٥
- ١٠- مرجع سابق بيير بورديو، ص ٨٦
- ١١- مرجع سبق ذكره، بيير بورديو، ص ١٠٦
- ١٢- هربرت أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة ٢٤٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الإصدار الثاني، ١٩٩٩، ص ٢٣
- ١٣- أحمد العاقد، تحليل الخطاب الصحفي من اللغة إلى السلطة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط٢٠٠١، ص ١٦
- ١٤- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص، المفهوم، العلاقة، السلطة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢٠٠٨، ص ١٤١
- ١٥- خالفي حسين، البلاغة وتحليل الخطاب، دار الفارابي، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط٢٠١١، ص ١٨٦
- ١٦- ميشال فوكو، حفرات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٢٠٠٥، ص ٢٧
- ١٧- مرجع سبق ذكره، خالفي حسين، ص ١٨٦
- ١٨- أوري افنيري، «الصهيونية طريق اسرائيل الى الانتحار»، الايام، الثلاثاء، ١٤/٨/٢٠١٢.
- ١٩- مرجع سبق ذكره، هربرت أ. شيللر، المتلاعبون بالعقول، ص ١١-١٢
- ٢٠- أحمد سيف، المقال نشر في (الحياة) لندن، عنوان المقال «تحولات الإعلام الإسرائيلي» قراءة في كتاب أمل جمال، الصادر عن مدار، المشهد الإسرائيلي مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، الثلاثاء، ٢٩/١١/٢٠٠٥
- ٢١- جورج اورويل، عن مقال للكاتب عماليا روزنبوم بعنوان «اورويل في اسرائيل» هارتس، الثلاثاء ٢٨/٨/٢٠١٢، الحياة الجديدة، الاربعاء ٢٩/٨/٢٠١٢
- ٢٢- محمد شومان، الخطاب الإعلامي: غموض المفهوم واختلاف أدوات التحليل. http://daharchives.alhayat.com/issue_archive/Hayat%20INT/2007/6/17
- ٢٣- مرجع سبق ذكره، عبد الواسع الحميري، ص ١٨٧
- ٢٤- مرجع سبق ذكره، هربرت أ. شيللر، ص ٣٤
- ٢٥- سوزان روبين سليمان، وأنجي كروسمان، القارئ في النص، ترجمة حسن كاظم، وعلي صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٧، ص ٩٠
- ٢٦- عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١٩٩٤، ص ٤١

- ٢٧- مرجع سبق ذكره، عبد العزيز العيادي، ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، ص ٩
- ٢٨- خالد علي زاوي، مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين، مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، ٢٠١٢، ص ٢٦.
- ٢٩- د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، ص ٩٨.
- ٣٠- نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٢٠٠٠، ص ١٨
- ٣١- الجنرال احتياط يعقوب عميد رور، رئيس أسبق لشعبة الاستخبارات العسكرية (أمان) والمنشورة في نشرة «جيش واستراتيجية» معهد دراسات الأمن القومي، جامعة تل أبيب، عدد حزيران ٢٠١٠، المشهد الإسرائيلي، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. الثلاثاء، ٢٢/٦/٢٠١٠، ص ١٥.
- ٣٢- مرجع سبق ذكره، نصر حامد أبو زيد، ص ١٥.
- ٣٣- مرجع سبق ذكره، أحمد العاقد، ص ٤٥
- ٣٤- الجنرال احتياط يعقوب عميد رور، مرجع سابق
- ٣٥- ميشيل فوكو، نسائية الأخلاق، حوار مع هيبوبر توديفوسوبول رابنوف، ضمن كتابهما، فوكو مسيرة فلسفية، تعريب جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص ٢٠٤
- ٣٦- مرجع سابق، ميشيل فوكو، نسائية الأخلاق، ص ٢٠٤
- ٣٧- مرجع سبق ذكره، سوزان روبين سليمان، وأنجي كروسمان، ص ٨٨
- ٣٨- ميشيل فوكو نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٥٠
- ٣٩- د. اسماعيل الناشف، فك الصهيونية، الفضاء والايديولوجيا في المدينة الإسرائيلية معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١٤.
- ٤٠- يفعينيا بستروف، وأرنون سوفير عنوان، إسرائيل ديمغرافيا ٢٠١٠-٢٠٣٠ في الطريق نحو دولة دينية، أوراق إسرائيلية ٥٥، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، رام الله،
- ٤١- د. نور مصالحة، الصهيونية واللاجئون الفلسطينيون، ترجمة عزت الغزاوي، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مدار، رام الله، ٢٠٠٣، ص ١٧
- ٤٢- مرجع سبق ذكره، يفعينيا بستروف، وأرنون سوفير، ص ٢٧.
- ٤٣- مرجع سبق ذكره، يفعينيا بستروف، وأرنون سوفير، ص ٢٨.
- ٤٤- الجنرال احتياط يعقوب عميد رور، مرجع سابق، نشرة «جيش واستراتيجية» معهد دراسات الأمن القومي، جامعة تل أبيب، عدد حزيران ٢٠١٠، المشهد الإسرائيلي، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مدار، رام الله، ٢٠٠١، ص ٣٥
- ٤٥- د. نورمان فنكلستين، ترجمة، د. سماح ادريس وأيمن حداد، دار الآداب، بيروت، ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٥
- ٤٦- الجنرال احتياط يعقوب عميد رور، مرجع سابق، نشرة «جيش واستراتيجية» معهد دراسات الأمن القومي، جامعة تل أبيب، عدد حزيران ٢٠١٠، المشهد الإسرائيلي، مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. الثلاثاء، ٢٢/٦/٢٠١٠، ملحق يوزع مع جريدة الأيام
- ٤٧- مرجع سابق الجنرال احتياط يعقوب عميد رور، المشهد الإسرائيلي

تجربة الحراك المجتمعي لاستعادة الوحدة الوطنية حتى ٢٠١٦

عبد الحميد ابو النصر *

المقدمة:

قد تكون حالة الانقسام التي تجسدت من خلال سيطرت حركة حماس منذ عام ٢٠٠٧ على حكم قطاع غزة، هو الشكل النهائي، فيما الانقسام السياسي كان قائما منذ سنوات طويلة وقد ظهرت ملامحه عام ١٩٩٦ بين حركتي فتح وحماس خلال اشتباكات عنيفة، واعتقال كوادر كبيرة من حماس آنذاك، لكن وجود رمزية القائد ياسر عرفات كرئيس لكل الشعب الفلسطيني، وسماحة الشيخ احمد ياسين ساهمت في تجاوز هذه الهوة الخطيرة بين الحركتين ومنع تدهور الاوضاع.

الانقسام بين الضفة وغزة أدى الى انفصال سياسي عمق الانفصال الجغرافي بسبب وجود الاحتلال الاسرائيلي، ومنذ ذلك الحين تأزمت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في فلسطين، وقد يكون قطاع غزة اكثر تضررا، خاصة بعد ثلاث حروب متتالية خلال سنوات الانقسام منذ اواخر عام ٢٠٠٨ حتى عام ٢٠١٤، ادى لسقوط الاف الشهداء، ودمار قدر في الحرب الاخيرة بـ ٤ مليار دولار ضرب كل نواحي الحياة من بنى تحتية، وحتى المصانع والمؤسسات الرسمية والمدنية، اضافة لتزايد البطالة، وارتفاع خط الفقر ليسجل الاعلى منذ سنوات طويلة، وحصار وإغلاقات طويلة للقطاع، وتدهور في القطاع الصحي بشكل كبير وارتفاع نسبة الاصابات بأمراض العصر.

نشوء الحركة الشبابية في مواجهة الانقسام:

بعد سيطرت حركة حماس وتأزم الوضع في القطاع خاصة وفي فلسطين عامة، ووصول أطراف النزاع السياسي الى طريق مسدود في إتمام المصالحة، بدأت تبلور أفكار لدى الشارع الفلسطيني خاصة في قطاع غزة باعتباره الاكثر تضرراً نحو احداث تغيير حقيقي يفضي بالنتيجة لإعادة اللحمة والضغط نحو تنفيذ الاتفاقات حول المصالحة، وإعادة سير العملية الديمقراطية الى نصابها الصحيح. وقد سبق ذلك خروج جماهيري خجول، متردد، مندفع، غير منظم، للتعبير عن حالة الغليان مستغلا أي حدث او فعالية للاستنفار نحو التعبير عن

حالة الغضب لدى الشارع الفلسطيني ، ومنها كان اندفاع الجماهير نحو احياء ذكرى رحيل القائد الكبير ياسر عرفات في ساحة الكتيبة بغزة في السنوات الاولى من الانقسام ، وخرجت جموع غفيرة تعبر عن رفضها للحالة الراهنة، مما ادى للتصادم بين قوات حماس والمتظاهرين وسقوط جرحى وشهداء ، وهنا بدأت التراكمات السلبية تزيد من حالة الغليان لدى الشارع ، خاصة مع استمرار حالة الاحباط واليأس من تفاقم الازمة السياسية ، فتبلورت تحركات شبابية وفق أفكار منفصلة مبعثرة ، ووفق عمل غير شمولي ، لكن بمحصلته يريد انهاء حالة الانقسام السياسي ، وقد ساهم في هذا التفكير جزء من أبناء حركة فتح ، واليسار من الجبهة الشعبية والديمقراطية وحزب الشعب وفدا وغيرها من القوى، الذين عبروا في بيانات سابقة عن رفضهم هذه الحالة من الانقسام، على الاقل في قطاع غزة ، فيما عبرت حركة حماس عن رفضها لهذه الحالة في الضفة باعتبار ان ممارسات السلطة قد طالتها ايضا هناك، فكانت عملية تبادلية في بلورة الافكار وفق المعطيات والتحركات على الارض، وهنا تداعى الشباب الفلسطيني من مختلف الاطر الحزبية والمستقلة، والطلابية، والعاملة، والعاظلة، بتشكيل تجمعات هنا وهناك في محاولة لإحداث تحرك ما في الشارع ، وانهاء هذه الحالة المقيتة ، وقد كان اول ما اصطدمت به هذه التحركات هو اجراءات الامن في غزة والضفة ، فيما كان في اعلى مستوياته في القطاع باعتبار ان التجمعات والتحركات الاكبر فيه ، وكانت تتحجج الحكومة في غزة بأن هذه التحركات موجهة ضد حركة حماس دون فتح ، فيما في الضفة كانت تقمع أي تحركات ضد ممارسات السلطة، وشن حملات اعتقال واسعة ضد نشطاء حماس هناك ، على غرار عمليات الاعتقال للنشطاء الفتحاويين في القطاع .

بدايات التحركات المجتمعية لاستعادة الوحدة:

كل هذه التحركات أفضت الى اول حشد جماهيري كبير بقيادة شابة خالصة، وذلك في يومي ١٤ اذار و ١٥ اذار من عام ٢٠١١، وهناك عدة عوامل وأسباب لذلك: خارجيا: اندلاع ثورات الربيع العربي التي احدثت تغيرات سياسية، وأسقطت انظمة وحكومات عربية، قادها الشباب العرب، مما شكل حافزاً لدى الشباب الفلسطيني نحو الاندفاع للتغيير الحقيقي والتخلص من الشوائب المجتمعية على رأسها المتسببين في الانقسام الذي ارق الحياة الفلسطينية، اضافة الى حالة الغيرة الايجابية لدى الشباب الفلسطيني من التحرك الشباب العربي وقدرتهم على التغيير بينما أظهر ذلك عجز الشباب الفلسطيني نتيجة لفشل التحركات العربية لإنهاء الانقسام رغم الرعاية التي قدمتها دول كبيرة كسعودية ومصر، واليمن، وقطر، وغيرها للخروج من المأزق، والتأثر السياسي الفلسطيني بنزعات اقليمية عمقت فجوة الانقسام، ادى الى فشل متكرر للتحركات العربية والدولية نحو تحقيق المصالحة.

محلياً: كان فشل كل التحركات السياسية الوطنية في تحقيق الوحدة والمصالحة، بعد عدد من المبادرات كان أهمها وثيقة الاسرى ٢٠٠٦ التي وضعت اسس وحلول وناقشت كافة القضايا الوطنية العالقة، اضافة لكونها صادرة عن الاسرى الفلسطينيين الذين دفعوا ثمن نضالهم في سجون الاحتلال. وحالة الاستقطاب الفصائلي وزيادة التراشق، والتهم المتبادلة بين الضفة وغزة وحماس وفتح، وعمليات الاعتقال المستمرة لدى الطرفين. مع تفاقم الازمة الاجتماعية خاصة في قطاع غزة، في كافة مناحي الحياة وتعطل مسيرة التطوير والبناء، والتحول الى حالة الفقر المدقع، وانهيار في البنى التحتية، والقطاع الصحي والاجتماعي، وتراجع في المفهوم الثقافي الشمولي الجامع لمختلف الأيديولوجيات. واستغلال الاحتلال الاسرائيلي لهذه الحالة، ولعبه على وتر تأجيج الانقسام من خلال فصل القطاع عن محيطه الخارجي، واستغلال ظروف الثورات في مصر، وشن عدوانات متكررة على غزة.

خرج الشباب بالمئات ظهر ١٤ اذار بقيادة مجموعة ١٤ اذار تمهيدا للخروج الكبير التي دعت له كافة الاطر الشبابية والطلابية وبعض الاحزاب والمثقفين والكتاب، واقترح الشباب حتى صبيحة ١٥ اذار الارض وباتوا ليلتهم في ساحة الجندي المجهول، حماس هنا لم تتدخل بشكل عسكري في مساء ١٤ اذار بل ادخلت عناصرها المدنية وشبابها لمحاولة المشاركة وسحب المنصة من المجموعات الاخرى المنظمة، فيما كان جانب اخر من الامن يتفاوض مع قوى ١٤ و١٥ اذار لإعطاء ساعة محددة للخروج من الجندي وهذا كان مرفوض بالمطلق، وفي صباح اليوم التالي ١٥ اذار تداعت الجماهير بالألاف، وبمشاركة عناصر تابعة لحماس الذي دخلوا ساحة الجندي لإعطاء الطابع الاسلامي للمسيرة، فانسحب المنظمون الاصليون ودعوا جماهيرهم، للانطلاق نحو ساحة الكتيبة، واستجابت لهم الجماهير، حتى مساء ١٥ اذار وانتهى بتدخل عناصر الامن في غزة وفضه بالقوة.

انتهت التجربة التي عول عليها الشارع واعتبرت أكبر خروج جماهيري آنذاك، مما ادى ذلك لإحباط كبير في الشارع الفلسطيني، إلا أن الياس لم يتسلل الى الشباب الذي تنوعت تشكيلاته بين مجموعة ١٤ اذار، وائتلاف ١٥ اذار، و٥ حزيران، وكفى، وشباب الرابطة الاسلامية، والكتلة الاسلامية، والمجلس التشريعي الشبابي، وغيرهم من الشباب سواء بشكل فردي او جماعي، دعاهم ذلك للاستمرار في التحرك فتم بشكل سريع التحضير لتحرك اخر في نفس الشهر. بمناسبة يوم الارض ٣٠ اذار، وفعلاً بدأ التجمع في جامعة الازهر، واندفع الشباب والفتيات بهتافات ضد الانقسام من باب الازهر مشياً حتى تقاطع الطيران، وهناك حاصر الامن في غزة المسيرة من الخلف واشبع المتظاهرين ضرباً، وتم فض التحرك، واعتقل بعدها اغلب الناشطين المشاركين في هذه التحركات.

لم يأس الشباب وقرر استكمال تحركاته بعد أشهر فتداعى بعض من شارك في تحركات اذار لإنشاء تحرك شبابي باسم انتباه، وأصدر هذا التجمع بيانات ومقاطع فيديو ضد الانقسام، تدعو للمصالحة، إلا أن مصيره انتهى كسابقه من التحركات.

عاد الشباب بالدعوة للخروج في ٢٩ نيسان ٢٠١٥، ولكن الخلاف بينهم حول منطقة الخروج حيث، وافق جزء منهم على عرض حماس بان يكون في منطقة الشجاعية وسط الدمار، وهذا كان طرح مرفوض من عدد كبير باعتبار ان المكان غير استراتيجي ولن يؤثر او يحرك الشارع لأنه في منطقة نائية، فيما كان الراي الاخر اتخاذ قرار بمقاطعة الشجاعية وأعلن عن تجمعهم في السرايا، وانتهى الامر بفض تظاهرة السرايا، فيما تظاهرة الشجاعية حدث فيها خلاف بين المنظمين ادى الى انسحابهم من المكان وسط حالة فوضى عارمة.

المحاولات الشبابية بعد ذلك لم تنضج لحراك كبير بحجم ١٥ اذار وادى ذلك لإحباط كبير في صفوفهم، الا ان خلال هذه السنوات تخللها تحركات هنا وهنا، شملت حصار بعضهم لفندق موفمييك الذي كان يجتمع فيه اعضاء وفدي فتح وحماس والفصائل المشاركة في المصالحة، فيما بعدها تحركت مظاهرة لمنزل رئيس الوزراء السابق الذي كان يجتمع فيه وفدي الانقسام، حيث تحركت مجموعات انهاء الانقسام صباح اتفاق الشاطئ ٢٣/٤/٢٠١٤ الى بيته ليضغطوا على الطرفين واعلن عن الاتفاق وسط تهليلات المتظاهرين الا انه ثبت فشل الاتفاق كغيره، كما المبادرات والاتفاقيات السابقة التي لم تنفذ.

مؤسسات ضد الانقسام:

عملت عدد من مؤسسات المجتمع المدني على ملف المصالحة وانهاء الانقسام منها: مؤسسة بال ثينك التي عقدت لقاءات على مدار سنوات، استضافت فيه شخصيات فصائلية وأكاديميين وكتاب ومثقفين واقتصاديين تناولت خلاله ملف المصالحة وتداعيات الانقسام، فيما شكلت لجنة لإعداد فعاليات مستمرة حول ذلك، تمخض عنها عقد لقاءات في الضفة الغربية منها جامعة بيرزيت معهد ابو اللغد، مع شخصيات اكااديمية ومثقفة وقانونية، وايضا في غزة عقدت عدة لقاءات مباشرة تعزز ذلك.

وكان لمؤسسة بيت الحكمة جهود في ذلك حيث التقت واستضافت كثير من الشخصيات لبحث سبل الخروج من الازمة وتحقيق المصالحة. فيما شارك شباب مؤسسة دراسات التنمية في الفعاليات التي نظمت ضد الانقسام منها وقفة امام مقر اجتماع وفود المصالحة (موفمييك) و١٥ اذار وغيرها من التحركات. اما تحالف السلام الفلسطيني نظم العديد من اللقاءات

بحضور شخصيات من فتح وحماس والفصائل وناقشت هذا الملف على مدار سنوات الانقسام.

مؤسسة مسارات قادت تحرك وأصدرت وثيقة الوحدة الوطنية شملت رؤية كاملة للمصالحة وعقدت لقاءات في الضفة الغربية وقطاع غزة في الشتات لمناقشتها، وعقدت عدد من اللقاءات داخل مقرها عبر الفيديو كونفرنس بين رام الله وغزة ناقشت مع أكاديميين وسياسيين ومثقفين واحزاب وغيرهم من الشخصيات، سبل الوصول لحل للمشاكل التي ترتبت عن الانقسام، فيما عقدت عدة لقاءات في بيروت وأروبا بهذا الخصوص وعقدت مؤتمراتها السنوية التي ناقشت استراتيجيات الوحدة.

المرأة والانقسام

المرأة لم تغب لحظة عن هذه التحركات كانت حاضرة ابرزها تحركات الاتحاد العام للمرأة الذي قاد وقفة اسبوعية كل ثلاثاء امام المجلس التشريعي الفلسطيني، تدعو لإنهاء الانقسام، شاركت فيه المرأة من كل الاطر والتنظيمات، واستمرت هذه الوقفة لسنوات الا انها توقفت بعد ذلك، فيما نظمت مؤسسة مفتاح اكبر تجمع نسائي في الضفة الغربية وقطاع غزة ٢٠١٦/٣/١٤ ضد الانقسام شمل وقفة امام مقر التشريعي في رام الله ، ويقابله تجمع مقابل مقر التشريعي غزة، وعقدت مؤتمر نسوي كبير برام الله وغزة بعنوان : « رفع صوت النساء لإنهاء الانقسام وتحقيق المصالحة »، في اكتوبر ٢٠١٥ اضافة للقاءات اخرى نظمتها في مقرها لمناقشة الانقسام .

التجمعات المجتمعية ضد الانقسام:

التجمعات التي أسست بغرض انهاء الانقسام كان اهمها: تجمع الشخصيات المستقلة الذي عمل منذ سنوات على ذلك وتحرك على مستوى داخلي بلقاء شخصيات ذات صلة بالمصالحة وعلى مستوى عربي بلقاء شخصيات عربية، فيما انتهى الامر بالتجمع بعزل رئيسه وانشق عنه مجموعة أخرى حملت نفس الاسم، وتوقف نشاطه.

وأنشئت هيئة الوفاق الوطني الفلسطينية في مارس ٢٠١١ الذي ضم شخصيات من تيارات مختلفة في غزة لحل قضايا الانقسام. وفي ٢٠١٦ تشكلت وطينون لإنهاء الانقسام ضمت العديد من الشخصيات ومن مختلف القوى على مستوى الضفة الغربية وقطاع غزة وارااضي ٤٨ وقد نظموها وقفة في الجندي المجهول في ٢٢ اكتوبر ٢٠١٦ خرج فيها المئات، فيما خرجت مقابلها العشرات في دوار الساعة برام الله، بعد عقدها عدة مؤتمرات في المحافظات،

وتأسس في نفس العام مجموعة الحكماء التي أصبح اسمها فيما بعد مجموعة المائة تضم شخصيات من غزة والضفة والشتات، وقد شاركت في التحركات الميدانية.

وعقد الوجهاء والمختير في المحافظات الجنوبية مؤتمر كبير وحاشد بعنوان مؤتمر العشائر لإنهاء الانقسام في ٢٠١٦/٣/٦ ضم كل مختير القطاع في قاعة رشاد الشوا، طالبوا بإنهاء الانقسام وهددوا بالنزول للشارع في حال استمرت حالة الانقسام ودق ناقوس الخطر، الا انه لم يعقد أي مؤتمر لهم، ولم ينظموا أي وقفة بعد ذلك، فيما شاركوا في فعاليات نظمها قوى اخرى.

اسباب فشل التحركات المجتمعية:

- هناك جملة من الأسباب التي أدت لفشل كافة التحركات المجتمعية في انهاء الانقسام وهي:
١. مواجهة امن السلطتين في الضفة وغزة لأي تحركات معتبرة انها مواجهة ضدها، حيث ان فكرة المؤامرة كانت حاضرة بشكل كبير.
 ٢. غياب القيادة الموحدة لأي تحرك، وعمل كل جهة بشكل منفصل، غير شمولي، ادى بالنتيجة لفشل اغلب التحركات المجتمعية.
 ٣. حالة اليأس والاحباط التي انعكست على الشارع الفلسطيني وفقدان الثقة بطرفي الانقسام خاصة بعد تلقيه عدة صدمات من خلال توقيع اتفاقيات للمصالحة دون تنفيذ، وهذا ثبط عملية استجابة الجماهير لأي تحرك ضد الانقسام.
 ٤. الرهبة لدى الشارع التي ما زالت موجودة رغم كل التحركات خلال سنوات لكن هناك خشية من ردات فعل السلطتين في الضفة وغزة، وهذا هو سبب العدد الجماهيري الضعيف في الحضور لأي فعالية.

خلاصة:

ان جميع التحركات فشلت في انهاء الانقسام باعتبار انه لم يتم تحقيق الوحدة فعليا حتى اليوم، رغم استمرار كل الجهود وصدق نواياها، الا ان النتيجة ما زالت صفر كبير لان العبرة بالخواتيم، ولان المصالحة الوطنية الفلسطينية تحتاج لإعادة الثقة لمؤسسات التمثيلية للشعب الفلسطينية، وارجاع العملية الديمقراطية الى نصابها في كل المؤسسات الرسمية والغير رسمية، وعدم اخضاع القرار الفلسطيني للتجاذب الاقليمي والدولي ، وتحديد البوصلة المرحلية والنهائية لكل استراتيجية حزبية ، ويلتقي الجميع على برنامج الحد الادنى، والى حين ذلك تبقى الحالة الفلسطينية تراوح مكانها، مع غياب البوصلة الوطنية الحقيقية الموحدة في مواجهة الاحتلال .

قوانين

وتشريعات

الرقابة القضائية على أعمال السيادة في فلسطين "دراسة مقارنة"

محمود أبو صوي، أشرف صيام *

مقدمة:

تقوم الدول الحديثة على مبدأ المشروعية الذي يقوم على أساس «سيادة حكم القانون»، ويمتضى هذا المبدأ يجب أن تكون جميع تصرفات الدول في حدود القانون، وأن يتمكن الأفراد من رقابة الدولة بوسائل مشروعة في أدائها لوظيفتها وبالأخص الجانب الإداري من وظيفة الدولة.^١ وبما أن مبدأ المشروعية في الدولة القانونية يقوم على مراعاة أحكامها في تصرفاتها صوتاً لحقوق وحرريات الأفراد، وحتى لا تكون هدفاً للإبطال، ولا محلاً للتعويض من جهة، حيث إن انضباط علاقة الإدارة بالأفراد بصورة يتحقق معها الصالح العام مع مراعاة حقوق الأفراد وحررياتهم، وفي المقابل يجب أن لا يؤدي إلى إغفال وضع الإدارة من حيث تعدد نشاطاتها وأهمية مسؤولياتها وصعوبة تحقيق أهدافها، ومن هنا لا بد من منح الإدارة قدرًا من الحرية في تصرفاتها عند مزاولتها لأعمالها وامتيازاتها ولا بد من منح قيود على مبدأ المشروعية حتى تتمكن من القيام بوظائفها.^٢

وتعد نظرية أعمال السيادة من أهم القيود التي ترد على مبدأ المشروعية ويطلق عليها أحياناً (أعمال الحكومة)،^٣ حيث تعتبر هذه النظرية سلاحاً خطيراً بيد السلطة التنفيذية،^٤ فهذه الطائفة من أعمال السلطة التنفيذية التي لا تخضع لرقابة القضاء الإداري أو القضاء العادي، فلا تكون محلاً للطعن بها، سواء أكانت بالإلغاء أو التعويض أو بوقف التنفيذ سواء في الظروف العادية أم في الظروف الاستثنائية؛ وبالتالي فهي تشكل خطورة على حقوق وحرريات الأفراد.^٥ حيث أن الرقابة القضائية على أعمال الإدارة هي السبيل الفعّال في احترام القواعد القانونية القائمة والسارية المفعول، مما يتعين على الإدارة أن تمارس وظائفها وامتيازاتها وفق هذه القواعد وأن تحتزم مبدأ المشروعية.^٦

وقد اعتبرت هذه النظرية محلاً لخلافات الفقه، حيث هاجمها بعض الفقهاء وتنكر لها بصفة مطلقة، لتعارضها مع الفكر الديمقراطي وسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان، وذهب

البعض الآخر إلى القبول بها في بعض الحالات وقاموا بحمايتها من الطعن بالإلغاء ولكن أجازوا الطعن فيها على سبيل التعويض، الأمر الذي يخضعها لرقابة القضاء كما يحمي حقوق الأفراد من خلال تقرير تعويض مناسب لهم عن الأضرار التي لحقت بهم من جراء ذلك التصرف غير المشروع، من جهة أخرى اختلف الفقه حول معيار تمييز أعمال السيادة في غيرها من الأعمال الخاضعة للرقابة القضائية.^٧

وفي ظل ذلك، فإن العديد من الدول العربية تناولت هذه النظرية ووضعت لها الأسانيد القانونية والدستورية. ولكن هل تبنت التشريعات الفلسطينية هذه النظرية؟ وهل تم تطبيقها في المحاكم؟ وفي حال تم الأخذ بها ما هو المعيار الذي تم الأخذ به لتمييز أعمال السيادة عن غيرها؟ وهل جعلت هذه الأعمال محصنة من رقابة القضاء؟

للإجابة على هذه التساؤلات، سيتم إتباع المنهج الوصفي والتحليلي والمقارن في بعض المسائل من خلال العمل على جمع المعلومات من الوثائق والدراسات والأبحاث والكتب، وتحليل بعض أحكام محكمة العدل العليا وبعض القوانين ذات العلاقة بالشأن الإداري والدستوري الفلسطيني، وسوف يتم تناول موقف المشرع الفرنسي، والتونسي، واللبناني من أعمال السيادة ومقارنته مع موقف المشرع الفلسطيني.

لذلك سوف يعالج هذا البحث مفهوم أعمال السيادة ومعيارها، ومن ثم سوف يتناول موقف الفقه والمشرع الفرنسي، والتونسي، واللبناني ومقارنته بموقف المشرع الفلسطيني، وفقه قضاء محكمة العدل العليا الفلسطينية.

أولاً: مفهوم أعمال السيادة ونشأتها

يعود أصل نشوء نظرية أعمال السيادة إلى ظروف تاريخية خاصة بمجلس الدولة الفرنسي، في مرحلة القضاء المقيّد؛ وذلك لتجنب الاصطدام بالسلطة التنفيذية بحيث كان يمتنع عن الرقابة على الأعمال الصادرة عن السلطة التنفيذية المتعلقة بنظام الحكم، لكي يتمكن من البقاء وتثبيت أقدامه خاصة بعد أن عادت الملكية من جديد إلى فرنسا عام ١٨١٤،^٨

يعتبر الاجتهاد القضائي الفرنسي المصدر التاريخي لنظرية أعمال السيادة، إذ عمل بمقتضاه مجلس الدولة الفرنسي منذ بداية نشأته حتى يستطيع مسايرة الظروف التي كانت تمر بها فرنسا بما يسمح له بالاستمرارية كمحكمة قائمة، فعمد إلى استبعاد طائفة من أعمال السلطة التنفيذية ذات الطبيعة السياسية من رقابته بعد سقوط نابليون بونابرت وعودة الملكية ثانية والتي تعتبره

من صنع نابليون ولم تكن مرتاحة لوجوده، فجاملها مجلس الدولة قضائياً باستبعاد الأعمال التي تثير حفيظتها السياسية من الخضوع للرقابة القضائية.^٩

١. مفهوم الفقه للأعمال السيادة:

أعمال السيادة: هي طائفة من أعمال السلطة التنفيذية التي تتمتع بحصانة ضد رقابة القضاء بجميع صورها أو مظاهرها، وبالتالي لا تكون محلاً للإلغاء أو التعويض أو فحص المشروعية.^{١٠} وعرفها الاستاذ جورج سعد بأنها: الأعمال التي بطبيعتها أعمال إدارية، ولا تخضع لرقابة القضاء الإداري نظراً لأنها تلامس عن قرب السياسة العامة للدولة.^{١١}

بناء على ذلك، يمكن تعريف أعمال السيادة على أنها أعمال تصدر عن السلطة التنفيذية، وهي أعمال تكون أكثر علاقة بسياسة الدولة وأمنها لهذا السبب تصدرها السلطة التنفيذية للمحافظة على كيانها.

٢. مفهوم القضاء لأعمال السيادة:

عرفت محكمة العدل العليا الأردنية أعمال السيادة بأنها: "هي التي تصدر عن الحكومة بصفتها سلطة حكم لا سلطة إدارة، وتتمتع بحصانة ضد رقابة القضاء بجميع صورها ومظاهرها".^{١٢} كما عرفتها محكمة القضاء الإداري في مصر بأنها: «العمل الذي يتصل بالسيادة العليا للدولة والإجراءات التي تتخذها الحكومة بما لها من سلطان الحكم للمحافظة على سيادة الدولة وكيانها في الداخل والخارج».^{١٣}

عرفت محكمة العدل العليا الفلسطينية في أحد أحكامها أعمال السيادة بأنها: "هي الأعمال والإجراءات التي تصدر من الحكومة باعتبارها سلطة حكم لا سلطة إدارية تباشرها بمقتضى هذه السلطة العليا لتنظيم علاقاتها بالسلطات العامة الأخرى بصفتها ممثلة لمصالح الدولة الرئيسية؛ لتحقيق مصلحة الجماعة السياسية كلها والسهر على احترام دستورها وهيئاتها العامة بالإشراف على علاقاتها مع الدول الأجنبية"،^{١٤} وفي حكم آخر عرفتها على أنها: «تلك الأعمال المتعلقة بمسائل مصيرية تمس كيان الدولة ووجودها».^{١٥}

وعليه، فإن بعض أعمال السلطة التنفيذية تمثل خروجاً حقيقياً على مبدأ المشروعية، وتتمتع بحصانة قضائية (أي أنها خارجة عن رقابة القضاء ويمنع القضاء من التعقيب على هذه الأعمال)، وبذلك فإن نظرية أعمال السيادة، من أخطر الاستثناءات على مبدأ المشروعية، وتعتبر سلاحاً خطيراً في يد السلطة التنفيذية؛ لمواجهة حقوق الأفراد وحررياتهم، وقد تتركهم بلا حماية قضائية، فهي طائفة من الأعمال التي تتمتع بحصانة ضد جميع أنواع الرقابة.^{١٦}

بناءً على ما تقدم، من الواضح أنه ليس هناك تعريف جامع لأعمال السيادة من جانب الفقه والقضاء أو معيار يمكن تبنيه لتمييز أعمال السيادة عن غيرها، فقد اتجه الفقه إلى تضيق نطاق أعمال السيادة بتقديم طائفة من المعايير كالباعث السياسي، والباعث الموضوعي، وأخيراً القائمة القضائية لتحديد أعمال السيادة وفقاً لما يلي:

ثانياً: معايير تحديد أعمال السيادة

١. معيار الباعث السياسي:

يعد هذا المعيار أول معيار ظهر لتحديد أعمال السيادة، إذ يقوم هذا المعيار على أساس النظر إلى الباعث الذي أدى إلى إصدار القرار، فإذا كان الباعث سياسياً متعلقاً بالسياسة العليا للدولة ويستهدف حماية الدولة داخلياً أو خارجياً، عُده القرار متعلقاً بأعمال السيادة وخرج بالتالي من رقابة القضاء.^{١٧}

وقد تم انتقاد هذا المعيار على أساس أنه معيار مرن وغير محدد، وأنه يوسع من دائرة أعمال السيادة، ويمكن السلطة التنفيذية من التذرع به متى ما رغبت بذلك.^{١٨} كما أن هذا المعيار يُشكل خطورة على حقوق وحرّيات الأفراد، إذ يعجز الأفراد عن الطعن في أعمال السلطة التنفيذية التي تمس حقوقهم وحرّياتهم أمام القضاء؛ إذا ما تذرعت هذه السلطة بأنها أصدرت هذه الأعمال بباعث سياسي، ويذكر أن مجلس الدولة الفرنسي قد هجر هذا المعيار منذ سنة ١٨٧٥،^{١٩}

على الرغم من ذلك، استخدمت محكمة العدل العليا الفلسطينية هذا المعيار للتمييز بين أعمال السيادة والأعمال الإدارية الأخرى، فقد جاء في أحد أحكامها «إن أعمال السيادة يكون باعثها سياسياً وتكون متعلقة بمسائل مصيرية تمس كيان الدولة ووجودها ولها صلة بتنفيذ القوانين الأساسية الدستورية، وبروابط الحكومة بالمجالس النيابية وكذلك بروابط الدولة مع الدولة الأجنبية، وتنفيذ الاتفاقيات بينها وبين تلك الدول والأعمال التي لها مساس بسيادة الدولة».^{٢٠}

٢. معيار طبيعة العمل (المعيار الموضوعي):

إزاء سلبات معيار الباعث السياسي وعدم صلاحيته كمعيار سليم للتمييز بين أعمال السيادة والأعمال الإدارية، اهتدى البعض إلى المعيار الذي يحدد أعمال السيادة انطلاقاً من طبيعة العمل ذاته، والذي يقوم على أساس التمييز بين أعمال السلطة التنفيذية وهي تمارس وظيفة الحكم، وأعمالها وهي تمارس أعمال الإدارة، فإن الأعمال التي تصدر عن السلطة التنفيذية

في إطار وظيفتها الحكومية تعد من أعمال السيادة، وتكون بمنأى عن أية رقابة قضائية، أما إذا صدرت عنها في إطار وظيفتها الإدارية عُدت أعمال إدارية وخضعت بالتالي لرقابة القضاء إلغاءً وتعويضاً.^{٢١}

إلا أن هذا المعيار قد تعرض لعدة انتقادات^{٢٢} أهمها: أن هذا المعيار فيه غموض وإبهام لصعوبة وضع معيار فاصل بين الأعمال الحكومية والإدارية، وليس هناك فصل واضح عضوي في نطاق السلطة التنفيذية بين الهيئة التي تتولى الإدارة، فهناك تداخل ضمن أعمال نفس الهيئة مما يصعب تحديد تصرف الإدارة باعتبارها سلطة حكم أو باعتبارها سلطة إدارية. ويؤخذ أيضاً على هذا المعيار أن هناك من الأمور والحالات قد يصح أن تكون متصلة بالسياسة العليا للدولة في ظروف معينة، كتعيين محافظ أو وزير صاحب نفوذ سياسي أو عشائري؛ مما يجعل لتعيينه أهدافاً سياسية، في حين أنه قد يعين نفس الشخص في ذات المنصب ويعتبر أمر تعيينه مسألة إدارية بحتة.

وفي هذا الإطار، طبقت محكمة العدل العليا في فلسطين في أحد أحكامها هذا المعيار للتمييز بين أعمال السيادة والأعمال الإدارية، حيث جاء في حكمها: «أعمال السيادة هي الأعمال والإجراءات التي تصدر من الحكومة باعتبارها سلطة حكم لا سلطة إدارية تباشرها. بمقتضى هذه السلطة العليا لتنظيم علاقاتها بالسلطات العامة الأخرى بصفتها ممثلة لمصالح الدولة الرئيسية لتحقيق مصلحة الجماعة السياسية كلها والسهر على احترام دستورها وهيئاتها العامة بالإشراف على علاقاتها مع الدول الأجنبية. أما القرارات التي تصدر عنها تطبيقاً للقوانين والأنظمة وتعبيراً للمصالح الجارية للجمهور فهو عمل إداري وليس من أعمال السيادة وبالتالي يجوز الطعن بهذه القرارات أمام محكمة العدل العليا».^{٢٣}

٣. معيار القائمة القضائية:

إزاء تعذر وضع معيار دقيق لأعمال السيادة على هذا النحو عمد الباحثون في النهاية إلى استقراء أحكام المحاكم واستخراج قائمة منها تتضمن كل ما اعتبره القضاء من أعمال السيادة.^{٢٤} وقد حدد الفقه مجموعة من هذه الأعمال في مجموعة واحدة على سبيل الحصر وهي كما يلي: « الأعمال المتعلقة بعلاقة سلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية: تشمل عدة مسائل في العلاقة بين السلطتين مثل دعوة الناخبين للانتخاب، ودعوة السلطة التشريعية للانعقاد، واقتراح مشاريع القوانين.^{٢٥}

« الأعمال المتعلقة بالحرب: ويشمل هذا الموضوع كافة القرارات التي تصدر عن السلطة التنفيذية، وتكون لها علاقة مباشرة أو حتمية بالعمليات الحربية وقيادتها مثل القرار الصادر بإعلان الحرب أو إنهاؤها والحجز على السفن والطائرات الحربية وغيرها من

القرارات المتعلقة بسير العمليات الحربية.^{٢٦}

« الأعمال المتعلقة بسلامة الدولة وأمنها الداخلي: تشمل الأعمال الخاصة بأمن الدولة الداخلي باعتبارها أعمالاً تمس الأمن الداخلي السياسي والاقتصادي وكل ما يشمل سلامة نظام الحكم،^{٢٧} كالقرارات الصادرة عن السلطة التنفيذية بإعلان حالة الطوارئ.^{٢٨}

« العفو من العقوبة: ٢٩ يصدر العفو العام بقانون ولهذا يعتبر عملاً تشريعياً، أما العفو الخاص فقد ذهب بعض الآراء إلى اعتباره عملاً من أعمال السيادة، أما الآن فالرأي الراجح هو اعتباره عملاً قضائياً وبالتالي يخرج من اختصاص محكمة العدل العليا.

« الأعمال المتعلقة بالعلاقات الدولية والدبلوماسية: هي الأعمال المتصلة بالعلاقات الدولية وشؤون الدول الخارجية مثل القرارات المتعلقة بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية، وقرارات إنشاء علاقات سياسية مع دول أو قطعها.^{٣٠}

وقد طبقت محكمة العدل العليا في فلسطين هذا المعيار؛ لتمييز أعمال السيادة عن الأعمال الأخرى وقد جاء في حكمها: «أعمال السيادة في النظم التي تأخذ بها في الأعمال المنظمة لعلاقة الحكومة بالبرلمان وبضمان سير السلطات العامة وفق الدستور والأعمال المتعلقة بسير مرفق التمثيل الدبلوماسي والأعمال المتعلقة بالحرب وبعض الأعمال المتعلقة بسلامة الدولة وأمنها الداخلي في نطاق الحدود والضوابط التي بينها القانون، وإن قرار مجلس الوزراء بتأجيل موعد انتخاب الهيئات المحلية لا يدخل في إطار أعمال السيادة»،^{٣١} كما قضت في حكم آخر: «أعمال السيادة هي الأعمال المتعلقة بعلاقة السلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية وبعض إجراءات الأمن الداخلي كإعلان حالة الطوارئ والأعمال المتعلقة بالعلاقات الدولية والدبلوماسية وبعض الأعمال الحربية. وعليه فإن الاعتقال الإداري ليس من قبيل هذه الأعمال فلا يعد من أعمال السيادة».^{٣٢}

على ضوء ما تقدم، فمن الواضح أن الفقه والقضاء الإداري الفلسطيني لم يستقر على معيار محدد لتمييز أعمال السيادة عن الأعمال الأخرى، مما يستوجب البحث في موقف الفقه والمشرع في الدول المقارنة، وكيف تم العمل على معالجة معيار تحديد أعمال السيادة؟

ثالثاً: تقدير أعمال السيادة

١. موقف الفقه من أعمال السيادة

لم تلق نظرية أعمال السيادة قبولاً مطلقاً من الفقهاء، فهناك من أنكرها كلياً وهناك من توسط في الأمر فنأدى بإمكان التعويض عنها دون إلغائها،^{٣٣} كما أن هناك من عد هذه النظرية وصمة عار في جبين المشروعية،^{٣٤} لذلك عمد كثير من الفقهاء إلى مهاجمتها وعدم السكوت. وعليه فقد كان هناك أربعة اتجاهات بخصوص هذه النظرية:

« الاتجاه الأول: يقوم على التضييق من دائرة أعمال السيادة، وقد أخذ القضاء فعلاً العمل على إخراج قائمة من الأعمال كان يعتبرها من قبيل أعمال السيادة وبدأ ييسر رقابته عليها إلغاءً وتعويضاً.^{٣٥}»

« الاتجاه الثاني: اكتفى بالتلطيف من حدة هذه النظرية وأخذ بحل وسط يؤدي إلى إمكانية التعويض عن أعمال السيادة دون إمكان الطعن فيها بالإلغاء.^{٣٦}»

« الاتجاه الثالث: أنكر وجود هذه النظرية ونأدى إلى عدم وجوب تحصين أي من القرارات اتجاه القضاء؛ وذلك لأن هذا يخالف مبدأ المشروعية ويعتبر مساساً بمبدأ الفصل بين السلطات حيث أن وظيفة القضاء حماية مبدأ سيادة القانون الأمر الذي يتنافى مع تحصين القرارات الإدارية.^{٣٧}»

« الاتجاه الرابع: رأى بضرورة الإبقاء عليها ما دام أن الضرورة تبيح وتتطلب إبقاء الأعمال الخاصة بعلاقة الحكومة بالبرلمان والأعمال المتعلقة بعلاقات الدولة الخارجية والأعمال المتعلقة بالحرب.^{٣٨}»

على ضوء ما سبق، نرى أنه لا بد من أن يكون هناك أعمال سيادة في الدولة، لتتماشى مع الظروف السياسية وأوضاع الدولة التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن على القوانين أن تنص على الأعمال التي تعتبر من أعمال السيادة وأن تجعل هذه الأعمال تخضع للرقابة الدستورية لأن هذه الرقابة هي التي تمثل السياج الحامي لمفهوم الدولة الدستورية التي تقوم على أساس وضع الآليات اللازمة لضمان احترام الدستور وحماية الحقوق والحريات وإرساء العدالة واحترام مبدأ سيادة القانون، وهذه السيادة التي تتطلب من جميع السلطات في حال إصدار أي أمر أن تستند للقواعد القانونية. وبالتالي، في حال لم يتم النص على الرقابة القضائية على هذه الأعمال فأنها تخترق مبدأ دستوري نصت عليه جميع القوانين وهو حق التقاضي؛ فيؤدي ذلك إلى استبداد السلطة التي تصدر هذه الأعمال، وبالتالي انتهاك حقوق وحريات الأفراد.

٢. موقف المشرع من أعمال السيادة في الدول المقارنة

كما أسلفنا سابقاً فإن نظرية أعمال السيادة هي من صنع مجلس الدولة الفرنسي منذ بداية القرن الثامن عشر. ثم تدخل المشرع في تقنين هذه النظرية، وفي هذا الإطار سوف نستعرض موقف المشرع الفرنسي، والبناني، والتونسي، والفلسطيني في إطار الحديث عن تنظيم أعمال السيادة.

٤. المشرع الفرنسي:

يعتبر الفرنسيون أن أعمال السيادة من المواضيع الشائعة وهي من ضمن أعمال قوة السلطة التنفيذية التي تتمتع بحصانة قضائية، وقبل عام ١٨٧٢ لم يكن هناك أي جهاز يراقب على أعمال السلطة التنفيذية، إلى حين عام ١٨٧٢ تم أنشئت محكمة النزاعات الفرنسية من نفس السلطة التنفيذية، وأصبح القاضي الإداري هو الذي يقرر وحده ما يمكن الرقابة وما لم يمكن الرقابة عليه، وخلال هذه الفترة لم يكن هناك نصوص قانونية حتى نصوص دستورية تنص على هذه الأعمال، وبالتالي يرجع الأمر إلى القضاء في تحديد ذلك.^{٣٩}

وحسب قرار مجلس الدولة بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٧٥ فإن الأعمال الحكومية ذات الحصانة القانونية تعتبر «مداولات التاريخ الأكبر» من العوامل الأساسية التي سمحت لمجلس الدولة بإضافة عنصر حاسم لنظرية العمل الحكومي. فبحسب التقليد القانوني السائد ضمن مهام قضاة مجلس الدولة، كان العمل الحكومي يعرف على كونه عملاً لا يدخل ضمن الصلاحيات الرقابية للقاضي، أو على كونه العمل الذي يرفض القاضي دراسته للتحقق من شرعيته كونه عملاً ذا «دافع سياسي»، فمثل هذه الأعمال تتفادى عادة الرقابة القانونية.^{٤٠}

لكن مع تطور شرح هذا القرار وتطور تأويل النظرية المذكورة، لم يعد منذ الآن كافياً أن يتمتع العمل الإداري «بالدوافع السياسية» كي يعفى من رقابة القاضي الإداري، ويعتبر القرار الإداري المعروف تحت اسم «قرار الأمير نابليون» هو الأساس الذي بنيت عليه هذه النظرية الفقهية،^{٤١} إذ ما زال هذا القرار إلى الوقت الحالي في فرنسا هو السند الأساسي لنظرية أعمال السيادة حتى أن دستور الجمهورية الخامسة لسنة ١٩٥٨ في فرنسا لم يشر إلى هذه الأعمال، ولكن ميّز بين الأعمال التشريعية والتنظيمية في المادة (٣٤) منه؛ فالأعمال التنظيمية تشمل أعمال الحكومة وهي خاضعة لرقابة القضاء. وأعمال إدارية مستقلة يقوم بها رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وهي غير خاضعة لرقابة القضاء، فنصت المادة (١٩) منه على صلاحيات رئيس الجمهورية، والتي تتمثل في: تعيين رئيس الوزراء، وحل جمعية الوطنية، واللجوء إلى استفتاء الشعب... ولكن على الرغم من وجود هذا النص فلا تعتبر هذه الأعمال من ضمن أعمال السيادة إنما من منطلق تضارب التوقعات.^{٤٢} وبما أن قرار نابليون هو الأساس يعرف

«العمل الحكومي» بالعمل غير الخاضع لرقابة السلطة القانونية بشتى درجاتها وأفرعها،^{٤٣} حيث يمكن لهذا العمل أن يُشكل دافعاً لعدم الاختصاص العام.

تؤكد النتائج والاجتهادات الفقهية بشكل عام على النتائج التي جاء بها قرار «الأمير نابليون» والذي يعمل باستمرار على تقليص مفهوم العمل الحكومي، الأمر الذي لا نشهده من الآن فصاعداً إلا ضمن حالتين أساسيتين هما:

« إما أن يكون هذا العمل مختصاً بالعلاقة بين القوى الدستورية العامة: كتعيين أحد أعضاء المجلس الدستوري، ٤٤ أو كتعيين أحد البرلمانين لأحدى المهمات، ٤٥ حيث تم الاستناد إلى المادة رقم (١٦) من الدستور. ٤٦

« إما أن يكون هذا العمل متعلقاً بتسيير العلاقات الدبلوماسية لفرنسا: كإبرام الاتفاقيات الدولية، ٤٧ وتعليق على الاتفاقية دولية، ٤٨ أو لغرض الأعمال الحربية، ٤٩ واستئناف التجارب الذرية، ٥٠ وفي نفس الوقت تبقى مسألة نظامية المصادقة (بمعنى الانضمام) والإقرار ليست عملاً حكومياً. ٥١

ب. المشع التونسي:

رغم عدم النص على أعمال السيادة في المنظومة القانونية التونسية سواء في الدستور التونسي ١٩٥٩،^{٥٢} أو دستور ٢٠١٤ وكذلك في قانون المحكمة الإدارية أو غيرها من القوانين، فإن فقه قضاء المحكمة الإدارية أقرّ نظرية أعمال السيادة.

والجدير بالذكر أن الفقهاء لم يتفقوا على تعريف دقيق وشامل لأعمال السيادة كما لم يضع القاضي معايير واضحة له، وقد اعتبرت المحكمة الإدارية في قرار «بيار فلكون» ومن معه ضد وزير الفلاحة أن «ما يسمى بأعمال السيادة في الفقه والاجتهاد القضائي إنما يقصد به الأعمال السياسية الهامة كحالات الحرب والعلاقات الخارجية وعلاقة الحكومة بالسلطة التشريعية، ذلك أن طائفة أعمال السيادة المعترف لها بهذه الصفة هي في نقص مستمر في مفهوم الاجتهاد والفقه الإداريين». ^{٥٣}

في نفس الإطار يعرف الاستاذ محمد رضا جنّيح أعمال السيادة بكونها مجموعة «الأعمال الصادرة عن السلطة التنفيذية في المجالات المتعلقة بالوظيفة الحكومية. وتبعاً لذلك فإنه إذا تجاوزت السلطة التنفيذية إطار العمل الإداري وعملت في ميدان العلاقات السياسية، فإن القرارات التي تتخذها لا تكون خاضعة للنظام العام للقرارات الإدارية». ^{٥٤}

فمن الملاحظ أن أعمال السيادة والتي يطلق عليها أيضاً أعمال الحكومة لا يقبل الطعن بشأنها

في تونس أمام القضاء بمختلف أنواعه، ويقع التمييز بين القرار الإداري وأعمال السيادة بالاستناد إلى فكرة "سلامة الدولة" من جهة، وإلى ما توصل إليه فقه قضاء المحكمة الإدارية من إلحاق هذه الأعمال بنظام قانوني مميز يجعلها قضائياً غير قابلة للطعن بأي شكل من جهة أخرى.

ومن ثم لا تخضع كل الأعمال التي تتولاها السلطة التنفيذية إلى رقابة القاضي الإداري إذ "أن للسلطة صفتين: الأولى، بصفتها كأداة تستخدم القرارات الإدارية كأداة للوصول إلى غايتها في تسيير الخدمات والمرافق خدمة للمصلحة العامة. والثانية، بصفتها سياسة تستخدم نوعاً آخر من القرارات حفاظاً على سلامة الدولة، لذا استقر العمل فقهاً وقضاءً على تحصيل الأعمال السياسية الهامة التي تتولاها الحكومة من رقابة القاضي الإداري".

لا تختلف هذه الطائفة من الأعمال من حيث الشكل والمظهر الخارجي عن القرارات الإدارية العادية بحكم صدورها عن السلطة التنفيذية. لذلك تولى القاضي الإداري مهمة تمييزها عن بقية الأعمال الإدارية الأخرى. باعتباره "حامي الحقوق والحريات العامة والحريص في الوقت ذاته على سلامة الدولة واستمرار مرافقها العامة".^{٥٥}

وقضت المحكمة الإدارية بعدم اختصاصها في الطعون المتعلقة بأعمال السيادة في العديد من المناسبات. فمثلاً اعتبرت أنه "لا تقبل دعوى تجاوز السلطة إلا متى كان القرار المطعون فيه يكتسي الصبغة الإدارية وكان أحادي الجانب وتنفيذياً ومؤثراً في الوضعيات القانونية التي لا تندرج في نطاق وظيفتها الإدارية وإنما تنصهر ضمن الأعمال الحكومية التي تباشرها طبقاً لأحكام الدستور ومبادئه، عند دخولها في علاقة بالسلطة التشريعية أو بالدول الأخرى والمنظمات الدولية. مثل حل البرلمان والدعوة إلى انتخابات مبكرة والاحتكام للشعب بواسطة الاستفتاء وإنهاء مهام الحكومة أو إبرام المعاهدات والمصادقة عليها وربط علاقة دبلوماسية مع دولة أخرى أو قطعها. لا ينتمي الأمر المتعلق بدعوة الناخبين للاستفتاء بخصوص مشروع القانون الدستوري المتعلق بتنقيح أحكام الدستور إلى صنف القرارات الصادرة في المادة الإدارية التي يمكن الطعن فيها بالإلغاء على معنى الفصل (٣) من قانون المحكمة الإدارية، بل يتنزل في إطار أعمال السيادة التي لا يمتلك القاضي الإداري بسط رقابته عليها".^{٥٦}

ومن الجدير بالذكر، أن تونس كمعظم الدول لم تقم بتعداد الأعمال التي تعتبر من قبيل أعمال السيادة، وقد تركت هذه المهمة إلى القضاء، إزاء ذلك دأب الفقه إلى الرجوع إلى الأحكام القضائية، بقصد تجميعها وتصنيفها في مبادئ معينة. وقد تمكن الفقهاء من تجميع أعمال السيادة في قوائم أهمها:

« القرارات المتعلقة بالعلاقات بين مختلف السلطات الدستورية: وتدرج تحت هذه الطائفة من أعمال السيادة القرارات المتعلقة بالتدابير الاستثنائية التي تتخذ في حالة خطر داهم مهدد لكيان الجمهورية وأمن البلاد التي نص عليها الفصل (٨٠) من دستور ٢٠١٤، ٥٧ أو قرارات اللجوء إلى الاستفتاء الشعبي كما ورد بالفصل (٨٢) من الدستور الذي يعطي الحق لرئيس الجمهورية أن «يعرض على الاستفتاء الشعبي مشاريع القوانين المتعلقة بالموافقة على المعاهدات، أو بالحريات وحقوق الإنسان، أو بالأحوال الشخصية». وكذلك القرارات المتعلقة بإيداع أو سحب مشروع قانون.^{٥٨}

« القرارات المتعلقة بالعلاقات الخارجية والدبلوماسية: هذه الأعمال متنوعة، وتتمثل في القرارات التي يتم اتخاذها بمناسبة التفاوض في المعاهدات الدولية، أو تلك المرتبطة بالأعمال الدبلوماسية، أو حتى الشكاوي المتعلقة بالحماية الدبلوماسية للرعيا التونسيين بالخارج.^{٥٩}

وقد تم التعرض في قضية تسليم البغدادي المحمودي،^{٦٠} إلى مسألة أعمال السيادة، ففي الوقت الذي اعتبر فيه رئيس الحكومة التونسية حمادي الجبالي،^{٦١} إن قرار تسليم البغدادي المحمودي جاء إثر حكم قضائي صادر عن دائرة الاتهام بمحكمة الاستئناف بتونس سنة ٢٠١١ معتبراً أنه قرار سيادي لتونس، وقد تم التسليم لحكومة شرعية في ليبيا تعامل معها كل العالم قبل الانقسامات التي حصلت في ليبيا بعد ذلك، وأن الحكومة التونسية تصرفت آنذاك باعتبارها حكومة الدولة التونسية وفي إطار تواصل أعمال الحكومات التونسية ورعاية المصالح العليا لتونس وأمنها، اعتبرت المحكمة الإدارية بعد أن تم استشارتها،^{٦٢} بناءً على طلب تقدم به رئيس الجمهورية المنصف المرزوقي^{٦٣} آنذاك في حكمها الصادر في ٨ أكتوبر أن تسليم البغدادي المحمودي آخر رئيس وزراء القذافي يعد من صلاحيات رئيس الجمهورية المنصف المرزوقي وأن رئيس الحكومة حمادي الجبالي تجاوز هذه الصلاحية عندما أذن بتسليم البغدادي المحمودي للسلطات الليبية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الصنف من الأعمال في «تقاص مستمر» حسب تعبير المحكمة الإدارية، نظراً لما تمثله من خطورة على حقوق الأفراد، ففي هذا المجال كما في مجالات أخرى من العمل الإداري ابتدع القاضي الإداري نظرية الأعمال المنفصلة،^{٦٤} للحد من النتائج الوخيمة لأعمال السيادة، وذلك بإخضاع البعض منها التي تبدو منفصلة عن الأعمال الأصلية إلى رقابة المشروعية. ولعل من أهم مظاهر أعمال هذه النظرية حالة تسليم المضمون فيهم المقيمين بالخارج إلى عدالة بلادهم. فقد اعتبر مجلس الدولة في فرنسا أن قرار رفض مطلب التسليم يعد عملاً منفصلاً عن مسألة العلاقات الدبلوماسية القائمة بين فرنسا والدولة التي صدر منها هذا المطلب.^{٦٥}

ج. المشع اللبناني:

بعد البحث في الدستور اللبناني عام ١٩٩٠، وقانون المحاكم الإدارية والإقليمية ومجلس الشورى الدولة رقم (٢٢٧) لسنة ٢٠٠٠، لاحظنا أنه لم يتم التطرق إلى أعمال السيادة، مع ذلك لها وجود فعلي لا يمكن إنكاره في لبنان حيث أقر مجلس الشورى معيار القائمة القضائية.^{٦٦}

كان أول قرار اتخذه مجلس الشورى اللبناني على وفق نظرية أعمال السيادة هو القرار الصادر بنتيجة المراجعة المقدمة من قبل صاحب جريدة (زحلة الفتاة) طعناً في المرسوم رقم (٨١٣٩) الصادر بتاريخ ١٥ حزيران الذي قضى بمنع الجريدة عن الصدور، وقد استند هذا القرار إلى المادة الأولى من القرار التشريعي رقم ٣٠٨٠ الصادر عن حاكم لبنان الكبير بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٢٥، التي نصت على أنه:

(... يمكن لحاكم لبنان الكبير بموجب تدبير حكومي يتخذ بقرار من هيئة مجلس النظار، أن يوقف عن الصدور كل جريدة أو مجلة ...). لذا عد مجلس شورى الدولة اللبناني أن في الأمر عملاً حكومياً يجنب المرسوم المطعون فيه الرقابة القضائية باعتباره تدبير حكومي يقصد به العمل الحكومي.^{٦٧}

بالتالي فإن الأعمال التي استقر عليها فقه القانون العام أخذ بها مجلس الشورى اللبناني، حيث أخذ بمعيار القائمة القضائية، وهي على النحو التالي:

« الأعمال المنظمة لعلاقة السلطة التنفيذية بالبرلمان: وهي الأعمال التي تشترك السلطة التنفيذية مع البرلمان في اختصاصاته التشريعية وذلك عن طريق اقتراح قوانين، والقرارات الخاصة باعتراف هذه السلطة على القوانين بعد إقرارها من البرلمان، كما يدخل ضمن هذه الأعمال قرارات السلطة التنفيذية المتعلقة بتكوين البرلمان كدعوة الناخبين لانتخابات، ودعوة البرلمان للانعقاد سواء بالنسبة للدورة العادية أو الاستثنائية، وكذلك القرارات المتعلقة بحل البرلمان، وأوضح مجلس شورى الدولة اللبناني خروج هذه الأعمال من نطاق اختصاصه، حيث قضى بأن: «القرار الذي يختص بعلاقة الحكومة بمجلس النواب لا يخضع لرقابة القضاء الإداري». وأكد المجلس هذا القضاء في حكم آخر بقوله أنه من الراهن أن العلاقة القائمة بين رئيس السلطة التنفيذية والمجلس النيابي كدعوة الناخبين للاقتراع أو نشر قانون معجل مكرر بمرسوم يشكل عملاً حكومياً لا يقع تحت رقابة القضاء».^{٦٨}

« الأعمال المتصلة بشؤون الدولة الخارجية: تشمل جميع الأعمال المتعلقة بالمعاهدات والاتفاقات والتصديق عليها وتفسيرها، والأعمال التي يقوم بها ممثلو الدولة في الخارج الخاصة بوظائفهم الدبلوماسية، والتعليمات التي توجهها الدولة إلى عمالها الدبلوماسيين. ولهذا اعتبر مجلس شورى الدولة اللبناني أن تفسير المعاهدات إنما يعود أمره إلى السلطة التنفيذية وحدها، إذ أعلن بأن: «مطار رياق لا يزال مطاراً عسكرياً خاضعاً للأحكام

القانونية المتعلقة بالمطارات العسكرية، فقد وافقت على هذا المبدأ وزارة الخارجية بكتابتها بتاريخ ٤ نيسان سنة ١٩٦٢ رقم (١٠٧٩-٩) وهو المرجع الذي يعود له علماً واجتهاداً حق تفسير المعاهدات الدولية».^{٦٩}

« الأعمال المتعلقة بالحرب: يشمل قرار إعلان الحرب والإجراءات الخاصة بسير العمليات الحربية والمتصلة بها، والتدابير التي تتخذها الدولة تجاه رعايا الأعداء كأبعادهم واعتقالهم ووضع أموالهم تحت الحراسة، والطلبات الناشئة عن الأضرار الحربية التي تنشأ أعمال القتال حيث يرفض مجلس الدولة النظر في طلبات التعويض عنها، كما يتصل بأعمال الحرب ما تسببه الجيوش الأجنبية من أضرار أثناء إقامتها بإقليم دولة أخرى. وقد قضى مجلس شورى الدولة بعدم اختصاصه بدعوى يطالب فيها رافعها بالتعويض عن أضرار لحقت به بسبب أعمال صدرت عن القوات الأمريكية أثناء وجودها على الأراضي اللبنانية، وقرر أن اختصاصه ينحصر: «في طلبات التعويض عن أضرار وقعت بسبب تنفيذ مصلحة عامة. وبما أن الدولة اللبنانية، تؤكد أنه لم يكن بينها وبين السلطة الأمريكية أي اتفاق يجعل من تصرفات الجيش الأمريكي على الأراضي اللبنانية تصرفات داخلية ضمن نطاق تنفيذ المصلحة العامة من قبل الدولة اللبنانية. وبما أنه لا يمكن أن تسأل الدولة اللبنانية عن الأخطاء التي يرتكبها كل شخص طبيعي أو معنوي رسمي أو غير رسمي أقام في لبنان أو مر فيه بإذن من السلطة اللبنانية أو بغير إذن منها إذا لم تتصل تلك الأخطاء بتنفيذ المصلحة العامة من قبل الدولة اللبنانية، الأمر الذي لم يثبت في القضية الحاضرة وبما أنه ينتج عما تقدم أن المراجعة الحاضر مردودة لعدم الاختصاص».^{٧١}

« بعض التدابير الخاصة بسلامة الدولة وأمنها الداخلي: تعرضت هذه التدابير الى هجوم كبير من جانب الفقه الفرنسي حتى أنكر عليها البعض كلية انتماءها إلى الأعمال الحكومية، مما جعل مجلس الدولة الفرنسي يضيق من نطاقها الى حد كبير، وقد سار مجلس الشورى الدولة اللبناني على نهج مجلس الدولة الفرنسي، فقد كان يذهب في قضائه الى اعتبار ان قيام الحكومة بتعطيل الصحف يعتبر عملاً حكومياً إذا ما نالت هذه الصحف من هيئة السلطات أو عكرت صفو النظام والأمن العام بحيث يخرج عن اختصاص المجلس. إلا أنه عدل عن هذا القضاء بعد ذلك، وقضى بأن قرار المفوض السامي بتعطيل جريدة سياسية عن الصدور يعتبر "عمل داخلي محلي صرف لا يتعلق بأي بند من بنود صك الانتداب"، واعتبر المجلس المفوض السامي "سلطة إدارية تخضع أعماله الإدارية لرقابة القضاء"، واستمر المجلس في العمل على تضيق نطاق الأعمال المتصلة بالأمن الداخلي، حيث قرر أن قرارات مجلس الوزراء الخاصة بحظر التعامل مع شركات لها فروع في إسرائيل، "لا يعتبر عملاً حكومياً بحسب الاجتهاد الذي يضيق يوماً فيوماً لائحة الأعمال

الحكومية وبالتالي فإن أمر النظر بطلب إبطالها يدخل في اختصاص هذا المجلس“٧٢.

د. المشرع الفلسطيني:

بعد البحث في القانون الأساسي الفلسطيني المعدل لسنة ٢٠٠٣، باعتباره المرجعية الدستورية، وقوانين تشكيل المحاكم النظامية التي كانت سارية في فلسطين، يتبين لنا أنه كان هناك قانون ساري المفعول في الضفة الغربية منذ زمن الحكم الأردني لها، وهو قانون تشكيل المحاكم النظامية رقم (٢٦) لعام ١٩٥٢، والذي عدل عام ١٩٦٣ والذي نص في المادة الثالثة منه على أنه: ”لا تقبل الطلبات المقدمة للطعن بالقرارات المتعلقة بأعمال السيادة“٧٣. وقد بقي هذا القانون سارياً في الضفة الغربية إلى حين صدور قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ٢٠٠١٧٤ والذي ألغى صراحةً قانون تشكيل المحاكم النظامية رقم (٢٦) لعام ١٩٥٢ وتعديلاته، وبعد البحث في قانون عام ٢٠٠١ تبين عدم وجود أي نص يماثل نص المادة الثالثة المشار إليها أعلاه، كما أنه لم يتم معالجة هذا الموضوع في القانون الأساسي الفلسطيني.

وبعد معرفة موقف المشرع الفلسطيني من أعمال السيادة، سيتم العمل على فحص موقف محكمة العدل العليا من هذه الأعمال، وكيف تعاملت معها؟

٣. موقف محكمة العدل العليا من أعمال السيادة:

٤. قبل سن قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ٢٠٠١

تبنّت محكمة العدل العليا نظرية أعمال السيادة قبل إلغاء قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ١٩٥٢ وتعديلاته، حيث جاء في أحد أحكامها: ”أن الأحكام والمعاهدات الدولية التي تلزم الحكومة بالمحافظة على الوضع الراهن للأماكن المقدسة في فلسطين، فإن هذا النزاع يرتبط بكيفية تنفيذ الحكومة لنصوص المعاهدات وبالتالي يُعتبر القرار عملاً من أعمال السيادة التي لا تخضع للطعن أمام محكمة العدل العليا“٧٥.

بناءً على ذلك، فمن الواضح أن محكمة العدل العليا تبنّت أعمال السيادة قبل عام ٢٠٠١، وقد كان هذا الحكم في ظل حكم الأردن للضفة الغربية، إلا أنه وبعد دخول السلطة الفلسطينية قامت بإصدار العديد من التشريعات وأبقت على قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ١٩٥٢ الذي كان يحتوي على نص خاص بأعمال السيادة. إلا أنه بعد فترة حكم الأردن لم يتم الحكم في أي قضية تنص على أعمال السيادة على الرغم من وجود سند قانوني خلال هذه الفترة.

ب. بعد سن قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ٢٠٠١:

لم ينص قانون تشكيل المحاكم النظامية لعام ٢٠٠١ صراحة على أعمال السيادة، ومع ذلك فإن محكمة العدل العليا في فلسطين ناقشت في أكثر من حكم لها إذا ما كانت الأعمال المطعون فيها تندرج ضمن أعمال السيادة أم لا؟

فمن الأحكام التي قضت فيها محكمة العدل العليا بأنها لا تعتبر من قبيل أعمال السيادة: « اعتبرت محكمة العدل العليا قرار مجلس الوزراء بتأجيل الانتخابات ليس من أعمال السيادة.^{٧٦} »

« واعتبرت محكمة العدل العليا أن الدعاوي المتعلقة بالاعتقال الإداري ليست من أعمال السيادة.^{٧٧} »

وبناءً على ما تقدم، فمن الواضح أنه ليس هناك نظام قانوني ينص على أعمال السيادة، وعلى رغم من ذلك فإن محكمة العدل العليا تنظر في هذه الأعمال وتعتزف بفكرة وجود مبدأ أعمال السيادة؛ وكون هذه الأعمال تخرج عن رقابة القضاء الإداري.

وفي ظل هذا الوضع القائم هل توجد رقابة قضائية على هذه أعمال السيادة في فلسطين؟ ومن هي الجهة التي تتولى ذلك؟

٤ . الرقابة القضائية

تعتبر الرقابة القضائية على أعمال الإدارة من أكمل أنواع الرقابات وأوفاها لحماية مبدأ المشروعية ورعاية حقوق الأفراد ضد تعسف الإدارة، حيث أن الرقابة القضائية تهدف الى تفويم الإدارة بإجبارها على احترام القانون والخضوع لسلطانه ويكون ذلك عن طريق إلغاء القرارات التي تصدرها في حالة مخالفة القانون، كما تهدف الى حماية حقوق الأفراد وحررياتهم، ويتحقق ذلك عن طريق إلغاء القرارات الإدارية أو التعويض عنها أو كليهما في حال اعتداء هذا القرار على حق للفرد أو حرته.^{٧٨}

بناءً على ما سبق، فقد تبين لنا عدم وجود سند قانوني في فلسطين يتبنى نظرية أعمال السيادة، إلا أن محكمة العدل العليا تقوم بالنظر في الدعاوي التي ترفع لها بخصوص أعمال السيادة، وتحكم إذا كانت من أعمال السيادة أم لا؟

في ظل هذا الوضع يوجد نص غامض في القانون الأساسي المعدل لسنة ٢٠٠٣ ألا وهو نص المادة (٢/٣٠) حيث جاء فيه: «يحظر النص في القوانين على تخصيص أي قرار أو عمل إداري

من رقابة القضاء».

وهناك عدة تفسيرات بخصوص هذه المادة منها:

« (أن أعمال السيادة هي بطبيعتها أعمال إدارية وإن الدفع في بعض القرارات الإدارية على أنها من أعمال السيادة، يهدف لتحسين هذه القرارات من رقابة القضاء كونها مشوبة بعدم المشروعية الأمر الذي أدى لأن يعتبرها الفقهاء بأنها وبحق تمثل نقطة سوداء في جبين المشروعية، وأصبحت لديهم رغبة شبه جماعية بضرورة زوالها من عالم القانون في المجتمعات التي يقوم كيانها على مبدأ سيادة القانون، وبذلك قد يسجل المشرع الفلسطيني باعتزاز أنه وافق ما انتهى إليه الفقه بهذا الخصوص من خلال ما تم النص عليه المادة ٣٠ من القانون الأساسي».^{٧٩}

« هناك تعليق لدكتور محمد شراقة على نص حكم يقول فيه: ”أن هناك فارق بين فكرة أعمال السيادة التي هي نوع من أنواع القيود الواردة على مبدأ المشروعية، هي الظروف الاستثنائية (حالة الطوارئ) والسلطة التقديرية على خلاف عدم جواز تحسين القرارات والأعمال من رقابة القضاء التي جاءت مساندة لمقتضيات العصر الحديث وتطبيقا صحيحا لمبدأ الفصل بين السلطات التي أدرجها المشرع الفلسطيني في القانون الأساسي المعدل سنة ٢٠٠٣ في المادة الثانية منه، حيث أن هذا القيد جاء على المشرع الفلسطيني من أنه عندما ينوي تشريع قانون ما فإنه يحظر عليه تحسين أي عمل أو قرار من رقابة القضاء على مشروعيته“.^{٨٠}

وبناء على ما تقدم، ليس هناك تفسير محدد لهذه المادة، إلا إننا نرى أن عمومية هذا النص وإطلاقه يؤدي إلى منع تحسين أي نوع من القرارات حتى لو كانت من أعمال السيادة، فلو أراد المشرع الفلسطيني إخراج أعمال السيادة من تحسين ورقابة القضاء، لنص صراحة على ذلك في مواد القانون الأساسي أو أي قانون آخر. وفي ظل ما جاء في القانون الأساسي من غموض يمكن من التوجه إلى المحكمة الدستورية التي من ضمن اختصاصها حسب ما نصت عليها المادة (٢٤٢/) من قانون المحكمة الدستورية ”تفسير نصوص القانون الأساسي والقوانين في حال التنازع حول حقوق السلطات الثلاث وواجباتها واختصاصاتها“،^{٨١} والمادة (١٠٣/ب) من القانون الأساسي المعدل لعام ٢٠٠٣ التي أسست لاختصاص المحكمة الدستورية في تفسير القانون الأساسي.^{٨٢}

ولكن في ظل فرضية خضوع أعمال السيادة لرقابة القضاء من هي الجهة التي تمارس الرقابة على هذه الأعمال؟

٥ . الجهة التي تتولى وظيفة الرقابة القضائية على أعمال السيادة

الأصل أن يُمارس الرقابة القضائية على أعمال السيادة المحاكم الإدارية على اعتبار أن أعمال السيادة هي ذات طبيعة إدارية ولكن في ظل عدم وجود نص ضمن اختصاصات محكمة العدل العليا يخولها الرقابة على أعمال السيادة، فإن المحكمة الدستورية يمكن لها أن تمارس وظيفة الرقابة القضائية عليها بعد تشكيلها. فمن ضمن اختصاص المحكمة الدستورية وفقاً للمادة (١٠٣/أ) من القانون الأساسي المعدل لسنة ٢٠٠٣ الرقابة على «دستورية القوانين واللوائح أو النظم وغيرها»، وعلى الرغم من وجود نص واضح في قانون المحكمة الدستورية لسنة ٢٠٠٦ حسب المادة (١/٢٤) تختص المحكمة «الرقابة على دستورية القوانين والأنظمة»، فمن الواضح أن أعمال السيادة لا تدخل وفق قانونها ضمن اختصاصات المحكمة، ولكن من منطلق وجود كلمة «وغيرها» في القانون الأساسي والتي جاءت مطلقة والمطلق يجري على إطلاقه فإن كلمة «وغيرها» يندرج تحتها المراسيم والقرارات الإدارية بما فيها أعمال السيادة. بناء على ذلك وانطلاقاً من مبدأ هرمية التشريعات فإن القانون الأساسي يسمو على القوانين الأخرى، وبالتالي يتم تغليب النص الوارد في القانون الأساسي، وعليه يمكن إدراج أعمال السيادة ضمن الأمور الخاضعة لرقابة المحكمة الدستورية في فلسطين.

كما أن الهدف الأساسي من قيام الرقابة الدستورية هو كفالة أكبر قدر ممكن من احترام المبادئ الدستورية وحمايتها،^{٨٣} ويهدف هذا التطور في إطار تفعيل آلية الرقابة الدستورية إلى توسيع مظلة الحماية الدستورية للحقوق والحريات الأساسية، والتأكد من استمرار الشرعية، بالتالي فإن الفرد حين يلجأ إلى المحكمة الدستورية يكون هدفه من اللجوء إليها هو تأمين حماية حقه أو حريته من الانتهاك سواء من جراء إصدار تشريع أو عمل قانوني من قبل السلطة التنفيذية.^{٨٤} وعليه فإن على قاضي المحكمة الدستورية عندما يكون هناك نص غامض في الدستور، أن يفسره بما يوافق مبادئ الدستور والمبادئ «ما فوق دستورية» الرامية إلى حماية الحقوق والحريات الأساسية.

الخاتمة:

في هذه الدراسة وقع تناول أحد المواضيع الشائكة ضمن الفكر القانوني في فلسطين، والمتمثل بدراسة نظرية أعمال السيادة، ومدى إمكانية إخضاعها للرقابة القضائية في فلسطين؛ وذلك من خلال تعريف أعمال السيادة وفق الفقه والقضاء، ثم جرى الوقوف على معيار تمييز أعمال السيادة عن غيرها من الأعمال. من ثم تناول موقف الفقه والمشرع التونسي والليبي والفرنسي لمقارنته بموقف المشرع الفلسطيني واجتهادات القضاء الفلسطيني من أعمال السيادة. وذلك من خلال تسليط الضوء على واقع القضاء الإداري والدستوري في فلسطين، سواء في نطاق قانون تشكيل المحاكم النظامية أو القانون الأساسي، ثم تم تناول أهم ضمان لمبدأ المشروعية وحماية الحقوق والحريات، والرقابة القضائية والجهة التي تمارس الرقابة عليها. وخلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

- « ليس هناك تعريف محدد لنظرية أعمال السيادة سواء من ناحية الفقه أو القضاء، إلا أن الجميع لا ينكر بأنه عمل يصدر عن السلطة التنفيذية.
- « على الرغم من اختلاف الفقهاء حول معيار تمييز أعمال السيادة عن غيرها، إلا أنهم اجمعوا على معيار القائمة القضائية، هذا المعيار الذي أخذ به القضاء الليبي والتونسي والفرنسي والفلسطيني.
- « أن محكمة العدل العليا الفلسطينية لم تتبنى معياراً محدداً في تمييز أعمال السيادة عن غيرها.
- « لم يكن هناك قواعد قانونية تتبنى هذه النظرية سواء لدى المشرع الفلسطيني أو الليبي أو التونسي وحتى الفرنسي، على الرغم من أن هذه النظرية نشأت في فرنسا.
- « أنه على الرغم من أن أعمال السيادة تشكل خروجاً حقيقياً عن مبدأ المشروعية، ومبدأ سيادة القانون، وتعد اعتداءً على حقوق وحريات الأفراد، إلا أنه يُفهم من فقه قضاء محكمة العدل العليا في فلسطين أن مثل هذه الأعمال خارجة عن اختصاصها، حيث جرى العمل لديها بهذا الخصوص على التمييز إذا ما كانت الأعمال المطعون فيها تدرج ضمن أعمال السيادة أم لا. في حين أن القضاء الليبي والتونسي وحتى الفرنسي، أقروا بشكل صريح خروج هذه الأعمال عن رقابة القضاء الإداري.
- « لم يحو القانون الفلسطيني نصاً صريحاً يحصن أعمال السيادة من رقابة القضاء، على خلاف عديد القوانين المقارنة.

التوصيات:

« أعمال السيادة مهمة في سلامة الدول من أجل إدارة أوضاعها، ولكن يجب ضبطها بسند قانوني، يحدد طبيعة هذه النظرية ويجعلها من النصوص الآمرة، والنص على هذه الأعمال على سبيل الحصر، اهتداء بالقانون المقارن الذي ضيق من نطاق هذه النظرية.

« أن لا تكون أعمال السيادة محصنة من رقابة القضاء بشكل مطلق؛ وعلى اعتبار أن المحكمة الدستورية تمثل أهم الأجهزة التي تكفل علوية الدستور، وحماية حقوق الإنسان وحرياته؛ فإنه لا بد من إسناد صلاحية الرقابة على جميع أعمال السلطات بما فيها أعمال السيادة، للمحكمة الدستورية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

التشريعات:

- « تونس. دستور لسنة ١٩٥٩ ودستور سنة ٢٠١٤.
- « فلسطين. قانون المحكمة الدستورية العليا رقم ٣ لسنة ٢٠٠٦.
- « فلسطين. القانون الأساسي الفلسطيني المعدل لسنة ٢٠٠٣.
- « فلسطين. قانون تشكيل المحاكم النظامية الفلسطينية رقم ٥ لسنة ٢٠٠١.
- « الأردن. قانون تشكيل المحاكم النظامية المعدل رقم ٣٨ لسنة ١٩٦٣.
- « الأردن. قانون تشكيل المحاكم النظامية رقم ٢٦ لسنة ١٩٥٢.
- « لبنان. دستور لسنة ١٩٩٠.
- « لبنان. قانون المحاكم الادارية الاقليمية ومجلس الشورى رقم ٢٢٧ لسنة ٢٠٠٠.
- « الأحكام القضائية:
- « فلسطين. أحكام محكمة العدل العليا. منظومة القضاء والتشريع في فلسطين.
- « الأردن. أحكام محكمة العدل العليا. مجلة نقابة المحامين الأردنية.
- « الأردن. أحكام محكمة العدل العليا. شبكة قوانين وتشريعات الأردنية.

ثانياً: المراجع

« إيكارد، فيليب. «أعمال السيادة». ورقة مقدمة في محاضرة: أعمال السيادة ذات الحصانة القانونية المطلقة وشبه مطلقة من منظور إداري ودستوري، جامعة بيرزيت، بيرزيت،

١٨- شباط-٢٠١٦.

- « بن خليفة، عبد الرزاق. إجراءات النزاع الإداري في القانون وفقه القضاء: قانون المحكمة الإدارية محين ومعلق عليه بأهم القرارات والأحكام الصادرة عن المحكمة الإدارية ومجلس تنازع الاختصاص. تونس: دار إسهامات في أدبيات المؤسسة، ٢٠٠٧.
- « جنيح، محمد. القانون الإداري. تونس: مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٤.
- « خليل، محسن. القضاء الإداري اللبناني «دراسة مقارنة». بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢.
- « جنيح، وآخرون. الأحكام الكبرى في فقه القضاء الإداري. تونس: مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٧.
- « أبو عمارة، محمد. القانون الإداري «نشاط الإدارة العامة في فلسطين». غزة: جامعة الأزهر، ١٩٩٩.
- « أبو العثم، فهد. القضاء الإداري بين النظرية والتطبيق. عمان: دار الثقافة والنشر، ٢٠٠٥.
- « عبد الغني عبدالله. القضاء الإداري اللبناني مجلس الشورى الدولة والمحاكم الإدارية الإقليمية وفقاً للقانون رقم ٢٢٧ لسنة ٢٠٠٠. بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠١.
- « الجبوري، محمود. القضاء الإداري: دراسة مقارنة. عمان: دار الثقافة والنشر، ١٩٩٨.
- « الحسبان، عيد. «الحماية الدستورية للحقوق والحريات الأساسية». مجلة الشريعة والقانون، عدد ٢٨ (٢٠٠٦): ٣٢٥-٣٥٥.
- « سعد، جورج. القانون الإداري العام والمنازعات الإدارية. بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٦.
- « شاكر، شاكر. اختصاص القاضي الدستوري بالتفسير الملزم دراسة تأصيلية تحليلية. القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٥.
- « الشخانة، عبد. «القرارات الإدارية ومبدأ المشروعية» رسالة ماجستير دراسة مقارنة مصر والأردن، جامعة الأردنية، ١٩٨٨.
- « الشكروي، والبيديري التنظيم لأنظمة الاستثناء (دراسة مقارنة)، والموقع الإلكتروني (استرجعت في تاريخ ٢٠١٦-٢-١) http://www.uobabylon.edu.iq/publications/law_edition10/article_ed10_2.doc
- « شطناوي، علي. دراسات في القرارات الإدارية. عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٩٨.
- « العتوم، منصور. القضاء الإداري. عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
- « علاونة، فادي. «مبدأ المشروعية في القانون الإداري و ضمانات تحقيقه». رسالة ماجستير، جامعة النجاح، ٢٠١١.
- « العلوي، سالم. القضاء الإداري: دراسة مقارنة. عمان: دار الثقافة والنشر، ١٩٩٩.
- « عمرو، عدنان. القضاء الإداري الفلسطيني: مبدأ المشروعية. رام الله: مطبعة بيت المقدس،

٢٠٠١.

- « الفتوي، لمياء. « الأعمال المنفصلة في فقه قضاء المحكمة الإدارية». مذكرة للإحراز على شهادة الدراسات المعمقة في القانون العام، سوسة: كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية بسوسة، ١٩٩٧.
- « قدورة، زهير. الوجيز في القضاء الإداري. عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١١.
- « القيسي، إعاد. القضاء الإداري في الأردن. عمان: دار وائل للنشر، ١٩٩٩.
- « نده، حنا. القضاء الإداري في الأردن. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٢.
- « واصل، محمد. «أعمال السيادة والاختصاص القضائي». مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، عدد ٢ (٢٠٠٦)، ٣٩٠.

مصادر أجنبية:

- J-C Ricci, Mémento de la jurisprudence administrative – 3e édition «
Hachette Supérieur, Paris 2000, P.12

مقابلات:

- « فيليب إيكارد، أستاذ مساعد اختصاص قانون إداري. مقابلة شخصية. بيرزيت، ١٧-
شباط-٢٠١٦، الساعة ١٢:٠٠ - ١٢:٤٠ ظهراً.

الهوامش:

١. زهير قدورة، الوجيز في القضاء الإداري (عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١١)، ١٧-١٨.
٢. فهد عبد الكريم أبو العنم، القضاء الإداري بين النظرية والتطبيق (عمان: دار الثقافة والنشر، ٢٠٠٥)، ٨٤.
٣. محمود الجبوري، القضاء الإداري «دراسة مقارنة» (عمان: دار الثقافة والنشر، ١٩٩٨)، ٤٧.
٤. إعاد القيسي، القضاء الإداري (عمان: دار وائل للنشر، ١٩٩٩)، ٦٤.
٥. عدنان عمرو، القضاء الإداري الفلسطيني: مبدأ المشروعية (رام الله: مطبعة بيت المقدس، ٢٠٠١)، ٨٤.
٦. القيسي، القضاء الإداري، ٦.
٧. عمرو، القضاء الإداري الفلسطيني، ٨٥.
٨. الجبوري، القضاء الإداري «دراسة مقارنة»، ٤٧.
٩. عمرو، القضاء الإداري الفلسطيني، ٨٨.
١٠. منصور إبراهيم العنوم، القضاء الإداري (عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠١٣)، ٤٥.
١١. جورج سعد، القانون الإداري العام والمنازعات الإدارية (بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠٦)، ١٣٣.
١٢. حكم رقم ٣٤٠ لسنة ١٩٩٧ محكمة العدل العليا الأردنية منشورات في شبكة قوانين وتشريعات الأردنية، <http://www.lob.gov.jo/AR/Pages/AdvancedSearch.aspx>
١٣. طعيمة الجرف، قضاء الإلغاء (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٧)، ١٠٧.
١٤. حكم رقم ٨٥ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا الفلسطينية المنعقدة في رام الله بجلسته ١١/٧/١٩٩٩.
١٥. حكم رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا الفلسطينية المنعقدة في رام الله بجلسته ١٠/٦/١٩٩٨.
١٦. القيسي، القضاء الإداري، ٦٤.
١٧. سالم العلوي، القضاء الإداري: دراسة مقارنة (عمان: دار الثقافة والنشر، ٢٠٠٩)، ٥٣.
١٨. القيسي، القضاء الإداري، ٦٦.
١٩. الجبوري، القضاء الإداري، ٤٨.
٢٠. حكم رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا الفلسطينية المنعقدة في رام الله بجلسته ١٠/٦/١٩٩٨.
٢١. عمرو، القضاء الإداري الفلسطيني، ٩٤.
٢٢. القيسي، القضاء الإداري، ٦٦.
٢٣. حكم رقم ٨٥ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله بجلسته ١١/٧/١٩٩٩.
٢٤. للمزيد يراجع محمد شراقة، التعليق على طعن في حكم رقم ٥٣١ لسنة ٢٠١٠ محكمة العدل العليا منعقدة في رام الله صادر بتاريخ ١٣/٢/٢٠١٠، ٥.
٢٥. محمد واصل، «أعمال السيادة والاختصاص القضائي»، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، عدد ٢ (٢٠٠٦)، ٣٩٠.
٢٦. عمرو، القضاء الإداري الفلسطيني، ١٠١-١٠٢.
٢٧. القيسي، القضاء الإداري، ٧١.
٢٨. حكم رقم ١٨ لسنة ٢٠٠٠ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله بجلسته ٧/١١/٢٠٠٠.
٢٩. حنا نده، القضاء الإداري: في الأردن (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٢)، ٢٤١.
٣٠. منصور، القضاء الإداري، ٤٩-٥٠.
٣١. حكم رقم ٥٣١ لسنة ٢٠١٠ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله بجلسته ١٣/١٢/٢٠١٠.
٣٢. حكم رقم ٧٧ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله بجلسته ١٠/١٢/١٩٩٩.
٣٣. فادي علاونة، «مبدأ المشروعية في القانون الإداري و ضمانات تحقيقه» (رسالة ماجستير، جامعة النجاح، ٢٠١١)، ٩٠.
٣٤. علي خطار شطناوي، دراسات في القرارات الإدارية (عمان: جامعة الأردنية، ١٩٩٨)، ٦٨.
٣٥. حافظ، القضاء الإداري في الأردن، ٥٩-٦٠.
٣٦. علاونة، مبدأ المشروعية في القانون الإداري، ٩١.
٣٧. محمد أبو عمارة، القانون الإداري «نشاط الإدارة العامة في فلسطين» (غزة: جامعة الأزهر، ١٩٩٩)، ١٧٩.
٣٨. القيسي، القضاء الإداري، ٧٤.
٣٩. فيليب إيكارد، «أعمال السيادة» (ورقة مقدمة في محاضرة: أعمال السيادة ذات الحصانة القانونية المطلقة وشبه مطلقة من منظور إداري ودستوري، جامعة بيرزيت، بيرزيت، ١٨- شباط-٢٠١٦).
٤٠. انظر: قرار مجلس الدولة، ١ ايار ١٨٣٢، قضية لا فيت.
٤١. J-C Ricci, Mémento de la jurisprudence administrative – 3^e édition – Hachette Supérieur, Paris 2000, P.12
٤٢. فيليب إيكارد، استاذ مساعد اختصاص اداري. مقابلة شخصية. بيرزيت، ١٧- شباط – ٢٠١٦، الساعة ١٢:٠٠-١٢:٤٠ ظهرا.

٤٣. انظر: قرار محكمة النزاعات الفرنسية الصادر بتاريخ ٢ فبراير ١٩٥٠ حول الإذاعة الفرنسية.
٤٤. انظر: قرار مجلس الدولة، جمعية النزاعات في مجلس الدولة، الصادر بتاريخ ٩ نيسان ١٩٩٩ حول السيدة با.
٤٥. انظر: قرار مجلس الدولة، غرفة النزاعات في مجلس الدولة، الصادر بتاريخ ٢٥ أيلول ١٩٩٨، قرار ميجريه.
٤٦. انظر: قرار مجلس الدولة، جمعية النزاعات في مجلس الدولة، الصادر بتاريخ ٢ آذار ١٩٦٢.
٤٧. انظر: قرار مجلس الدولة، غرفة النزاعات الإدارية، القرار الصادر بتاريخ ٢٩ آذار ١٩٣٥، وقرار شركة أيود، أو للدفاع وحماية المصالح الفرنسية في الخارج وقرار مجلس الدولة الصادر بتاريخ ٤ تشرين الأول ١٩٦٨ قضية ليفي.
٤٨. انظر: قرار محكمة النزاعات في مجلس الدولة الصادر بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٩٢، الخاص بمحافظ منطقة الجير وند الفرنسية.
٤٩. انظر: قرار غرفة النزاعات الإدارية في مجلس الدولة بقرارها الصادر بتاريخ ١٧ تموز ١٩٥٠، المتعلق بشركة مؤسسات راتيس وغرفة النزاعات الإدارية في مجلس الدولة بقرارها الصادر بتاريخ ٥ آذار ١٩٥٠، المتعلق بكليمنسيل.
٥٠. انظر: قرار مجلس الدولة من محكمة النزاعات في مجلس الدولة الصادر بتاريخ ٢٩ ايلول ١٩٩٥، المتعلق بمؤسسة جرين بيس.
٥١. J-C Ricci, Mémento de la jurisprudence administrative – 3e édition – Hachette Supérieur, Paris 2000, P.12
٥٢. تم تعليق العمل بدستور حزيران ١٩٥٩ بعد ثورة ١٤ كانون الثاني ٢٠١١، وذلك بصدر المرسوم عدد ١٤ لسنة ٢٠١١ المؤرخ في ٢٣ آذار ٢٠١١، المتعلق بالتنظيم المؤقت للسلطة العمومية، ثم تقرر إنهاء العمل به بمقتضى الفصل ٢٧ من القانون التأسيسي عدد ٦ لسنة ٢٠١١ المؤرخ في ١٦ كانون الأول ٢٠١١ المتعلق بالتنظيم المؤقت للسلطة العمومية.
٥٣. عبد الرزاق بن خليفة، إجراءات النزاع الإداري في القانون و فقه القضاء: قانون المحكمة الإدارية محين ومعلق عليه بأهم القرارات والأحكام الصادرة عن المحكمة الإدارية ومجلس تنازع الاختصاص (تونس: دار إسهامات في أدبيات المؤسسة، ٢٠٠٧)، ٥١.
٥٤. محمد رضا جنيح، قانون الإداري (تونس: مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٤)، ١٨٤.
٥٥. محمد رضا جنيح، أحمد سهيل الراعي، فاضل المكور وآخرون، الأحكام الكبرى في فقه القضاء الإداري (تونس: مركز النشر الجامعي، ٢٠٠٧)، ٢١١-٢١٢.
٥٦. فقه قضاء المحكمة الإدارية لسنة ٢٠٠٨، حكم ابتدائي صادر في القضية عدد ٢٦٧٥٧ بتاريخ ١٥ تموز ٢٠٠٨، بن سدرين ضد الوزير الأول، ١٥١.
٥٧. ينص دستور الجمهورية التونسية الذي تمت المصادقة عليه في ٢٦ كانون الثاني ٢٠١٤ على صلاحيات مسندة لرئيس الجمهورية بخصوص إعلان الحالات الاستثنائية وذلك ضمن الفصل (٨٠) إذ ينص على أنه «الرئيس الجمهورية في حالة خطر داهم مهدد لكيان الوطن أو أمن البلاد أو استقلالها، يتعذر معه السير العادي لدواليب الدولة، أن يتخذ التدابير التي تحتمها تلك الحالة الاستثنائية، وذلك بعد استشارة رئيس الحكومة ورئيس مجلس نواب الشعب وإعلام رئيس المحكمة الدستورية، ويُعلن عن التدابير في بيان إلى الشعب. ويجب أن تهدف هذه التدابير إلى تأمين عودة السير العادي لدواليب الدولة في أقرب الآجال، ويُعتبر مجلس نواب الشعب في حالة انقضاء دائم طيلة هذه الفترة. وفي هذه الحالة لا يجوز لرئيس الجمهورية حل مجلس نواب الشعب كما لا يجوز تقديم لائحة لوم ضد الحكومة. وبعد مُضي ثلاثين يوماً على سريان هذه التدابير، وفي كل وقت بعد ذلك، يُعهد إلى المحكمة الدستورية بطلب من رئيس مجلس نواب الشعب أو ثلاثين من أعضائه التَّصُّق في استمرار الحالة الاستثنائية من عدمه. وتصرح المحكمة بقرارها علانية في أجل أقصاه خمسة عشر يوماً؛ وينتهي العمل بتلك التدابير بزوال أسبابها. ويوجه رئيس الجمهورية بيانا في ذلك إلى الشعب».
٥٨. انظر: قرار مجلس الدولة المتعلق بأمر ختم قانون ..C. d E., sect.3 Novembre 1993, Desrumeaux.R.D.P., 1934. 649. Note Jèze
٥٩. انظر: قرار مجلس الدولة المتعلق بقضية الأمن المحدثة في المياه الدولية أثناء التجارب النووية الفرنسية. C. d E., Ass., 11 juillet 1975, Paris de Bollardièrre A.J.D.A., 1975,455
٦٠. البغدادي علي المحمودي أمين اللجنة الشعبية العامة (رئيس الوزراء) في ليبيا منذ ٥ آذار ٢٠٠٦ إلى ٢٠ آب ٢٠١١ خلفا لشكري غانم. فر إلى تونس في آب ٢٠١١ (بعد حوالي ستة أشهر من قيام ثورة ١٧ شباط)، فألقت السلطات التونسية القبض عليه بتهمة الدخول إلى البلد بطريقة غير شرعية، ثم أفرجت عنه محكمة تونسية يوم ٢٧ تشرين الأول ٢٠١١. ثم أعادت السلطات التونسية توقيفه وسلمته للحكومة الليبية في ٢٤ يونيو ٢٠١٢.
٦١. حمادي الجبالي هو سياسي ومهندس وصحفي تونسي تولى منصب رئيس الوزراء في كانون الأول ٢٠١١ بعد فوز حركة النهضة في انتخابات المجلس التأسيسي ٢٠١١ وانتهت فترة ولايته رئيسا للوزراء في آذار ٢٠١٣ بعد أن قدم استقالته على إثر رفض الأغلبية المتمثلة في حركة النهضة والمؤتمر من أجل الجمهورية مبادرته بتشكيل حكومة تكنوقراط. خلفه القيادي بحزب حركة النهضة علي العريض في المنصب.
٦٢. تم طلب الاستشارة بالاعتماد على الفصل (٤) من القانون عدد (٠٤) لسنة ٢٧٩١ مؤرخ في أول حزيران (٢٧٩١) المتعلق بالمحكمة الإدارية الذي ينص على أنه «تقع استشارة المحكمة الإدارية وجوبا بشأن مشاريع الأوامر ذات الصبغة الترتيبية. وتستشار المحكمة الإدارية بخصوص مشاريع النصوص الأخرى وبوجه عام حول كافة المواضيع التي تقتضي الأحكام التشريعية أو الترتيبية مشورتها أو التي تعرضها عليها الحكومة لإبداء رأيها فيها».
٦٣. هو رئيس الجمهورية التونسية الثالث منذ ٢٠١١ وحتى ٢٠١٤، وهو أول رئيس في العالم العربي يأتي إلى سدة الحكم ديمقراطيا ويسلم السلطة ديمقراطيا إلى المعارض المنافس بعد انتهاء مدة ولايته. وهو مفكر وسياسي تونسي ومعارض سابق لنظام زين العابدين بن علي ومدافع عن حقوق الإنسان، ويحمل شهادة الدكتوراه في الطب، ويكتب في الحقوق والسياسة والفكر.

٦٤. لمياء الفتوي، الأعمال المنفصلة في فقه قضاء المحكمة الإدارية (مذكرة للإحراز على شهادة الدراسات المعمقة في القانون العام، سوسة: كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية والسياسية بسوسة)، ١٩٩٧.
٦٥. C.dE., Ass.Coloniede Hong Kong, G.Ar., n°106.
٦٦. عبد الغني عبدالله، القضاء الإداري اللبناني مجلس الشورى الدولية والمحاكم الإدارية الإقليمية وفقاً للقانون رقم ٢٢٧ لسنة (بيروت: منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠٠١)، ٦٥.
٦٧. الشكروني، والبيديري، «التنظيم لأنظمة الاستثناء دراسة مقارنة». (استرجعت في تاريخ ٢٠١٦-٢-١). http://www.uobabylon.edu.iq/publications/law_edition10/article_ed10_2.doc
٦٨. عبد الله، القضاء الإداري اللبناني، ٦٥-٦٦.
٦٩. مشار اليه في محسن خليل، القضاء الإداري اللبناني «دراسة مقارنة» (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٢)، ٢٩٩-٣٠٠.
٧٠. المرجع السابق، ٣٠٠.
٧١. عبد الله، القضاء الإداري اللبناني، ٦٨.
٧٢. عبد الله، القضاء الإداري اللبناني، ٦٨-٦٩.
٧٣. قانون رقم ٣٨ لعام ١٩٦٣ المعدل لقانون تشكيل المحاكم النظامية المادة الثالثة فقرة ٢/ط.
٧٤. أنظر لنص المادة ٣٣ من قانون تشكيل المحاكم النظامية لسنة ٢٠٠١ التي ذكرت اختصاصات المحكمة وليس هناك أي إشارة إلى أعمال السيادة.
٧٥. حكم رقم ٥١ لعام ١٩٦٦، مجلة نقابة المحامين الأردنية، عدد ٩، ٩١٥.
٧٦. حكم رقم ٥٣١ لسنة ٢٠١٠ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله بجلسته ١٣-١٢-٢٠١٠.
٧٧. حكم رقم ١٨ لسنة ٢٠٠٠ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله، وبذات الموضوع حكم رقم ٧٧ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله، وحكم رقم ٢٦ لسنة ١٩٩٨ محكمة العدل العليا المنعقدة في رام الله.
٧٨. قدورة، الوجيز في القضاء الإداري، ٤٦-٤٧.
٧٩. حكم محكمة العدل العليا رقم ٥٣١ لسنة ٢٠١٠ المنعقدة في رام الله، ٥-٦.
٨٠. تعليق على حكم صادر عن محكمة العدل العليا رقم ٥٣١ لسنة ٢٠١٠ لدكتور محمد شراقة، المنعقدة في رام الله، ٦.
٨١. أنظر إلى قانون المحكمة الدستورية رقم (٣) لسنة ٢٠٠٦ مادة ٢٤ التي تنص على اختصاصات المحكمة.
٨٢. أنظر إلى القانون الأساسي المعدل لعام ٢٠٠٣ المادة (١٠٣/ب) التي تنص تنوّل المحكمة الدستورية العليا: "تفسير نصوص القانون الأساسي والتشريعات".
٨٣. شاكر راضي شاكر، اختصاص القاضي الدستوري بالتفسير الملزم دراسة تأصيلية تحليلية (القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٥)، ١٥٩.
٨٤. عيد أحمد الحسبان، «الحماية الدستورية للحقوق والحريات الأساسية»، مجلة الشريعة والقانون، عدد ٢٨ (٢٠٠٦)، ٣٢٥-٣٥٥.

تقارير

من اليأس إلى الأمل قراءة نسوية في مفهوم المرأة الضحية - إعلاميا ومجتمعيا وثقافيا

هداية نسمعون *

«مفروض يسموه مشروع من اليأس إلى الأمل» هذا ما قالته إحدى النساء اللواتي خضن تجربة الدعم النفسي الاجتماعي لمشروع «المرأة الفلسطينية الاحتلال والفقدان» وفي تقييمها لتجربتها أضافت: «كنت مهمشة حالي، وكنت محتاجة حد أحكيه وأعبرله عن وجعي وألمي بدون ما يقلني أصبري واسكتي ولا تبكي انتي قوية.؟!» بينما تقول أخرى «هذا ما نحتاج إليه، لا نريد مساعدات مادية نريد دعما نفسيا واجتماعيا وتقديرا للدورنا»

ملامسة التغيير:

الكثير من التغييرات الفكرية والسلوكية والمعرفية اخترزلتها تجربة واحدة في تغيير جدي وحقيقي لدى النساء اللواتي عانين من تجربة الفقدان لأعزاء عليهن في العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة، حيث تمكنت التجربة من الوصول لنساء فلسطينيات يعشن في حي الشجاعية وتعرضن لفقدان مركب بسبب العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة في ٢٠١٤.

جاءت النساء وهن يعانين الإحباط واليأس والقهر والتهميش وجئن يتفحصن القوائم على الدعم النفسي والاجتماعي، الجلسات الثلاثة الأولى للمجموعة الواحدة كانت النساء المشاركات قلقات وغير واثقات أنهن سيستمرن في المتابعة والبقاء في المجموعات، كن يشعرن بعدم الاتزان، حيث لازالت جذور الحرب وآثارها تشد المرأة الفاقدة وتمارس سطوتها عليها بفعل الفقدان وآثار الصدمة وما بعد الصدمة، بالإضافة إلى جذور المهام المتراكمة عليها سواء دورا عائليا أو اجتماعيا أو لا دور بل هي حالة من الفوضى وفقدان التوازن وعدم التركيز. فكما قلن في بداية الجلسات: «يوم وبيعدي» «من يهتم» «لم نعتد أن يهتم أحد بنا وبالتالي لم نعد نهتم بأنفسنا»... مشاعر مختلطة جاءت بها النساء في الجلسات الأولى كن يهربن من مواجهة صدمة الفقدان، كن يهربن بأرواحهن عن التفاصيل لما حدث، بل وهربت بعضهن بجسدها من قاعة اللقاءات صارخة «ماذا تفعلون بنا؟!!!» «لماذا تنكأون الجرح نريد أن ندفنه وأنتم تخرجوه لماذا؟؟ لماذا؟؟؟ من سمح لكم بذلك؟!!!»

* إعلامية وكاتبة - مركز شؤون المرأة-غزة

هذه الأسئلة الصارخة كانت بداية إعادة الثقة، الجلسات العشر الأولى كانت انكشاف حقيقي عميق وشفاف من النساء اللواتي عانين مرارة فقدان، أصغين لبعضهن البعض «تفاصيل لم يعلم بها أحد من عائلتنا» أصغين واستمعن ونطقن وتحدثن بكل الآلام التي واجهنها « مشيت على الجثث وجريت والقذائف وراي، بأجري وبأبكي كيف قدرت أدوس على وجوهم النقية؟! »

« (أدخلت بيدي أمعاء بنتي وضميتها لصدري ساعة ساعتين ما يعرف الدم صار بكل جسمي وأنقذت بنتي من الموت لكن أنا من وقتها بأحاول أعرف كيف قدرت أعمل هيك.. » . . النساء عبرن بكل الكلمات والدموع والشهقات، تعبن كثيرا الكهن عشن مرحلة الانكشاف على الأخريات، «بدينا نحس أنه كان لازم نحكي من زمان» .. الثقة بدأت تزداد، الألفة بدأت تظهر بين النساء، الصداقات بدأت تتشكل، الزيارات الاجتماعية لمناسبات الولادة والأعراس بدأت تقوى، يحضرن للجلسات الجماعية دون تغييب ودون اتصال من أحد، موعدهن أسبوع جلسة ثم أسبوع راحة وهكذا بيوم وساعة ومكان معروف. من هنا بدأت المجموعات النسائية الثلاثة تتلقى الدعم النفسي من تحفيز وتقدير الذات، إلى تقويتهم بطرق تساعدن على التركيز والوصول للسلام الداخلي والشعور بالتوازن، القدرة على السيطرة على المشاعر وليس العكس.

النساء بدأت تحدد أولويات يرغبن بمعرفتها والتعمق فيها مثل أساليب التربية السليمة للأطفال، كيفية التعامل مع المراهقين والمراهقات من أبناء وبنات، الرعاية الذاتية وحسن الحال، ممارسة التنفس الصحيح، توعيتهم بموضوعات العنف والترويج المبكر والحقوق والميراث، ساعدتهن الجلسات في تحسين مهاراتهن في التعبير عن ذواتهن، واختيار الكلمات المعبرة التي تناسب شخصيتهن، استمرت المجموعات ٢٤ لقاء لكل مجموعة على مدار ٩ أشهر متواصلة كانت قادرة على مساندة النساء في إعادة تشكيل هويتهن، والتعرف على ذواتهن مرة أخرى، واكتشاف كل ما يجبرهن المجتمع عليه من صورة نمطية تبجل الشهداء والتضحية وتجعلها دوما صامدة حتى لو ظلت وحيدة، ساعدت الجلسات الداعمة والمجموعات في فهم النساء لأنفسهن ولما يردنه، ولما يتوجب أن يقمن به من تصالح مع الذات في المقام الأول، ورعاية ذواتهن، ثم الاهتمام بالأحياء من عائلاتهن، واكتشاف الحب والدفء والحميمة مرة أخرى، فأصبحت هؤلاء النساء قويات وتمكن من إعادة إعمار قلوبهن وأجسادهن وهويتهن، كن سابقا يدرن في حلقة مفرغة من اليأس والقهر والحزن والانكفاء على ما فقدن ومن فقدن فتقزم الواقع في عيونهن ومن هنا كن بحاجة للدعم النفسي والمجتمعي بكل قوة.

بعض النساء وبلغ عددهن ٢٤ امرأة ممن تلقين جلسات الدعم النفسي والاجتماعي، تلقين

بشكل موازي تدريبا مكثفا في دور الداعمة المتوقع لبدء الانتقال من مرحلة الضحية الفاقدة إلى الداعمة، تنوعت مضامين التدريب ما بين: الرعاية الذاتية وحسن الحال والأمن المتكامل، والتحفيز الذاتي، والتقدير الذاتي، والاسترخاء وطرق التنفس والتثبيت والتجذير لإعادة التوازن والتمكن من السيطرة على المشاعر، والوصول لحالة من التوازن والسلام، إضافة إلى مهارات التوثيق والدعم ومهارات المقابلة وكسر الحاجز وكسب الثقة والتأكيد على مكان الإيجابية والقوة لكل امرأة.

استمر التدريب ٩ أيام على مدار ٣ شهور لتمتكن الداعمات من ممارسة هذا الدور في عائلتها ومحيطها المجتمعي، من ثم ستبدأ الداعمات في الوصول لفئات جديدة من النساء الفاقدات في حي الشجاعية واللواتي عانين من العدوان الإسرائيلي الأخير ٢٠١٤ وسيشاركن في تقديم الدعم الفردي بالزيارات المنزلية لنساء فاقدات شهريا سيتم لقاء الحالة ٤ مرات شهريا، وسيشاركن في تقديم الدعم الجماعي لثلاث مجموعات نسائية جديدة سيتم تشكيلها مرة أخرى، كما سيشاركن في تقديم الدعم الجماهيري والتوجه للجمهور بتحسين الفهم للتعامل مع الفقدان بطرق سليمة، وهنا جوهر عمل المشروع المعنون بـ: « المرأة الفلسطينية، الاحتلال، والفقدان» والذي يهدف لمساندة النساء وتغيير مفهوم المرأة الضحية (كمفهوم مجتمعي اعلامي ثقافي) إلى تسهيل دورها كأمراة داعمة عانت الجرح والوجع وبات بإمكانها مواجهته ومساعدة غيرها من نساء في تقديم الدعم النفسي والاجتماعي.

الاقتراب من مساحتهن الخاصة:

عبرت النساء عن تفاصيل قاسية جدا مررن بها وقت العدوان الإسرائيلي وعبرن عن هذه التفاصيل التي أخفيها حتى عن أقرب الأقرباء في عائلاتهن لقسوتها، بل حاولن جاهدات طيلة عام بأكمله نسيانها لكنهن بتن أكثر عصبية وقسوة على ذواتهن بسبب ذلك لقد ساعدتهن تجربة الدعم في أن يخرجن كل ما في أنفسهن ويواجهن كل القسوة التي عشنها بالكثير من الحكمة والتعلم والأمل أن الرحمة والإنسانية في أساس لا يمكن تجاهله.

الإعلان عن أسماءهن:

في بداية العمل مع النساء كن يتحاشين استخدام أسماءهن ويعرفن بأم فلان وأم فلان، وحتى فيمن كن يقدمن أي معلومات لأخبار للتعطية الإعلامية كن يفضلن حجب أسماءهن، وهذا يرجع للثقافة المجتمعية بالأساس، وعزل المرأة بأولادها أو باسم ذكر في عائلتها، ومع مرور الجلسات والوقت وردود الفعل التي تلقينها من مؤازرين ومناصرين لهن، من داخل وخارج

فلسطين فقد شعرت بمزيد من الثقة والاعتزاز بأنفسهن، وأصبحن يطلبن أن تكتب أسماءهن في التغطية الإعلامية.

الظهور في الاعلام:

في بداية اللقاءات كانت النساء تحاول أن تخفي وجههن وكثيرا ما رفضن التصوير حتى وهن غير منقبات فإما يغيرن أماكن جلوسهن كي لا يظهرن بالصور أو يعلن عن رفضهن بعد الموافقة، والتذبذب بين القبول والرفض كانت شائعا، إلا أنه في سياق الدعم النفسي والاجتماعي وأيضا الدعم الإعلامي الذي أشعرهن بأن التصوير أمرا عاديا بل هو لأجلهن وليس عيبا يخفين ويعزلن أنفسهن عنه، حتى أن بعضهن أصبحن يطلبن بعض الصور للاحتفاظ بها، وفي سياق موافقتهن على الظهور إعلاميا فقد انتقلت أكثر من نصف النساء من الرفض للظهور إعلاميا على فضائيات أو تغطية إعلامية الكترونية أو مسموعة إلى الموافقة بل أصبحن في مراحل متقدمة في العمل معهن يتنافسن للظهور إعلاميا لأنهن شعرن أهمية هذا الظهور ولأنهن أصبحن واثقات من أنفسهن، وهذا بأكمله جاء نتيجة الإصغاء لهن ولاحتياجاتهن النفسية والاجتماعية ومدخل الرعاية الذاتية وحين الحال والأمن المتكامل كنهج قائم عليه كل العمل الفردي والجماعي والجماهيري.

تشكيل مجموعات نسائية محلية داعمة:

لقد أفرز العمل مع النساء في منطقة الشجاعية كمنطقة بها كثافة سكانية أشكالا للتواصل بين النساء إضافة لكافة اللقاءات الرسمية التي التحقن بها من خلال مركز شؤون المرأة، وهذا الأمر الذي يعتبر نتيجة مهمة للجهود التي قمنا بها كفريق عمل، لأن بداية تشكيل مجموعات نسائية محلية داعمة واستمرار حلقة الدعم بينهن نظرا لتقاطع أولوياتهن وظروفهن واهتماماتهن هو أمر إيجابي، وحلقة مستمرة وديمومة مهمة للنساء أنفسهن ولنساء أخريات سيتلقين دعما نفسيا واجتماعيا ومعنويا مهما ومطلوبا، وهذه المجموعات النسائية هي القوة المستقبلية التي قد تشكلها النساء لأنه أصبحت لديهن مفاهيم الدعم تغلب على مفاهيم الفقدان، وعوامل التحدي والبحث عن الأمل أقوى من عوامل اليأس والاستسلام للحزن والألم.

إعادة الثقة في مفهوم الدعم النفسي:

واجهنا في بداية العمل مع ومن أجل النساء الفاقدرات صعوبات كبيرة أبرزها تشوه مفهوم الدعم النفسي لديهن، إذ بعد العدوان الإسرائيلي المتكرر تتوجه لهن العديد من المؤسسات

المتخصصة وغير المتخصصة في الدعم النفسي وتنفيذ مشاريع متعددة لكنها طارئة وعاجلة و سطحية، وهذا تقييما لبعض التدخلات وليس تعميما لكل المؤسسات، إلا أن هذه التدخلات غير المدروسة والمنظمة نتج عنها قلة الثقة في أهمية الدعم النفسي لأن الآثار لم تكن ذات قيمة لهن «اجونا ونفخنا بلالين مرة، ومرة طلوعونا رحلة ويس هيك فهمنا منهن انه هذا دعم نفسي» «كنا بدنا أي حد يساندنا لكن انه أحضر لقاء او اثنين وما احكي عن حالي ووضعني كيف بدني اكمل حياتي بعد ما راح بيتي، صعب افهم انه هذا مفيد لوضعي»، ولخشية النساء في بداية جلسات الدعم النفسي والاجتماعي أن يكون وجودهن معنا اثر تجربتهن السابقة فقد أكدنا لهن أنهن غير موافقات نهائيا في الانضمام لنا في الجلسات بشكل دائم ومستمر.

وهذا يخضع لما سيقدم لهن، وبعد تلقي ٥ جلسات للدعم النفسي وبداية انفتاح النساء وشعورهن واحساسهن أن الدعم النفسي يستهدفهن كل امرأة على حدى ووفقا لتجربتها وبمراعاة ظروفها الخاصة بدأت ملامح الثقة تظهر بالتزامهن بالجلسات، وبدأت يواظبن على الحضور دون اتصال وتأكيد من الأخصائيات، ودون رسائل تذكير لمواعيد الجلسات، لأن الأجدنة تم تحديدها بالاتفاق معهن جلستين كل شهر، بتواريخ ثابتة طيلة ٩ أشهر، وقد فاجأنا بعض النساء بحضورها جلسات كانت في يوم احتفالي عائلي قبل زفاف ابنها بيوم، وأخرى يوم حنة ابنتها، وثالثة كسرت ساقها ولديها جيرة وخرجت من المستشفى كي لا تفوتها جلسة الدعم النفسي والاجتماعي، هذا بأكمله يعطينا مؤشرات ودلالات على إيمان النساء بما يقدم لهن، واحساسهن بانهن بدأت يتغيرن فكريا وسلوكيا ومعرفيا أيضا « في الحرب فقدت عائلتي ٨ افراد زوجي وابنائي وزوج بنتي وبيتي، كل شيء، كنت وحدي وقفوا معانا حضونا دعمونا نفسيا، علمونا كيف نرجع لحياتنا وقويينا فيهم».

من فقدان على الدعم:

لقد تمكنت النساء ووفق تقييم مستمر معهن شفهيًا وكتابيًا من الوصول إلى مرحلة التوازن النفسي والشعور بالأمان والاستقرار والرضا وقبل ذلك التوقف عن التكيف السلبي لفقدانهن، فقد تألمن وحزن وفطرت قلوبهن لفقدان أحباءهن لكن هذا بأكمله لم يكن يطفئ نار قلوبهن، وبقين عابسات عصبية حزينات، وقلبن حياة عائلاتهن إلى واقع تعيس وقاسي لعدم تقبلهن للفقدان، فظاهريا هن تقبلن ذلك، إلا انهن بعد أيام العزاء بتن وحيدات، وإن كن بين أفراد عائلاتهن فهن ورغم وجود الجميع شعرن بوحدة قاتلة « لم اشعر بأني أغرق بالحزن كنت أغلق الباب في النهار على نفسي لعدة ساعات وانخرط في بكاء مرير ولم يجرؤ أحد من أفراد عائلتي على معرفة ما يمكن عمله لأنني كنت ارفض أي تدخل من أحد» وتقول أخرى « حرمت أبنائي مني وأصبحت عصبية ولا أتحمّل أي شيء ولو كان صراخ صغير وتغيرت طباعي للأسوأ وكنت في حالة مريعة» وعبرت الكثير من النساء عن حالتهم بعد تلقي الدعم

المتواصل « هذا التدخل قلب حياتي رأساً على عقب فمن قمة الحزن والاكتئاب والإحباط إلى جنة التفاؤل والرضا والشعور بالحياة» وتقول أخرى « شعرت حين وجدت كل النساء حولي فاقدات أني لست وحيدة وهناك من فقدت كل عائلتها هذا أشعرنى أن الحمد لله واجب وجعلني أهتم بالأحياء من أبنائي» وتضيف أخرى « حياتي عادت لي كنت ميتة بعد فقدان ابني وبيتي، ولكني الآن أتذكر كل مواقفكم الجميلة معي»

كل ما تم من جلسات للدعم النفسي والاجتماعي كان تمهيدا لمساندة النساء والاحساس بهن وبتجربتهن الخاصة كل على حدى لأن التدخل لكل امرأة يختلف بشكل مهني وفقا لوضعها والفروق الفردية وعناصر الدعم من حولها من عائلة ومجتمع محلي، ومن ثم تلقيهن تدريبا مهنيا متخصصا يلائم ثقافتهن وبيئتهن ويتوافق مع البيئة المحلية هو أمر مهم جدا، لأنه سيكون مفيدا في قدرة هؤلاء النساء للوصول إلى نساء فاقدات جدد في المحيط المجتمعي، ويسهل الوصول إلى اقناع العائلات التي قد تكون معيقا للوصول للنساء لتلقي دعما نفسيا مستمرا ولمدة طويلة، إن انتقال النساء من مفهوم الضحية الذي يكرسه المجتمع ثقافيا واجتماعيا واعلاميا هو مهمة شاقة وليست هينة لكنها ليست مستحيلة ويبدأ التغيير من إيمان النساء أنفسهن بجدوى وأهمية التغيير لأنهن الآن بتن نساءً داعمات ويرفضن دور الضحية أن يتلبسهن بقية أعمارهن، ومن ثم علينا جميعا مساندة هؤلاء النساء ليصبحن داعمات قويات ريادةيات قادرات على تبادل الخبرات وكل ما تعلمنه في تجربة الدعم النفسي والاجتماعي لنساء أخريات يعانين نفس الوجع، فمن المهم أن ترافق الداعمات الأخصائيات الاجتماعيات لمساندة مجموعات أخرى، وهذا هو التفسير الدقيق لنهج المشروع « نهج من امرأة إلى امرأة»

هذه التجربة النسوية الفريدة هي جزء من النضال الإنساني النسوي الذي نخوضه للتركيز على إعادة ترميم النفس البشرية والمرأة بالمقام الأول لأنه ستكون أساسا لإعادة ترميم وإعمار الانسان الطفل في بيتها والانسان الرجل والأبناء والبنات، وهو الامر الذي لا يقل أهمية عن الدعم الاقتصادي أو الدعم الاجتماعي.

لقد كانت تجربة هذا المشروع بالشراكة بين مركز شؤون المرأة في غزة ومركز الدراسات النسوية في القدس وتستمر لمدة ثلاث سنوات متكاملة سيتم استكمالها بالدعم الجماهيري وهو الدعم الذي سيهتم بالمساهمة بتغيير النظرة المجتمعية لتجربة فقدان وضرورة التركيز على تعزيز الممارسات الإيجابية في التعامل مع يعانين من فقدان وما يتوجب أن يتم مراعاته في مرحلة الصدمة وما بعد الصدمة، والتخلص من نمطية الاعلام في استنزاف النساء بكونهن ضحايا وفاقدات دون أن يكون له دور في دعمهن مهن ريادةيات وداعمات.

ثقافة

أدب الأطفال بين العرب وإسرائيل ” المفاهيم والتصورات ”

د/ محمد محمود العطار *

مقدمة:

تعجز الحروف عن أن تعبر عن بطولات انتفاضة القدس التي يخوضها فتیان وفتيات القدس خاصة، وفلسطين عامة، ومهما نقلت الصور من بطولات هؤلاء الصغار في أجسامهم، الكبار في أفعالهم، فهي تنقل شيئاً وتترك أشياء، أطفال يحملون الحجارة ويسرون أمام حشود من جنود العدو المدججين بالسلاح، لكن قلوبهم في هلع من فدائية هؤلاء الأطفال، ومن يسرون من الصهاينة في الشارع تكاد قلوبهم أن تخرج من صدورهم من الخوف. الأدب هو وعاء الحضارة، فهو الإمتاع العقلي والوجداني لإبداع العلم والمعرفة والفن، ولا شك أن أدب الأطفال هو أهم الآداب جميعاً باعتباره الوجه للجيل الصاعد وغارس العادات ومقوم التربية والأخلاق، وموضع أمل الآباء والمجتمع (جيرة: ٤١٤هـ، ص ١١٠).

وعنايتنا بأدب الأطفال جزء من العناية الشاملة بالطفل. وليس أدب الأطفال عندنا أدباً طارئاً، بل هو لون أدبي لم يفتر أبداً، في وقت فترت فيه ألوان أدبية أخرى، وإن كان هذا الأدب ليس منظماً كله ولا مدوناً كله. وقد كان للأدب الشعبي نصيب وافر منه (الأمراني: ٤١٤هـ، ص ٣١).

إن الأناشيد والهدهدات والخرافات والأحاجي والألغاز وحكايات البطولة، كل أولئك كان له حضور قوى في حياتنا اليومية، قبل أن تنتشر وسائل الإعلام الحديثة وتغزو البيوت، وتحمل معها من الأساليب ما يهدم تلك الأنماط الفنية من أدب الأطفال.

ولا يزال يجري على الألسنة في بعض المناطق بالمغرب العربي الأناشيد المهددة، وحين كان الطفل يختم بعضاً من القرآن الكريم (جزءاً معلوماً) يقوم بتزيق اللوح، بالإضافة إلى الحكايات الشعبية التي كانت تقدم للأطفال عند السهر، وكانت تلك الحكايات تمتاز بالإثارة والتشويق، كما أنها لم تكن تخلو من التوجيه التربوي، والهدف النبيل، كزرع قيم البطولة

والإيثار وحب الخير والدفاع عن المستضعفين.

إن تلك الأنماط الشعبية من أدب الأطفال أخذت في الانحسار، منذ غزت وسائل الإعلام الناس في عقر دراهم (الأمراني: ١٤١٤ هـ، ص ٣٢).

يعيش العالم العربي اليوم صراعاً حضارياً حاداً وقوياً تختلف طبيعته وأساليبه ومظاهره عن صراعات الأُمس.. فقد تحول الصراع من الميدان العسكري إلى الميدان الثقافي والفكري. وهذا الصراع الثقافي الذي تخوض غماره الأمة العربية اليوم مع القوى الصهيونية، هو معركة بسلاح فتاك خفي، يهدف العدو الصهيوني من ورائها إلى نسف الذاتية العربية بتعريتها من كل مقوماتها عن طريق سلخها ثقافياً والزج بها في متاهات التقليد والتبعية.

أن المعركة والصراع في نظر المخطط الصهيوني هما معركة المستقبل، والصراع على المستقبل، ولذا جاءت تهيئة الأجيال التي يُراد لها تصديق النبوءات والتفاسير التلمودية، وتنفيذ المخططات عن قناعة وثقة كاملتين من خلال مناهج تربوية تتولى تخريج الناشئة التي تقوم بهذه المهمة، ويأتي أدب الأطفال-على اعتباره وسيلة من وسائل التربية-ضمن حيز لا يُستهان به في مناهجها ووسائلها.

أطفال اليهود في فلسطين يخضعون ، منذ صغرهم ، لعمليات كبيرة من الأساتذة والأدباء الذين يكتبون لهم لإفهامهم أن هذه الأرض هي لهم منذ أقدم العصور، وأنهم يجب أن يدافعوا عنها، وأن على كل اليهود في العالم أن يهاجروا إلى هذه الأرض المقدسة، وأن هذه الهجرة جزء من الدين الذي يؤمنون به، فالأدب الموجه للأطفال- كما يقول «مناحيم ريجيت»- موجه لخدمة أهداف الإيديولوجية الصهيونية ومبادئها، وإن هذا الأدب يؤكد على أهمية أرض فلسطين لليهود، كما أنه في الوقت نفسه يعمل على تنمية روح الولاء لإسرائيل، وكذا حب الدفاع عنها، والتعاون مع الآخرين للدفاع عنها.. وعندما يتحدث هذا الأدب عن العرب يصفهم بالجهل بكل أساليب القتال، وهذه الصفات تغرس في أطفال اليهود أنهم أقوى من أعدائهم وأقدر على الانتصار عليهم وأنهم أعرف بأصول القتال، وهذا النوع من الأدب يجعلهم يثقون بقدراتهم القتالية عندما يكبرون باعتبار أن أعداءهم العرب أضعف منهم بكثير.

وهناك قصص كثيرة ألفت للأطفال اليهود، وكلها تحاول غرس هذه القيم في نفوسهم من منطلقات دينية بحتة، فمثلاً قصة «التائهون في الصحراء» للكاتبة «رانا هبون» تحاول التأكيد على حق اليهود المطلق في فلسطين ، لأنهم كانوا موجودين فيها منذ إسحاق وإبراهيم-

عليهما السلام- ومثلها قصة «سكران في صحة الجميع» للكاتب «يفرح حبيب» وهذه القصة تحاول ربط الأطفال برموزهم التاريخية القديمة الذين كانوا موجودين في فلسطين ، ليؤكدوا للأطفال أن أجدادهم كانوا يعيشون في هذه الأرض منذ القدم ، وأن عليهم بالتالي ألا يفرطوا فيها (الهرفي : ١٤٢٦ هـ، ص ١٣٠).

إن أدب الأطفال يدخل ضمن الحرب النفسية التي يقوم بها الصهاينة لتقوية نفوس أطفالها، وتعزيز موقفها وغرس روح العداوة والاستعلاء في نفوس الأطفال (القطار : ٢٠٠٥ هـ، ص ٧٣).

وتبين الإحصاءات الجارية وضعية مخجلة تتعلق بنصيب الطفل العربي من الكتب المخصصة له مقارنة بالأطفال في بعض دول العالم. ففي عام ١٩٧٩م، بلغ نصيب الطفل في الاتحاد السوفيتي (٤٠٧) كتاب، وفي الولايات المتحدة الأمريكية (٣٠٩) كتاب، وفي إنجلترا (٢٠٦) كتاب، وبالمقارنة فإن نصيب الطفل العربي قد وصل إلى «نصف كلمة» (وظفة: ٢٠٠٦م، ص ١٩٦).

والكيان الصهيوني الذي لا يتجاوز عدد سكانه أربعة ملايين، يترجم إلى العبرية كل عام ما لا يقل عن (٥٠٠) عنوان من الكتب والمراجع العلمية والثقافية العالمية، بينما لا تبلغ هذه النسبة أكثر من (٤٠٠) عنوان مترجم إلى اللغة العربية التي ترمز إلى أمة يبلغ عدد سكانها (٣٠٠) مليون تقريباً، وهذا دون أن نأخذ في الحسبان عشرات الملايين من المسلمين الذين يتكلمون العربية، ويستفيدون من عطاءاتها. لقد قامت إسرائيل على سبيل المثال بترجمة العهد القديم إلى (١١٣٠) لغة، ووصل عدد النسخ إلى مليار نسخة في الوقت الذي ترجم فيه القرآن الكريم إلى (٤٠) لغة فقط، وبنسب مخجلة بالقياس إلى العهد القديم. وفي هذا الأمر مؤثر كبير على مدى التخلف الثقافي في البلدان العربية مجتمعة، وذلك قياساً بالكيان الصهيوني (وظفة: ٢٠٠٦م، ص ١٩٦).

مفهوم أدب الأطفال:

يشير مصطلح أدب الأطفال إلى ذلك النوع الأدبي المتجدد الذي نشأ ليخاطب عقلية الصغار، ولإدراك شريحة عمرية لها حجمها العددي الهائل في صفوف أي مجتمع، فهو أدب مرحلة متدرجة من حياة الكائن البشري لها خصوصيتها وعقليتها وإدراكها وأساليب تثقيفها في ضوء مفهوم التربية المتكاملة التي تستعين بمجالى الشعر والنثر، بما يحقق المتعة والفائدة لهذا اللون الأدبي الموجه للأطفال. ولذلك فمصطلح أدب الأطفال يشير إلى ذلك الأدب الموروث

وأدب الحاضر وأدب المستقبل؛ لأنه أدب موجه إلى مرحلة عمرية طويلة من عمر الإنسان (عبد الكافي: ٢٠٠٢م، ص ٥١).

أن أدب الطفل جديد وفي الوقت نفسه قديم ، هو جديد كمصطلح حيث انتقل إلينا من الغرب عن طريق جهود الشاعر أحمد شوقي عندما تأثر بالشاعر الفرنسي «لافونتين» حيث نظم وهو في فرنسا ثلاثاً وخمسين حكاية على لسان الحيوان متنوعة المغزى والاتجاه ، مختلفة الإطار، ولكنها متفقة في اللغة والهدف الوطني والتهذيب، وكان كلما يكتب نهاية لحكاياته يجمع الأطفال المصريين ويحكى لهم الحكاية التي نظمها ويشاهد انطباعاتهم ويدونها، ليستفيد بها في صياغة ما سوف يكتبها من حكايات (سلامة: ٢٠٠٢م، ص ٩٠) ، ويعد أحمد شوقي أول من قدم إنتاجاً شعرياً للطفل وذلك في عام ١٨٩٨م ، أما أول من قدم إنتاجاً نثرياً للأطفال فهو كامل الكيلاني عام ١٩٢٧م ، وهو قديم لأن تراثنا القصصي العربي (كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة وغيرهما) والذي كتب للكبار يمكن أن يكون قد قدم للصغار، وكذا الأشعار والأغاني التي تتغنى بها الأمهات لأطفالهن أو ما يسمى بأغاني هدهدة الأطفال ، ولكن تظل مثل القصص ذات ألفاظ ومعاني فوق مستوى الأطفال (مجلة الأسرة: ١٤٢٥هـ ، ص ٥١).

يشمل أدب الأطفال كل ما يقدم للأطفال من مواد تظهر فيها المعاني والأفكار والمشاعر، وتتخذ شكل القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة أو الأغنية، وتنقل للطفل عبر وسائط مختلفة مثل الكتاب والشريط والصحيفة أو المجلة أو المسرح.. الخ ، ويعرفه الباحثون بأنه : كل محتوى لغوي يتوفر فيه عنصر الأدب وهما : جمال اللفظ وسمو المعنى إلى جانب عنصر ثالث وهو التناسبية ، ونقصد بالتناسبية : مناسبة المحتوى من حيث الشكل والمضمون لقدرات الأطفال وميولهم ومستويات نموهم ولبيئاتهم التي يعيشون فيها ، وهناك تعريف جامع لأدب الأطفال هو : الكلام الجيد الذي يحدث في نفوس الأطفال متعة فنية سواء أكان شعراً أو نثراً وسواء أكان شفوياً بالكلام أو تحريرياً بالكتابة ، فهو لم يحدث في نفوس هؤلاء الأطفال المتعة الفنية إلا لأنه مناسب في شكله ومضمونه للمرحلة العمرية التي يعيشها الأطفال (مجلة الأسرة : ١٤٢٥هـ ، ص ٥١).

أن الأدب هو وقع الوجود على الوجدان، معبراً عنها بكلمات تصاغ في قالب قصيدة أو قصة، رواية أو مسرحية، تمثيلية تلفزيونية أو برنامج إذاعي.. (يوسف : ١٩٩١م ، ص ٧٦).

بدايات أدب الأطفال:

أن المتتبع لأدب الأطفال يصل إلى حقيقة تقول: إن الحضارة الإنسانية قد سجلت للمصريين القدماء أنهم أول شعوب العالم القديم تناولوا لأدب الأطفال، حيث حفظوه على ورق البردي ومرسوماً على المعابد والقصور والمقابر. كذلك سجل التاريخ الإنساني أن الشعوب المجاورة للمصريين خصوصاً سكان وادي الرافدين. قد أخذت عنهم وتعلمت منهم، ومنها القدماء الذين خلفوا تراثاً أدبياً رائعاً يميز بصدق العاطفة وحسن الأداء وجمال الصورة.

إن من يدقق في حقائق الواقع الأدبية المسجلة، يجد أن العرب في تاريخهم القديم لم يقلوا إعطاء عن بقية الشعوب الأخرى في العالم المتحضر، بل نجدهم قد قدموا لأطفالهم من الأدب ما يفاخر به ويعتز، حيث الموروث الجم من الشعر الجميل الخفيف الذي يناسب أذواق الصغار، وينسجم مع عقولهم ومداركهم ويفرحهم ويدخل السعادة والبهجة إلى نفوسهم الغضة.

لقد أدرك العرب القدماء بفطرتهم النقية الأصول التربوية التي تدخل الفرحة على قلوب أطفالهم وذلك عندما قدموا لهم من أدب يوفر لهم صفاء النفس، وهدوء الخاطر وراحة الجسم، فأكثروا من الشعر، وأقلوا من النثر، لما فيه من عناء الحفظ وصعوبة التسجيل، عندما كانت الكتابة مقصورة على فئة من الناس إلى حد الندرة، ومن هنا كان الإقبال على الشعر لسهولة حفظه، خصوصاً وأن الشعر بضاعة العرب الرائجة في أسواقهم الأدبية (سلامة: ٢٠٠٢م، ص ٥٠، ٥١). وإذا أردنا البحث عن بدايات أدب الأطفال العربي، فلا بد لنا من العودة إلى أسباب نشوء وازدهار أدب الأطفال العربي. وبعيداً عن حصر هذه الأسباب في عامل واحد، فإن الأسباب الواقعية أبعد من ذلك، أهمها:

أ. بروز الطفل في الساحة الثقافية العالمية ومن ضمنها العربية.

ب. انتشار التعليم.

ج. الترجمة والاقتباس.

فإذا ما بدأنا بالعامل الأول، وجدنا أن الطفل العربي برز في الساحة الثقافية مطالباً بزيادة ثقافي خاص قد يكون عامل الثقافة Enculturation—أي حيازة الثقافة الخاصة—قد لعب دوره في الحث على خلق أدب يشبه ما يقدم للطفل الغربي. تماماً كما حصل وقت ترجمت القصص الفرنسية الأولى إلى الإنجليزية فشجعت الأدباء الإنجليز على الكتابة (بقاعي: ٢٠٠٥م، ص ٨٤).

وكان انتشار التعليم، من أبرز العوامل في نشوء أدب الأطفال في التراث العربي الحديث. وقد ورد في تقرير التنمية البشرية الصادر عام ١٩٩٦م عن هيئة الأمم المتحدة لبرنامج التنمية. «أن معدلات الالتحاق بالتعليم الابتدائي (في البلدان العربية) تضاعفت أكثر من مرتين خلال الفترة ١٩٦٠-١٩٩٠م من ٣٨٪ إلى ٧٧٪. كما أن معدلات الأمية بين الكبار انخفضت من حوالي ٧٠٪ عام ١٩٦٧ إلى حوالي ٤٦٪ عام ١٩٩٢م». وبدل التقرير على مدى انتشار التعليم الذي يعنى حاجة الأطفال إلى أدب خارج إطار المدرسة كما هم بحاجة إلى الكتب المدرسية التي ساهم الأدباء والشعراء العرب في تقديمها لهم مطبوعة بالطابع الوطني التربوي الموجه في خطوة منفصلة عن الأدب المترجم، وسائرة نحو إيجاد أدب أصيل (بقاعي: ٢٠٠٥، ص ٨٥).

أما العامل الثالث، فهو عامل الترجمة، أو عامل النقل translation الذي ساهم ويساهم في نقل ثقافات الأمم بعضها إلى بعض في إطار التعاون والتكامل الإنساني المؤثر بالآخرين والمتأثر بهم. فقد كانت الترجمة، وما زالت، "حاجة حضارية ملحة تكتسب أهميتها من قوة تأثيرها في عملية التقارب والتفاهم بين الناس في مجتمعاتهم المتباعدة جغرافياً والمختلفة ثقافياً"، مما يعنى أن أهميتها تنطلق من جانبين اثنين: "جانب إنساني يتعلق بالتواصل الحاصل من خلال انتشار الأثر المكتوب وتخطيه حدود البيئة التي أنتج فيها ليصل إلى مجتمعات أخرى حيث يلتقي قراء البلاد المختلفة على كثير من الأفكار والقيم والعلوم الإنسانية التي تقرب فيما بينهم. وجانب اجتماعي يتعلق بالمجتمع المستقبل لهذا الأثر. ومدى تفاعله مع مستوى تطوره الثقافي. الاجتماعي، وحاجته لرفع هذا المستوى وتطويره من خلال استيعاب هذه الثقافة الوافدة وتمثلها في إطار ثقافته المحلية بما يعزز مكانتها ويحافظ على أصالتها وهويتها". وبصورة أكثر دقة، فإن أي عمل أدبي يترجم من لغته الأصلية التي يطلق عليها علماء الترجمة تسمية (لغة المصدر) إلى لغة جديدة تسمى (لغة الهدف)، فإنه يغادر أدبه القومي، أي أدب لغة المصدر. ليستقر في أدب قومي جديد، هو أدب لغة الهدف. لذا. توصف الترجمة بأنها "هجرة النص".

وليست هجرة النص عملية سهلة. بل معقدة ومتعددة الأبعاد، تطرأ خلالها على النص تغيرات أسلوبية جمالية، ودلالية. ونصية، تقل أو تكثر، وذلك لأن الترجمة الأدبية ليست عملية نقل ميكانيكي لنص من لغة إلى لغة أخرى. بل هي عملية إبداعية، يعاد خلالها خلق النص الأدبي في لغة جديدة، وفقاً لمستند مكتوب باللغة الأصلية لذلك النص (بقاعي: ٢٠٠٥، ص ٨٥).

أهمية أدب الأطفال:

تتضح أهمية أدب الأطفال في كونه أدب مرحلة متدرجة من حياة الكائن البشري لها خصوصيتها وعقليتها وإدراكها وأساليب تثقيفها في ضوء مفهوم التربية المتكاملة التي تستعين بمجالي الشعر والنثر. مما يحقق المتعة والفائدة لهذا اللون الأدبي الموجه إلى الأطفال.

ويعتبر أدب الأطفال وسيطاً تربوياً يتيح الفرصة للأطفال لمعرفة الإجابات عن أسئلتهم واستفساراتهم ومحاولات الاستكشاف واستخدام الخيال وتقبل الخبرات الجديدة التي يرفضها أدب الأطفال. إنه يتيح الفرصة أمام الأطفال لتحقيق التنمية المتكاملة لشخصية الأطفال وعقلهم وتفكيرهم، وهكذا، فإن أدب الأطفال يعتبر جنساً أدبياً وثقافياً مربكاً حيث يقصد به الأعمال الفنية التي تنتقل إلى الأطفال عن طريق وسائل الاتصال المختلفة التي تشمل على أفكار وأخيلة وتعبّر عن أحاسيس ومشاعر تتفق مع مستويات نموهم المختلفة.

ويؤثر أدب الأطفال على الحضارة العالمية المعاصرة ويتأثر بها، على عكس التصورات السائدة بين بعض كتاب الطفل من تغييبهم للكتابة المعرفية والثقافية والتاريخية على الجوانب الإبداعية. فالأطفال بحاجة إلى الأدب الموجه لهم، كالعالم تماماً، سواء أكان في مناهجهم الدراسية أم في حياتهم، لكي يرقى بوجدانهم، ويتمكن من إشباع حاجاتهم المتعددة والمتكاملة (عبدالكافي : ١٤٢٥هـ، ص ١٨٧).

ولأدب الأطفال أهمية كبيرة إذ لا يقتصر دوره على المتعة والتسلية، لكنه إلى جانب ذلك يثير فكر الطفل ويجعله أكثر تفهماً للحياة، إن أدب الأطفال يلعب دوراً كبيراً في بناء شخصية الطفل وتلبية حاجاته المختلفة، وتهتم كثير من الدول والمجتمعات منذ زمن بعيد بأدب الأطفال، وزاد الاهتمام في عصرنا الحاضر حتى أصبحت هناك مؤسسات ومنظمات عالمية للعناية بأدب الأطفال كالمجلس العالمي لكتب الأطفال، كما أن كثيراً من جامعات العالم تضم أقساماً تعنى بالبحوث والدراسات المتخصصة في أدب الأطفال، وهناك جوائز عالمية مخصصة لما يقدم للطفل من أدب وفنون (الأسرة : ١٤٢٥هـ، ص ٥١).

أن أدب الطفل وسيلة للنهوض بالأمة والمجتمعات، ويمكن أن أوجز أهمية أدب الأطفال بما يلي (الأسرة: ١٤٢٥هـ، ص ٥١).

« يساعد الطفل على فهم نفسه والبيئة المحيطة به، فيسهل عليه مواجهة التغيير الذي يمر به بطريقة إيجابية.

« يحقق للطفل الشعور بالانتماء (الذي يبدأ بالأسرة ثم المدرسة ثم المجتمع فالوطن).
« يعلم الطفل المهارات الاجتماعية من خلال ما يقدمه الأدب من نماذج للتفاعل الاجتماعي.
« اكتساب القيم الصالحة للطفل والتي تساعد على التمييز بين الخير والشر.
« يلبي حاجات الطفل العاطفية كالشعور بالأمان والإنجاز.
« يعالج المشاعر السلبية كالحقد والكراهية والغيرة عن طريقين: التنفيس عنها عندما يراها واقعا في قصة، وبعث الارتياح في نفس الطفل حين يلتقي بشخصيات تشاطره شعوره من خوف أو غيرة فلا يشعر بالذنب تجاه هذه المشاعر السلبية.
« يلبي حاجة الطفل للمعرفة بما يقدمه من معلومات وتنمية المهارة اللغوية.
« تذوق الجمال في النصوص والرسوم وتهذيب ذوق الطفل.
« فهم مشاعر الآخرين وتنمية الخيال.
« تعلم النظام والانضباط.

معايير أدب الأطفال:

هناك مجموعة من المعايير التي ينبغي أن تتوفر في أدب الأطفال وفي النصوص التي نختارها لأطفالنا وهي (مذكور: ١٩٩٣م، ص ص ٥٦-٥٨):
« أن يعرض أدب الأطفال العقيدة الإسلامية بطريقة فنية تحبب الأطفال فيها، وتقربهم منها.
« أن ينمى لديهم حب التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة.
« أن ينمى فيهم قيم احترام الآخرين، وحسن الظن بهم، وحفظ غيبتهم، والعمل على إسعادهم.
« أن يربى في الأطفال القدرة على تبنى المبدأ السليم، والجهد في سبيل ترسيخه.
« أن ينمى فيهم قيم الإخلاص في القول والعمل، والصراحة في الرأي، والشجاعة في الدفاع عن الحقيقة.
« أن يعين الأطفال على الصدق والاستقامة، وعلى أداء الأمانة وحفظ الكرامة.
« أن يسهم في إدراك الطفل لمجتمعه الإسلامي، ويقوى فيه روح التضامن والتعاون والإيجابية في عمارته وترقيته.
« أن يعين الأطفال على مواجهة المشكلات بالأسلوب العلمي وحلها عن طريق التفكير والتخطيط والعمل الجاد.
« أن يحبب الأطفال في القراءة ويعودهم ارتياد المكتبات وألفة الكتاب وصحبة المجلة والصحيفة.
« أن يُعرض أدب الأطفال في قالب فني موحٍ، مناسب لقدرات الأطفال العقلية، وفي إطار قاموسهم اللغوي.

« أن تتناغم فيه المباني والمعاني الأدبية عن طريق استخدام الألفاظ والتعابير الجميلة الموحية بالمعاني والأهداف.

« أن يتصف أسلوب الأدب بالوضوح وبساطة اللغة وألفة الألفاظ والتراكيب.

« أن يستخدم الأسلوب المعتمد على الحركة والتجسيم والتمثيل والمحادثة والحوار أكثر من الأسلوب الوصفي.

« أن يتوافر فيه عنصر الإثارة والتشويق، والجدة والطرافة والخيال والحركة.

« أن تتسم الجمل فيه بالقصر والسهولة في أداء المعنى وتصويره بطريقة فنية موحية.

« أن تكون الفقرات متكاملة في أداء المعاني الكلية والجزئية.

مجلات الأطفال في بلاد الشام :

تشير الإحصاءات إلى أن هناك سبع دول عربية لا توجد فيها أي مجلات أسبوعية ، وهناك خمس دول أخرى تقدم مجلة أسبوعية واحدة للطفل ، وهناك أربع دول تقدم مجلتين أسبوعيتين، بينما تقدم قطر (٤) مجلات والسودان (٦) مجلات ، ويصل هذا إلى أقصاه في لبنان حيث توجد (١٠) مجلات أسبوعية موجهة للطفل ، وليست هذه الصورة أفضل من صورة المجلات الشهرية حيث نجد أربع دول لا تقدم أي مجلات شهرية ، وخمس دول تصدر مجلة واحدة ، أما بقية الدول العربية فتصدر ما يتراوح بين مجلتين وخمس مجلات شهرية (وظفة : ٢٠٠٦م ، ص ١٩٧).

وتعد ظاهرة موت مجلات الأطفال، وهي في أوج طفولتها أو شبابها في بعض أقطار بلاد الشام ظاهرة مألوفة، مثل «أروى» و«لونا» و«الكرتون العربي» في الأردن، كما أن معظم المجلات اللبنانية لاقت المصير نفسه مثل «سامر» و«هزار» و«سوا» و«تاريخنا». أما مجلتنا «أسامه» و«الطليعي» السوريتان فهما مدينتان باستمرارهما إلى الدعم الرسمي وإلى حالة التقشف التي تعيشها الأولى منذ صدورهما.

وتبت مجلة الطفل العربي عادة قرب نبع تمويل كبير أو صغير، ثم تنمو مستمدة طاقتها وعوامل استمرارها، ما يمددها به هذا النبع، فإذا شح النبع تبدأ أوراق المجلة بالاصفرار والذبول، ثم لا تلبث أن تموت وتندثر، ولم تنجح مجلة عربية للطفل في أن تقوم بذاتها وبجمهورها، كيف يحدث هذا في عالم يضم أكثر من ستين مليون طفل وفتى يتكلمون لغة واحدة، ويجمعهم تراث ثقافي واحد (عبد الله: ٢٠٠٢م، ص ص ١٠٧، ١٠٦).

وإذا كانت هناك بعض المجلات التي ما تزال تقاوم الفناء مثل مجلة «أحمد» في بيروت،

و«صادق» في لبنان، و«وسام» في الأردن، و«لونا والفتيان» في عمان، و«أسامه» في سوريا، إلا أنه لا توجد خصوصية قطرية لدى هذه المجلة أو تلك في لبنان وسوريا والأردن، فنادرًا ما نعر في هذه المجالات على مادة مستوحاة من الفلكلور المحلي أو المرويات الشعبية، ولا نجد اختلافات فنية كبيرة بينها، ولا خصوصية في التوجه الثقافي، فجميعها تخاطب قارئاً واحداً في الغالب.

وإذا كانت المادة الوضعية فيها تتفاوت من حيث الجودة والرداءة، لكن الغالب عليها هو التوجه التربوي المباشر على حساب العناصر الفنية، فالهاجس المدرسي هو الذي يسكن ذهن الكاتب، ولا نجد اهتماماً بالعناصر الفنية المعروفة للقصة، بل ينصب الاهتمام على التوجيه والإرشاد.

وفي بعض هذه المجالات لا نجد أفكاراً فذة، ولا نجد حبكة مشوقة، ولا يوجد ما يسلي ويمتع ويدهش، ولا توجد لغة فنية، كما أنها لا تعتمد على مواهب حقيقية في التأليف والتحرير، ولا تتشدد في فحصها وتقييمها لما يتدفق عليها من مواد، كما تفتقد بشكل خاص إلى الرهافة وروح المرح والجرأة والشجاعة في البحث عن المدهش والجميل الذي يتعارض أحياناً مع الأنظمة الصارمة للبيت والمدرسة (مراد : ٢٠٠٥ م، ص ١٢٤).

وتعد صحافة الأطفال فناً أدبياً ناشئاً في معظم دول العالم، فصحافة الطفل لها دور تربوي كبير فهي تساعد الطفل على تكوين الميول والاتجاهات وتنمية المواهب. وصحافة الطفل عندنا لا تقوم على أسس فنية مدروسة يمكن أن تضمن البقاء وأن هذه الصحافة لا تزال بمعظمها تجريبية وإن تجاربنا التي تتراكم في هذا المجال تذهب سدى، إذ لا نكلف أنفسنا عناء فحص هذه التجارب والإفادة منها من أجل تلمس الطريق نحو مجلة للطفل صحيحة وسليمة تلي احتياجاتنا الفنية والثقافية (مراد : ٢٠٠٥ م، ص ١٢٤).

وعن صحافة الطفل الإسرائيلي، نجد أن اليهود يخصصون عدداً من الصحف ذات الاتجاه الديني لأطفالهم، مثل صحيفة «هنتستيم» التي احتوت قصصاً من التوراة، وكذا بعض القصص الأدبية الأخرى، وكذلك صحيفة «هتسوفيه ليلاديم» وفيها مجموعة أبواب مرتبطة بالدين اليهودي (الهرفي : ١٤٢٦ هـ، ص ١٣٠).

وفي نفس الوقت نجد أن الأسواق العربية تعج بعشرات المجالات المترجمة والمصورة والتي لا يعينها أن تحقق هدفاً تربوياً بقدر ما يعينها الربح التجاري والتوزيع الواسع لمطبوعاتها، وهذه المجالات تجتذب أطفالنا لما تتميز به من كثرة المسلسلات المصورة المحببة للأطفال وكذلك

تقديمها صوراً من البطولات الزائفة. وإذا بحثنا في مضمون هذه المجالات نجدها تمتلئ بقصص بوليسية تشجع الجريمة وتعلم الطفل كيف يتهرب من القانون ويتمرد على المجتمع. وتجعل من المجرم بطلاً، ومن الفأر أسداً، ومن الجبان فارساً، فتقلب الحقائق رأساً على عقب.. هذا إلى جانب أنها تعلم أطفالنا كثيراً من العادات السيئة الخبيثة مثل الهروب من المدرسة، التدخين التقليد الأعمى. (خلاوي : ١٤١ هـ، ص ٩٧).

صعوبات أدب الأطفال:

- لا شك أن هناك مجموعة من الأسباب والخلفيات التي تكمن خلف فتور الاهتمام بأدب الطفل العربي، وعدم تبوئه حتى الآن، ما هو أهل له من رعاية وعناية، نذكر منها:
١. الوضع الثقافي العربي العام: حيث مازالت الثقافة تأتي في ذيل اهتمامات برامج بعض الأنظمة العربية وسياستها. وما يزيد من معاناة أدب الطفل ويجعل تهميشه مضاعفاً، هو كونه نشاطاً ثقافياً ثانوياً، وعلى هامش النشاط الثقافي الموجه للكبار. وإن كانت هذه الصورة السلبية قد بدأت تخف حدتها في السنوات الأخيرة التي شهدت ما يشبه ثورة ثقافية تقودها مجموعة من الدول العربية كالمملكة العربية السعودية والكويت والإمارات.
 ٢. الأمية الأبجدية والثقافية التي مازالت سائدة بنسبة كبيرة في المجتمع العربي، وهو الأمر الذي يترتب عنه تعطيل دور طرف أساسي، من الأطراف التي من شأنها تأسيس أدب الطفل وتشجيعه، ألا وهو الأسرة فالطفل، في مثل هذا الوضع الثقافي والاجتماعي، لا يستأنس الكتاب والمجلة، في مراحل عمره الأولى، ولا تحظى القراءة بأي حضور ضمن النشاط اليومي لأسرته (باكور : ١٤٢٦ هـ، ص ٨٢).
 ٣. نظرة الانتقاص التي لا يزال الكثير من الناس ينظرون بها إلى كاتب الأطفال، إذا يعتبرونه مجرد «حكاء حواديت» كما يصرح بذلك أحد الرواد المهتمين بأدب الطفل العربي وهو الأديب الناقد المصري عبد التواب يوسف: «إن كاتب الأطفال مكاتته متدنية في كل العالم، ولا سيما في الدول النامية. وينظرون إليه على أنه حكاء حواديت للأطفال» أو هو «كاتب من الدرجة الثانية» على حد تعبير القاص والروائي المصري محمد المنسي فنديل الذي يقول: «المؤلم أنني لا أستطيع أن أتفرغ لهذا العالم (عالم الكتابة للأطفال)، لأننا لا نعترف به ولأن البعض يعتبر الكتابة للأطفال كتابة درجة ثانية. ومهما أصدرت كتباً لهم لن يلتفت إليك أحد. فمن الذي يعرف أن لي ١٢ كتاباً؟». لقد تكرست في تصور مجتمعاتنا تلك النظرة التي تعودت على اعتبار كل ما هو مرتبط بالطفولة تافهاً، غير جدي وقليل الأهمية. فما بالنابما هو مرتبط بالكتابة الإبداعية والقراءة التي مازال الكثيرون يعتبرونها نوعاً من الترف والتسلية وترجيح الوقت في ما لا نفع فيه (باكور : ١٤٢٦ هـ، ص ٨٣).

٤. صعوبة الكتابة في هذا المضمار: فأدب الطفل تتداخل فيه جوانب معرفية وثقافية متعددة، ويتطلب من الكاتب أن يكون-علاوة على موهبته الأدبية-مُلمّاً بعلوم أخرى كعلوم التربية وعلم النفس. كما أن الكتابة للطفل تمثل بالنسبة إلى الكاتب الواعي المسئول التزاماً كبيراً، فهو يضطلع بمهمة سامية نبيلة لكنها صعبة أيضاً، ويقدر ما تمثل تشريعاً بالنسبة إلى الكاتب، فهي أيضاً تكليف ومسئولية كبرى. وإلى هذه الصعوبة تشير كاتبة أطفال ممتربة في جعبتها حوالي خمسون مجموعة قصصية للأطفال، صدرت عن مختلف دور النشر العربية، هي الروائية والقاصة السورية لينا الكيلاني، إذا تقول في هذا الصدد: «الكتابة للأطفال من أصعب الأجناس الأدبية فليس من السهل على الكاتب أن يخترق عالم الطفل. والمعروف أن الكتاب الكبار سواء كانوا في العالم الغربي أم الوطن العربي، اتجه بعضهم في آخر مسيرتهم الأدبية للكتابة للأطفال». وهو ما يؤكد أيضاً الكاتب المغربي العربي بن جلون، في سياق حديثه عن الصعوبات التي تحف بكتابة القصة، إحدى أهم أركان أدب الطفل: «إن درجة الوعي في كتابة قصة الطفل محفوفة بضوابط وشرائط دقيقة. ذلك أن الطفولة مراحل غير متجانسة أو ثابتة كـ «الرجولة». فشخصية الطفل لا تكتمل وتنضج إلا بنموها وتطورها سواء أكان في مستواها اللغوي أم العقلي أم النفسي أم السلوكي أم الجمالي العام. والطفل بتركيبته الداخلية أرض بكر لا تمتلكها إلا إذا ألمنا بأبعادها ومكوناتها. إذ كيف نكتب ونحن لا ندرى شيئاً من تضاريس هذه الأرض؟ وكيف نتسلل إلى عالمه الخاص ونحن نحمل تراكمات فكرية، نفسية ولغوية أكبر من حجمه؟ (باكور : ١٤٢٦ هـ، ص ٨٣).

وتكمن مشكلة أدب الأطفال في قلة الإنتاج الأدبي الجيد للأطفال، وفي عدم الاهتمام بهذه المشكلة إلا أخيراً. وحتى عندما بدأ الاهتمام بقضية أدب الأطفال، سارع الجميع إلى الإنتاج الغربي، يترجمونه إلى العربية بما فيه من مضامين تتصادم مع البيئة العربية الإسلامية شكلاً وموضوعاً، وكثر عدد العاملين فيه من التجار عن الأدباء.

إننا بحاجة إلى منهج إسلامي لأدب الأطفال واليافعين والشباب، وإن ترك هذا الميدان للأدب المترجم يعنى صياغة وجدان أبنائنا وأذواقهم وميولهم صياغة غربية وبعيدة عن وجدان الأمة وعقيدتها وأخلاقها، وهذا بدوره يعنى قابليتهم للغزو الثقافي، وضياع هوية الأمة ووقوعها في أسر أعدائها (مذكور : ١٩٩٣م، ص ص ٥٤، ٥٥).

إن معظم ما يُقدم للأطفال من أشكال أدبية تعوزه العاطفة الصادقة والصياغة الفنية الهادفة. لذلك فهو فقير في قدرته على تربية الإحساس بالذوق والجمال في نفوس أطفالنا ومشاعرهم.

أدب الطفل الإسرائيلي:

أن الصهيونية في الأراضي المحتلة وخارجها تعمل من خلال مرتكزات عملية مدروسة لاستغلال وتسخير كل القنوات الموصلة للفكر والأدب والثقافة والتعليم الموجه للأطفال استغلالاً وتسخيماً بشعاً بغية خدمة الصهيونية وسلطاتها وأدواتها لتنمية الوعي الصهيوني لدى الأطفال، وغرس المبادئ، وخلق الولاءات الدائمة لهذا الكيان. ويرافق ذلك زرع الحقد والغل والكراهية وغيرها من الصور البشعة، والنظرة الفوقية ضد العرب وتعميق مفاهيم القوة والعداوة، واستمرار تحقيق الانتصارات الدائمة على العرب.

وحين دعا «ناحوم جولدمان» إلى الاهتمام بالعملية النفسية والتوجه إلى الأطفال استجاب الصهاينة لهذه التوصيات إذا أن «كتب الأطفال الموجهة للأطفال اليهود مكتوبة باللغة العبرية ، وفي متناول أيدي الأطفال اليهود وتلاقى دعماً حكومياً كبيراً من قبل وزارة الثقافة والتعليم في حكومة العدو، في نشرها وتوزيعها وطباعتها ، وهي موجودة في المدارس والمكتبات العامة والخاصة ، وبأسعار في متناول يد الجميع ، وترتكز على موضوع واحد ، هو تصوير الأطفال اليهود على أنهم جبابرة عظماء لا يقهرون ، وهم يهزمون أعداءهم العرب الأغبياء بسهولة ويسر لأنهم يريدون قتل اليهود من أجل المتعة الذاتية فقط!!» (يحيى : ١٤٢٦ هـ ، ص ٤٤).

وحين تستعرض التاريخ بين العرب واليهود فإنها تصوره عداء دائماً، وأن هذا العداء الطويل لا يمكن له أن يزول، لأن اليهود لم يثاروا حتى اليوم على الرغم من مضي الأحقاب الطويلة؟! وعليه فإن في أعناق الأطفال مسئولية إكمال الثأر الناجز».

وينشأ الطفل اليهودي على هذه المعاني ليكون جندي المستقبل الذي يذبح العرب الدخلاء المتخلفين الذين يريدون إخراجه من أرض الميعاد، وفرض تخلفهم عليه! وفي كتاب «دافيد الصغير» تبدأ رواية «القصة التاريخية» للعلاقة بين اليهود وفلسطين على النحو التالي (عبدالكريم : ١٩٩٣ م ، ص ص ١٥١، ١٥٢) :

«في ذلك العام، في أورشليم (القدس)، كان دافيد الصغير صغيراً جداً، عندما هدم الرومان وأحرقوا هيكل سليمان الرائع. وبناء على أوامر الإمبراطور تيتوس، قام الرومان بالقتل والنهب. وقطع جنودهم بضربات سيوفهم القوية رؤوس الأطفال الصغار، ولم يتركوا إلا بعض الحجارة المنضدة والتي نسميها: حائط المبكى». و«بما أن دافيد الصغير يركض سريعاً، وهو كذلك يتمتع بالدهاء، فقد أفلت من الجلادين الرومان. وابتدأ اليهود الذين خرجوا أحياء بالانتشار في العالم، وهذا الهرب في كل الآفات يسمى: الدياسبورا». «ها هم اليهود

دون وطن، لكن دافيد الصغير يقول: العالم القادم في اورشليم». «وبعد الرومان جاء الغزاة البيزنطيون، ثم الفرس، ثم الصليبيون الذين هم فرنسيون وإنجليز وألمان، وقالوا بأنهم هنا لتخليص قبر المسيح. كانوا يحملون صلباناً على صدورهم وعلى سيوفهم، كانوا رهيبين، فقتلوا كثيراً من اليهود. وليبرروا عملهم احتجوا بأنهم لم يميزوا بينهم وبين العرب، ولمدة طويلة جداً كان الاحتلال التركي، وترك الباشاوات يقبلون حائط المبكى، كما بنوا سوراً جميلاً جداً حول القدس». «ومازال دافيد الصغير دون وطن لكنه يقول: العام القادم في اورشليم».

هذه فكرة عن تاريخ فلسطين، كما تقدم لليهودي الصغير، قبل البدء بكيفية تجسيد الحلم الصهيوني بالاستيطان وقيام الدولة. وفي هذه الفكرة اجتزاء لتاريخ فلسطين يتم فيه تجاهل العرب الذين امتلكوا البلاد قبل مجيء اليهودي إليها، وتبدو البلاد ملكاً لليهود، تعاقب عليها الغزاة، مع التركيز على التطلع اليهودي للعودة إليها.

وليس مثل هذا الطرح مستغرباً لأن التأليف في هذا المجال أسند إلى خبرات عسكرية و نفسية وتربوية.

ومن نماذج الأدب الإسرائيلي في مجال القصة ما يلي :

١. «قصة الأمير والقمر» للكاتب «يورى ايفانز» وهذا نصها (نجم : ١٤٢٦ هـ، ص ص ١٠٤، ١٠٥).

: قالت الصغيرة لي من الذي سرق القمر؟ قلت: العرب. قالت: ماذا يفعلون به؟ قلت: يعلقونه للزينة على حوائط بيوتهم! قالت: ونحن؟ قلت: نحوله إلى مصابيح صغيرة تضيء أرض إسرائيل كلها.

ومنذ ذلك الوقت، والصغيرة تحلم بالقمر، وتكره العرب، لأنهم سرقوا حلمها وحلم أبنائها.

هذا الصباح جاء أمير صغير إلى بيتنا وقال: هل تقبلونني ضيفاً؟ رضينا به، لكن الصغيرة قالت: على أن تقول لنا من أنت؟ قال: أنا فارس من فرسان الأرض محارب قديم في أرض إسرائيل. مت صغيراً، لكنني أخرج مرة في كل عام، أطوف في هذه الأرض، وأسأل أن كان شعبي يسكنها أم لا؟ قالت الصغيرة: نحن شعبك وأنا حبيبتك أيها الأمير. قال الأمير: ما أروعك.. أطلب منك الملجأ ليلة واحدة، فتفتحين لي قلبك، أنت يهودية حقاً. قلت: نعم، كلنا هنا شعب إسرائيل. ضرب الأمير برمح وقال: إذاً تحقق الحلم الآن أستطيع أن أعود إلى قبري مرتاح البال. تشبثت به الصغيرة، وقالت: لا.. لم يتحقق الحلم بعد.

قال الأمير: كيف؟! قالت الصغيرة: لقد سرقوا القمر. قال الأمير (وهو يضرب برمح مرة ثانية): من؟ قالت الصغيرة: العرب. بصق الأمير على الأرض وقال الجبناء، كلهم لصوص وقتلة، ولكن لا بأس. سألت الصغيرة: وماذا ستفعل؟ قال الأمير: انتظري الليلة، سأعود لكي بالحلم الجميل. انتظرت الصغيرة، ألقت رأسها على إطار النافذة وظلت تنظر إلى السماء ومرت الساعات، ونام الأطفال والنساء والرجال والشيوخ ولكن الصغيرة ظلت تنتظر، لم تأس ولم تستسلم للنوم، لأنها تعرف أن أطفال شعب إسرائيل لا يكذبون. بعد منتصف الليل بقليل، انشقت الغيوم فجأة، ورأت الصغيرة القمر أول مرة، رأته جميلاً ورائقاً، حدقت فيه طويلاً، ثم ركضت إلى وقالت: استيقظ، وقادتي إلى النافذة وقالت: أنظر يا أباي، هل هذا وجه الأمير الصغير؟ قلت: يا بنتي، الذي سرق القمر هو الذي قتل الأمير الصغير. لم تبك الصغيرة، فقد تحقق حلمها وأشرق القمر على أرض إسرائيل.

وفي هذه القصة محور فكرة الاستيطان وأنها واجبة عليهم وحق يجب غرسه في الأجيال الجديدة وكذلك تكريس فكرة كره العرب وتعبئة الجيل الجديد بالأفكار الصهيونية وأن القتل هو الحل مع عدم الرغبة في القتل بل ضرورة يجب على اليهودي ممارستها.

٢. «قصة حسمبه ولصوص الخيل» للكاتب الإسرائيلي «إيجال موسينزون» تروى أنه عندما كان «مصطفي» يتسلل إلى داخل إحدى المغارات للسرقة، انقض عليه «منشه» أحد أبطال القصة، وفي أثناء التحقيق قال مصطفي بعبرية ركيكة: أنا لا يوجد خيل، أنا لا يوجد أعرف شيء. لقد جاءت الخيل من تلقاء نفسها، إنني أبحث عن سحالي، إن جدتي مريضة للغاية، وعندما تضع عشرين سحلية على ظهرها فإنها تنهض من سريرها؟!»

ومن الواضح أن هذه القصة تترك في نفس الطفل الإسرائيلي شعوراً بأن العدو الذي تحاربه إسرائيل يتبنى قيما وعادات متخلفة، ويشعر بأن بلده لا يحتل أرض الآخرين، ولا يضطهد سكانها، وإنما يعمل على تخليص سكان هذه الأراضي من حالة التخلف الاقتصادي والحضاري التي يعيشون فيها (يحي: ١٤٢٦ هـ، ص ٤٥).

٣. وأما «قصة تحيا الشجاعة» للكاتب الإسرائيلي «مناحيم تلمي» فتصور وحشية الجنود العرب من خلال الحوار الذي دار بين القناصة العرب الذين كانوا يوجهون نيرانهم صوب مستوطنة «يعاربا» وتباهي أحد القناصة قائلاً: طلقة واحدة وانتهى! وقال آخر إنهم لا يجروءون على مغادرة بيوتهم. وعندما شاهد أحد القناصة امرأة في المستوطنة قال للآخرين: إنها غنيمة لنا، وسوف أخذ بعض أبقارهم الحلوب، وسأستولي على إحدى فتياتهم!!

وفي هذه القصة تشويه لحقيقة الصراع وأهدافه، وهي تزرع في نفس الطفل الإسرائيلي الشعور بأن هزيمة إسرائيل في المعركة لن تؤدي إلى فقدان سيطرتها على الأراضي العربية فحسب وإنما إلى العيش في حالة من الذل والاضطهاد. هذا بالإضافة إلى الوقوع في أسر العرب الذين يعيشون كما تصفهم القصة في حالة مطلقة من التخلف (يحي: ١٤٢٦هـ ص ٤٥).

٤. «مغامرات أوزيا أوز» للإسرائيلي «هازي لاين» بطلها طفل إسرائيلي يهاجم أعداءه العرب، وينتصر عليهم دائماً؟! فهم جنباء مصاصو دماء لا يتورعون عن فعل أي شيء لإشباع رغباتهم في القتل.

وأما الأدب الموجه للأطفال خارج الكيان الصهيوني فتتولى المؤسسة الصهيونية نشره من خلال مئات الصحف والكتب، وتؤكد هذه المعاني. فمن ذلك كتاب «داود الصغير» الذي يصور العرب في مظهر المعتدين ويربط بينهم وبين هتلر. وأن الألمان بعد هزيمتهم في الحرب قد لبسوا الطرايش، وجاءوا إلى الشرق ليواصلوا رسالتهم في اضطهاد اليهود ثم تزرع صور الكتاب-في خبث شديد-بذور الشفقة العارمة في نفس الأطفال على داود الصغير الذي وجد نفسه في مستهل تأسيس دولته يواجه اضطهاد العرب والإنجليز معاً!!

وفي أحد معارض الأطفال في إحدى دول أوروبا عرضت إسرائيل قصة كتكوت صغير يقف وحيداً وسط عدد من الديكة المتوحشة التي تلتف حوله تريد الفتك به؟! وينادي الكتكوت إنه لا يريد شيئاً، إنه يريد الحياة في سلام وسط الديكة المتوحشة المعتدية وقد طبعت هذه القصة طباعة فاخرة مزدانة برسوم جميلة وكلمات بسيطة. وستكون ثمرة قراءة هذه القصة أن الأطفال سيقفون إلى جانب الكتكوت («إسرائيل») ضد الديكة المتوحشة («العرب») لينقلب ذلك في المستقبل إلى عداء شديد لمن يمثلون التوحش. وإلى تعاطف كبير مع من يمثل البراءة.

وقد أثمر هذا الأدب، وأعطى نتائجه بحسب ما يريد المخطط الصهيوني («الجرائم والمذابح الجماعية للأطفال والشيوخ والنساء هي نتيجة طبيعية لما تبذله الصهيونية من جهود، وما توظفه من إمكانات في تربية الأطفال منذ نعومة أظفارهم على الحقد والكراهية، وتقبل الأوامر دون مناقشة، وتنفيذ أبشع الممارسات بروود الأعصاب (يحي: ١٤٢٦هـ، ص ٤٥). ومنطق الشعر العبري- بالتبعية- لم يكن مخالفاً بالقطع لمنطق الأجناس الأدبية العبرية الأخرى لأن المرجعيات والأسس والأبعاد الإيديولوجية واحدة لهذا الأدب العنصري الذي يردد «تيمات» التفرد والتفوق على «الأغيار» وهي مزاعم ثابتة ومكررة في كل أدبياتهم التي تحمل قناعاتهم المطلقة بالسيادة على جميع الأجناس البشرية («الأمميين»)، وهي أفكار باتت

معروفة عن الدين اليهودي والحركات الصهيونية وتشظياتها التي تشظت بها منذ أمد بعيد أشعارهم وكل فنونهم الأدبية التي ترمى للترويج للدعاية الصهيونية التي تحاول تصوير الغزو الصهيوني لفلسطين على أنه امتداد لوجود بني إسرائيل في تلك الأرض رغم أن الجماعات اليهودية التي أتت بها الصهيونية وإن تميزت بوحدة الدين إلا أنها تفتقد الوحدة القومية كما أن الفروق الجوهرية بين هذه الجماعات تقدم البرهان على أن الصلة مقطوعة بينهم وبين بني إسرائيل الذين دخلوا فلسطين غزوا لأراضيها! (البطوسي : ١٤٢٤ هـ ، ص ٥٤).

والدارس لقصائد الشعراء اليهود أمثال: الشاعر القومي «بياليك» وشاعر البلاط الصهيوني «الترمان» وأشهر شعراء العبرية «عميحاى» وغيرهم سيقف عند تبريراتهم لهذا الغزو الاستعماري لأرضنا المحتلة عبر مرجعيات تراثية مسوفة وكتابات أدبية مشوهة وإيماءات وتصريحات مخادعة للحقيقة والتاريخ الإنساني فبينما «بن جوريون» يقرر مجيباً «تسألني عن الشعب الفلسطيني! إنه غير موجود، لذلك نحن نبحث عن أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض». فإن «زئيف» بن «بيجن» يؤكد «صك ملكية فلسطين بيدنا منذ أربعة آلاف سنة!!». وتشير الشاعرة «أنا نجرينو» في إحدى قصائدها إذ تقول بغطرسة مستندة إلى المرجعيات التي غرست في نفسها منذ نعومة أظفارها:

قالت لي أمي
بأنني ابنة لشعب غنى بالأسفار
والأغيار جهلة
حتتني لأن أكون في المقدمة
لأنني يهودية!!

كما نجد كاتبة الأطفال «مسيكا ياسوشيه» قد سخرت قلمها لنقش شظيات العنصرية على صفحة الطفولة خصوصاً في كتابها «داود المغنى» حيث تخاطب الأطفال بالكلمة والريشة والألوان وتترك لديهم شعوراً بالمرارة، وهي من خلال «الحدوتة» تثير عواطف ودموع الصغار للبكاء على «أورشليم» التي صارت في أيدي الغرباء وتغرس في نفوسهم بذور الصهيونية الخبيثة وتقنعهم بما يسمى «نبوءة العودة» إلى أرض الميعاد!! (البطوسي : ١٤٢٤ هـ ، ص ٥٦، ٥٧).

كما حملت قصائد «افريم سيدوم» صوراً شعرية مفعمة الدم والجريمة حيث يقول في إحدى قصائده:

«بأطفال صور وصيدا
إني اتهمكم. ألعنكم

... ..

ستنامون محطمي العظام
في الحقول وفي الطرقات
لا تسألوا لماذا
أنه العقاب
والآن حان عقابكم»

وهذه الصورة لا تختلف كثيراً عما قالها الشاعر والكاتب الصهيوني «بياليك» التي قررت معظم قصائده في المرحلة الأساسية من التعليم العبري وقد حفظها معظم الأطفال اليهود إذ يقول:

قوموا أيها التائهون في الصحراء
أخرجوا من البرية
ما زال الطريق طويلاً

...

إني أعرف قدر إسرائيل
فلسوف تقهر الأمة المتبعة العمالقة
ويأتي الاستشراق المستقبلي من خلال
نظرة يعقوب باتمار

الحرب المقبلة... ننشئها... نريها من بين حجرات النوم.. وحجرات الأولاد النعاس أخذ في الاصطباغ بالسواد ونحن في فزع من الاقتراب منه (مجلة العالم : ٢٠٠٤ م ، ص ٤٣).

ومن هذا الجانب كان الأدب العبري في هذا الاتجاه انطلاقاً من النصوص التي كتبها رواد الهكساة، كونها قامت على غرار حركة التنوير الأوروبية. ففي أوروبا الغربية دعت اليهود للاندماج «في المجتمعات التي يعيشون فيها في أحياء يهودية منفصلة اجتماعياً تعرف باسم الجيتو .. يعيشون حياة هامشية هدفها الأول استنزاف أموال الآخرين بأقصر الطرق كفتح الخمارات والعمل في الربا وكانت هذه الدعوة في الأساس تؤسس للنظر للظرف المناسب الذي يسير باليهود نحو الأفضل سواء في مواقع القرار أو المواقع العلمية والمادية لاستثمارها

في مشروعهم الكيانى.

إلا أن الدعوة ذاتها كانت أقل تأثيراً في يهود أوروبا الشرقية، فهم يعيشون على حال من العزلة والفقر والجهل ورفض الأفكار الغربية. وأمام رداءة الأوضاع بدت دعوة الهجرة والمستقبل الزاهر الحل الأمثل للخروج من هذا الوضع، وقد عمل على الترويج لهذه الأفكار الجمعيات الدينية وفي مقدمتها حركة البيلو التي استغلت القوانين الروسية التي حتمت على اليهود العيش في مجتمعات تعرف بالغيتو كما ظهرت جمعيات أخرى تنادى بالرحيل إلى أرض الميعاد والهيكل المزعوم والشعب المختار وقد وجدت صدى كبير لدى الفئات المحرومة منهم. وبعدها استغلت كل إمكانياتها في الترويج لهذه الأفكار، وبما أن اليهود في تلك البقاع أصبحوا مقتنعين بالهجرة فإن ارتكاز الدعوة الصهيونية ذات النزعة العلمانية على الدين كان المقوم الأساسي في تحقيق غاية المؤتمر التأسيسي للحركة الصهيونية الذي انعقد في بال ١٨٨٧م، وقد استمد هرتزل فكرته من القومية الأوربية العنصرية» (مجلة العالم : ٢٠٠٤م، ص ٤٢).

وإذا كان الفكر الأوروبى في عهد النهضة قد قام على فصل الدين عن الدولة واستطاع إقناع الأوروبيين بأن المشكلة تكمن في رجال الدين والكنسية وخاصة أن الاكتشافات العلمية ساهمت إلى حد بعيد في دعم هذه النظرة، فإن الفكر اليهودي سار على ثنائية المال والدين لإقناع الناس بأرض الميعاد. ومن هنا بدأت الأهداف العامة في التبلور علمياً وأدبياً. وقد تطوع الأدباء لبيان ذلك، من أمثال «شاؤول تشير نيكوفسكى» و«مناحيم نحمان بياليك» اللذين تزامن شعرهما مع البروتوكولات والحركات التي كانت تعد لتأسيس الكيان الصهيوني وقد كانت الفترة (١٨٨٢م - ١٩١٢م) فترة التحرك اليهودي بامتياز إذ أن معظم الجمعيات والفعاليات قد كرسست جهدها لتحويل اليهود إلى أناس قلقين في أوطانهم يسعون إلى الهجرة وقد استغلت الجمعيات ذلك وعمدت إلى تهويل أي حادثة يتعرض لها اليهود وكل ذلك كان يتم وفق خطة وأهداف منهجية للوصول بأكثر قدر ممكن منهم إلى فلسطين.

ولم يكن الأدباء بمعزل عن مواكبة الأحداث فقد سجلوا معظم الحوادث بل إن متونهم أضحت تشكل المادة الرئيسية للمنهج التعليمي التربوي في الكيان العبري. ومن هنا يمكننا القول أن رواد الحركة الصهيونية قد وضعوا أهدافاً عامة يمكن تلخيصها في اتجاهين (مجلة العالم : ٢٠٠٤م، ص ٤٣).

الأول: خارجي تمثل في خلق بلبلة داخل اليهود في مختلف الأقطار حتى تضيق بهم سبل العيش ويقتنعوا بأفكار الحركة الصهيونية.

الثاني: تهيئة الجو العام وزرع فكرة العودة إلى فلسطين .

وهذان الاتجاهان كان لهما الأثر الأقوى في كتابات الأدباء والشعراء لتصوير المأساة على أنها نتاج لهذا الشتات في أصقاع الأرض والتشردم الحاصل بين أبناء الملة الواحدة. ولم تكن الأفكار والانتاجات الأدبية والرؤى السياسية تسير بمعزل عن السممة العنصرية كونها الفكرة المحورية والانتاج الصهيوني كان سباقاً إلى التخطيط لربط التربية بالفكر الديني والعربي المتطرف.

وعلى خلفية هذه المزاعم، تبنت الصهيونية جملة من الحجج والذرائع لإقامة كيانها الاستيطاني، فبالإضافة إلى «الأرض الموعودة» و«الحق التاريخي» كانت مفاهيم «الرسالة الحضارية» و«الريادة» و«إحياء البلاد» و«تجفيف المستنقعات»، وسواها، تنتشر في الأدبيات الصهيونية على أنها مقومات شرعية لبناء «الدولة اليهودية الجديدة في أرض إسرائيل».

أن «الخطاب التربوي» الصهيوني الخاص بالتاريخ اليهودي وحق العودة وملكية الأرض، يرمى إلى تشريب الناشئة اليهود جملة من القناعات الراسخة التي تشكل ردوداً على التساؤلات التي قد تثار في أذهانهم، بشأن تهجير عرب فلسطين من البلاد، ولعل من أبرز الغايات التي تتوخى جهات التنشئة بلوغها في هذا الصدد، ما يلي (عبدالكريم: ١٩٩٣م، ص ١٥٣):

١. إيجاد ارتباط وثيق بين الناشئة واليهود وبين ما يسمى «أرض إسرائيل»، على النحو الذي يحذف من أذهانهم ارتباط أي شعب آخر بهذه الأرض.

٢. حمل الناشئة على الاعتقاد الجازم بأن عودة آبائهم وأجدادهم إلى (وطنهم) هي عودة مبررة تحت عنوان «أن الشعب اليهودي هو وحده الذي يملك البلاد منذ قديم الزمان».
٣. قمع وإزالة أي باعث قد يظهر للشعور بالذنب لدى الناشئة، حين يعلمون أن الاستيطان اليهودي تسبب في إلحاق الظلم بالعربي، بذريعة أن هذه الأرض هي تاريخياً لليهود.

٤.

وفي كتب الأطفال التجارية الإسرائيلية، تتكرر الرواية الخاصة بولادة إسرائيل بصياغات مشابهة من حيث المضمون. ويتم التركيز في هذه الكتب على أن «شعب إسرائيل هب للدفاع عن بلاده ولنيل الاستقلال». ولم يكن أمامه أي خيار في خوض الحرب ضد العرب. ويكثر واضعوها من قصص يكون فيها الأبطال أطفالاً. ومن هذه القصص، ما ورد في قصة بقلم «إبراهيم بن شاحر» بعنوان «ثعالب في الخرائب» التي يروى فيها قصة الحي اليهودي في القدس في مايو ١٩٤٨م.

وتمتزج في هذه القصة مشاعر الخوف وروح الجماعة والمسئولية والبطولة. وسلسلة

«أولاد المدينة القديمة» التي تقص مغامرات الأطفال اليهود في القدس أبان حرب ١٩٤٨م، وبطولاتهم أثناء الحصار وفي الأسر، ومنا لقوه على يد العرب من عنف وتعذيب (عبدالكريم : ١٩٩٣م، ص ص ١٦٢، ١٦٣).

ويبين البروفسور الإسرائيلي «أدير كوهين» في دراسته لكتب الأطفال الإسرائيليين الخاصة بسنوات تأسيس الاستيطان وسنوات الانتداب البريطاني، أن أدب الأطفال العبري الذي يتحدث عن السنوات التي سبقت قيام دولة إسرائيل، يسعى إلى إعادة تكوين الحقبة الزمنية وإحياء الشخصيات التاريخية. وأن هذا الأدب ليس سوى قصة تتحدث عن الصراع مع الواقع الأليم الذي لا نهاية له، وقد ساهم في إحياء هذا الصراع المرير.

ومن ضمن هذه الكتب، وأمثالها، يرجى باستمرار تلقين الناشئة رواية أحادية الجانب، صهيونية المضمون، في محاولة لخلق التواصل الفكري والنفسي مع المرحلة التي سبقت قيام إسرائيل. كما يسعى القائمون على علمية التنشئة إلى توجيه الطفل الإسرائيلي ليبقى دائماً على المسار الذي رسمته الصهيونية، ليس فقط في اتجاه تحسين الأداء الاستيطاني العام، وإنما أيضاً في التصدي للتحدي العربي الذي يصورنه لهم مسألة حياة أو موت (عبدالكريم : ١٩٩٣م، ص ١٥٩).

أن أدب الطفل الإسرائيلي يتم كتابته بناء على إستراتيجية محددة حيث يرتبط بالمتغيرات السياسية على الأرض وفي الواقع أنه أدب جيد بالمقاييس الفنية والتقنية وينجح في جذب الطفل غير الإسرائيلي في العالم كله، كما أن أدب الطفل الإسرائيلي يتسم بقيم العنف والكره والعدائية على العرب.

قصص الأطفال للطلبة اليهود:

عمدت السلطات الإسرائيلية إلى إصدار سلاسل من القصص لتحقيق غايتها، نتناول منها، سلسلة قصص «داني دين».

وهو شخصية أسطورية، خارقة، متفوقة قادرة على هزيمة العرب مهما كانت قدرتهم العسكرية، ومن عناوين هذه السلسلة «داني دين في جهاز التجسس»، «داني دين بطل إسرائيل»، «داني دين في الأسر»، «داني دين في حرب الأيام الستة»، «داني دين في جهاز الاستخبارات»، «داني دين في الطائرة المحطوفة»، «مغامرات داني دين»، «داني دين بين الوحوش الضارية» (رشيد : ١٤١٨هـ، ص ١١٣).

تعتمد هذه القصص على الخيال المفرط في الأحلام، ومحورها «داني دين» الشخص الذي يرى ولا يُرى، ولذلك يستطيع أن يقوم بالأعمال الخارقة دون أن يراه أو يشعر به أحد، وقد هدفت القصص إلى غرس العديد من الأهداف التي منها (رشيد : ١٤١٨ هـ ، ص ص ١١٣، ١١٤) :

- « غرس الحقد والعداوة ضد الدول العربية جميعها.
- « ثقة الأطفال اليهود بجهاز الأمن الإسرائيلي، وترغيبهم في العمل في هذا الجهاز لمصلحة الوطن.
- « بذر روح الشك في نفوس الأطفال بالخطر دائماً من جميع الأفراد إذ إن الجواسيس العرب ينتحلون أسماء عبرية ويتحدثون باللغة العبرية.
- « الاستهزاء بشبكات التجسس العربية إذ أنها لم تكتشف «داني دين» وهو الذي يرد على مخبراتهم من مكان قريب.
- « إبراز التقدم في مضمار اختراع وسائل الحرب الجديدة لدى إسرائيل، بحيث تصفي روح الاطمئنان بتفوقهم وسيطرتهم على آلات الحرب والدمار.
- « إظهار «داني دين» واليهود عموماً بالعرقية في تدمير الخطط وكشف شبكات التجسس دون عناء، وأن «داني دين» مستعد دائماً أن يفعل كل شيء حتى لو كان العمل خطراً جداً.
- « تعليم الطلاب اليهود أن الشرطة السرية بإمكانها التنكر بأزياء عمال بناء أو تنظيفات، أو مصلحي كهرباء أو بائعي صحف.
- « إدخال الذعر والرعب في نفوس الأطفال، بأن أي شبكة تجسس لصالح العدو، لا بد أن تحتمل وجود جاسوس يعمل لصالح الدولة، ولذلك فلا تعاون بين الجواسيس فكل منهم يخاف الجاسوس الآخر.

ويقول اثنان ممن اشتغلوا في الدراسات التحليلية للقصص وكتب أدبيات الطفولة ، وهما البروفسور «ادير كوهين» في كتابه «وجوه قبيحة في المرأة» الصادر عام ١٩٨٥ في تل أبيب و«نيلي مندرل» الصحيفة المتخصصة في شؤون التعليم والتربية في صحيفة هآرتس : إن هناك أكثر من (١٥٠٠) كتاب من أصناف عديدة بين أيدي الناشئة اليهود تمثل ذروة الاستعلاء والفوقية اليهودية التي تلازمها دونية مغرقة في التحقير لكل من هو عربي ومسلم، وأن هذه الكتب يمكن العثور عليها بسهولة في أي زاوية من زوايا الشوارع ، أو أي مكتبة شعبية مهما يكن حجمها، أو في مكتبات المطالعة العامة المنتشرة في كل مدينة أو مستوطنة صهيونية (سمعان ، الحافي ، أبو جابر ، أبو فرج : ٢٠٠٤ م ، ص ٩٠).

وهناك وصفان للأدب والتوجيه التربوي الصهيوني أطلقهما المرحوم الشاعر «معين بسيسو» و«أنطون شحلت»، الأول وصفه بأنه (أدب الحلوى المسممة) والثاني أطلق عليه وصف

(أدب التبهيم)، ذلك أن هذا الأدب يعبر عن وجهة نظر أحادية الجانب «هي وجهة نظر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية» التي تخلو من كل نظرة إنسانية للإنسان العربي الفلسطيني والعربي والمسلم حيثما وجدوا.

وفي معرض تعليقها على هذا المنحى الصهيوني غير الإنساني في مخاطبة عقول الناشئة اليهود تقول «نيلي مندلر» في صحيفة هآرتس ٢٠/١١/١٩٨٤م: «قراءات إسرائيل (وقراءات إسرائيل الحديثة) قد وجدناها محشوة بعبارات التحقير والأوصاف غير الإنسانية المتوحشة، فإن الكتب المرجعية التي تقرها وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية والمتداولة بين أيدي المعلمين والمربين هي أشد عنصرية وأكثر فظاعة مما يستخدمه الطلبة أنفسهم» (سمعان، الحافي، أبو جابر، أبو فرج: ٢٠٠٤م، ص ١٩٣).

وفي كتاب للكاتب «عوديد بتسهار» نفسه بعنوان «ليس على جادة الصواب» ترسم علامات الخوف والرعب بين السطور من خلال الصور الواردة فيه، حيث يثير في نفوس الأطفال والناشئة الكراهية والحقد على العرب بعد أن يكون قد شوه صورتهم الإنسانية بنعوت يندى لها الجبين، كما تعدى ذلك إلى نطاق آخر أكثر شمولية لتصبح صورة الجندي العربي من خلال كتاب أولاد المدينة القديمة وحربهم ضد المتسللين «الذي ألفه حاييم اليافا، في هذا الكتاب يصف هذا القصصي جندياً في الجيش العربي الأردني أن له عينين حادتين لامعتين تتطلعان شزراً إلى يهود، وهما متعطشان للدماء. أما «أون شريغ» هذا القصصي المغرق في الخيال في «السوبرمانية» اليهودية واليهودي الخارق، فقد ألف مجموعات قصصية أبرزها سلسلة «داني دين الذي يرى ولا يرى» وهذه تنصب كلها في تحقير صورة الإنسان والجندي العربيين والتقليل من شأنهما وبعثهما بالغباء المختلط بالجن، إضافة إلى سلسلة (يوفال موسيزون) التي نحاً فيها المنحى نفسه «أون شريغ»، إذ يتخذ من الفرد «حسمبا»، بطلاً قادراً على هزيمة الجنود العرب وإفشال خططهم القتالية، ثم قصة (رجال الاستخبارات الشبان في حرب سيناء) «لافير كرميلي» التي تسرد أعمالاً خيالية خارقة نفذها رجال الاستخبارات الشبان من اليهود في أثناء هذه الحملة/ حملة قادش عام ١٩٥٦م ضد القوات المصرية (سمعان، الحافي، أبو جابر، أبو فرج: ٢٠٠٤م، ص ١١٢).

وفي مرحلة تالية أخذ التشويه في أدب الأطفال بعداً آخر، فبعد أن كان العربي يوصف بأنه بدوي قاطع الطريق-قبل التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد-صار يتهم بأنه يمارس تجارة خسيصة كالتهريب والجاسوسية وخطف الطائرات والعمالة للدول الأجنبية، حيث برز ذلك جلياً لدى «يهوشوع بيبير» في حكايته الخيالية «ورقة فوق الوادي» وقصة «الفارس من الصحراء» والحان على الهضبة للقصصي «يغال بن نتان».

وفي محاولة من نوع آخر حاول أن يسبغ عليه كاتب هذه القصة الخيالية (فتى في حارة الحدود) حالة من التعايش العربي اليهودي إلا أن مؤلفها «ل. شاؤول» أوحى لقراءه أن الصهيونية في حقيقتها ليست منظمة عنصرية استعمارية، بل هي حرب على الفقر، والحياة البدائية جاءت لتحل مشكلات المهاجرين اليهود الجدد ومعضلات المستوطنين، وجمع الشتات اليهودي الذي يتحمل مسئوليته العالم بأسره والعرب بشكل خاص، حيث عليهم أن يسهموا في جمع هذا الشتات، لأن جمع الشتات اليهود سيعود بالفائدة على الإنسان العربي، وأن إسرائيل التي تجمع كل اليهودي ليست نقمة بل نعمة، فبناء المجتمع الإسرائيلي الواحد يبعث الراحة والطمأنينة للأجيال. أما أعياد إسرائيل فتبعث الفرح والمتعة والتسلية لدى الإسرائيلي، فيما تبعث على الإحباط لدى العربي (سمعان، الحافي، أبو جابر، أبو فرج: ٢٠٠٤م، ص ص ١١٢، ١١٣).

هكذا يوظف الأدب عند اليهود لخدمة أغراضهم السياسية وأهدافهم التوسعية ومخططاتهم الصهيونية، وعلى الرغم من أن الأدب، في التجربة الإنسانية على مدى التاريخ الإنساني الطويل، كان ولا يزال وسيلة الإنسان للدفاع عن الجمال والخير والقيم الإنسانية النبيلة، ونافذته للتمتع بالتجربة الإنسانية وسبر أغوارها والتعرف على أسرارها وآلامها وأفراحها، فإن تجربة الأدب الصهيوني هي التجربة التي شذت عن مسار الأدب الإنساني عبر تجاربه الطويلة، وقد تكون الأولى من نوعها التي توظف الأدب للقيام بعمليات تضليل كبرى تربي عليها أجيال متعاقبة من اليهود معبأة بالكراهية والحقد واحتقار الآخر، مزودة بالأكاذيب والتاريخ المزور والأضاليل.

الخاتمة:

أن أدب الطفل العربي مازال في مرحلة النمو وهو يحتاج إلى حماس وجهود الجميع (كتاب وشعراء ورسامين وإعلاميين وناشرين وباحثين.. الخ) ومازال الإنتاج المقدم للطفل ضعيفاً جداً كما ونوعاً، وإن كان هناك بعض الجهود المتميزة ولكن تظل قليلة إذا ما قارناها بالحاجة والفقر الشديد في هذا المجال، وكلنا يأمل ويتطلع إلى النهوض بأدب الطفل والارتقاء به خاصة أن هويتنا العربية والإسلامية تتعرض لمواجهات وحملات عنيفة أشد من العصور الماضية.

كما أن أدب الأطفال يجب أن يرقى إلى مستوى العصر، ويدخل عصر المعلوماتية والعولمة والانترنت والفضائيات، محصناً بالرؤية الإسلامية في معالجة الأمور.

ونحن كعرب في حاجة إلى مراجعة مناهج وأساليب الكتابة للأطفال بصورة تؤدي إلى تنمية التفكير النقدي لديهم والقدرة على الإبداع والتفكير، وتطور قيم المشاركة والتسامح والحوار مع الآخر، وكيفية التعامل الإيجابي مع التكنولوجيا الحديثة وتوظيفها في اكتساب المعارف والعلوم وفي التواصل مع الآخر.

كما ينبغي الإشارة إلى أن موضوع أدب الطفل العربي لم ينل الاهتمام الأكاديمي الواجب عندنا، على الرغم من خطورته وحيويته، ولا ينبغي أن يترك العمل فيه من طرف وحيد فعلى أدباء الطفل العربي الانتباه إلى معطيات أدب الطفل العربي، ومطالعتة حتى يتسنى مواجهة عناصره المضللة. فالوعي بالقضية بداية المواجهة الموضوعية.

المراجع:

- جبرة ، محمد بن علي (١٤١٤هـ) : «من أجل أدب إسلامي للأطفال» -مجلة الوعي الإسلامي- العدد(٣٣٢) - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت .
- الأمراني ، حسن (١٤١٤هـ) : «أدب الأطفال وجهة نظر»- مجلة الأدب الإسلامي- المجلد ١- العدد٢- رابطة الأدب الإسلامي- المملكة العربية السعودية .
- الهرفي ، محمد علي (١٤٢٦هـ) : «تربية الأطفال بين العرب وإسرائيل»- مجلة الحرس الوطني- السنة ٢٧- العدد ٢٤٨ - رئاسة الحرس الوطني السعودي- المملكة العربية السعودية .
- القطار ، محمد محمود (٢٠٠٥م) : «فلسفة التربية في الفكر الصهيوني»- مجلة المنار الجديد- السنة ٨- العددان ٣١/٣٢- دار المنار الجديد للنشر والتوزيع .
- وظفة ، علي أسعد (٢٠٠٦م) : «ثقافة الطفل العربي في زمن التحديات»- مجلة عالم الفكر- المجلد ٣١- العدد ٣- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت .
- عبدالكافي ، إسماعيل عبد الفتاح (٢٠٠٢م) : «القراءة للأطفال الصغار بواسطة الكبار»- مجلة الطفولة والتنمية- المجلد ٢- العدد ٥- المجلس العربي للطفولة والتنمية- القاهرة .
- سلامة ، فتحي (٢٠٠٢م) : الخطاب الإبداعي للطفل- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة .
- مجلة الأسرة (١٤٢٥هـ) : السنة ١٢- العدد ١٣٧- مؤسسة الوقف الإسلامي- المملكة العربية السعودية .
- يوسف ، عبد التواب (١٩٩١م) : أدب الطفل المصري ونصيبه العادل من هذا الأدب- في : الحركة الدراسية الإقليمية لعام ١٩٨٩م - الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة .
- بقاعي ، إيمان (٢٠٠٥م) : «كيف انتبه العرب لأدب الأطفال؟»- مجلة العربي- العدد ٥٥٧- وزارة الإعلام- الكويت .
- عبدالكافي ، إسماعيل عبد الفتاح (١٤٢٥هـ) : «أدب الأطفال العربي والإسلامي ودوره في تهيئة أطفالنا وأبناء الحضارات الأخرى لحوار الحضارات»- مجلة منار الإسلام- السنة ٣٠- العدد ٣٥٩- وزارة العدل والشئون الإسلامية والأوقاف- الإمارات العربية المتحدة .
- مذكور ، علي أحمد (١٩٩٣م) : كيف تنمي مهارة طفلك اللغوية- سلسلة سفير التربية- العدد ٥- شركة سفير- القاهرة .
- عبدالله ، حسن (٢٠٠٢م) : نظرة إلى مجالات الأطفال في بلاد الشام- في : ثقافة الطفل العربي- كتاب العربي- العدد ٥٠- مجلة العربي- وزارة الإعلام- الكويت .
- مراد ، بركات محمد (٢٠٠٥م) : «هل يوجد أدب أطفال في الوطن العربي؟»- مجلة الهلال- السنة ١١٣- العدد ٣- دار الهلال- القاهرة .

- خلاوي ، خالد محمد (١٤١٤ هـ) : «أين صحافة الطفل المسلم؟»- مجلة منار الإسلام-
السنة ١٩- العدد ٨- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف- الإمارات العربية المتحدة .
- باكور ، لحسن (١٤٢٦ هـ) : «أدب الطفل العربي الواقع والمستقبل»- مجلة منار الإسلام-
السنة ٣٠- العدد ٣٦١- وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف- الإمارات العربية
المتحدة .
- حاج يحيى ، يحي بشير (١٤٢٦ هـ) : «أدب الأطفال الصهيوني عدواني لا إنساني»- مجلة
منار الإسلام- السنة ٣١- العدد ٣٦٢- وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف-
الإمارات العربية المتحدة .
- عبدالكريم ، إبراهيم (١٩٩٣ م) : «قصة تأسيس إسرائيل كما تروى للنشأة اليهود»- مجلة
شؤون عربية - العدد ٧٦- الأمانة العامة لجامعة الدول العربية- القاهرة .
- نجم ، السيد (١٤٢٦ هـ) : «حول أدب الطفل العبري»- مجلة الحرس الوطني- السنة ٢٧-
العدد ٢٨٤- رئاسة الحرس الوطني- المملكة العربية السعودية .
- البطوسي ، عادل (١٤٢٤ هـ) : «اتجاهات الشعر العبري وشظاياها»- مجلة منار الإسلام-
السنة ٢٩- العدد ٣٤٤- وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف- الإمارات العربية
المتحدة .
- مجلة العالم (٢٠٠٤ م) : «المنطلقات الفكرية في المنهج التدريسي العبري»- السنة ٧-
العدد ٦٣- مؤسسة العالم للطباعة والنشر والتوزيع- المملكة العربية السعودية .
- رشيد ، هارون هاشم (١٤١٨ هـ) : «الصهيونية في الكتب المدرسية الإسرائيلية»- في : التعليم
في إسرائيل ديني أم علماني- كتاب المعرفة ٢- وزارة المعارف- المملكة العربية السعودية .
- سمعان ، سمير والحافي ، عمار وأبو جابر ، إبراهيم وأبو فرج ، سعيد (٢٠٠٤ م) : العرب في
مناهج التعليم الإسرائيلية- ط ١- مركز دراسات الشرق الأوسط ، عمان .

